

أعلام العرب



عبد الملك بن مروان

موحد الدولة العربية

بقلم
الدكتور ضياء الدين الرئيس

إدارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
تأليف والترجمة والطباعة والنشر

أعلام العرب

١٠

عبد الملك بن مروان

مؤيد الدولة العربية

حياته - وعصره

بقلم

الدكتور ضياء الدين الرسي

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذا أول كتاب يصدر عن عبد الملك بن مروان . أليس هذا عجيبا ؟ أليس عجيبا أن علما كبيرا من أعلام تاريخنا القومي : تاريخنا العربي الاسلامي ، وشخصية متميزة لعبت دورا من أهم الأدوار في حياة أمتنا — لم يكتب عنه كتاب خاص الى الآن ؟

اننا في عهد نعمل فيه لبث مجد الأمة العربية وتحقيق نهضتها وتجديد قوتها ، وتحدث فيه كثيرا عن القومية العربية ، فهل يمكن أن يتحقق ذلك الهدف ، أو هل يمكن أن يكون فهمنا لهذه القومية واضحا ، وإيماننا بها عميقا — إلا اذا فهمنا تاريخ الأمة العربية ، والأحداث الخطيرة التي مرت بها ، والرجال أو الزعماء أو الأبطال الذين صنعوا هذا التاريخ ؟

لذا كان مشروعا جيدا أن قامت « وزارة الثقافة والارشاد القومي » بإصدار هذه السلسلة عن « أعلام العرب » ، لتحقيق

شيئا من هذه الغاية وتملأ جانبا من هذا الفراغ ، ورحبت بالفرصة فاقترحت أن يكون موضوع الكتاب الذى أقوم بتأليفه عن « عبد الملك بن مروان » ، لما أعرف من أهمية الدور الذى قام به فى التاريخ ، وهو أحد كبار خلفاء «الدولة الأموية» : تلك الدولة التى ظهرت فى عهدها شخصية الأمة العربية بكامل قوتها ، وكان الطابع السائد فيها فى نواحي الحياة العامة عربيا محضا .

ففى هذا الكتاب نستعرض سيرة عبد الملك : حياته وأعماله ، فتوحاته وإصلاحاته — لكن سيرته مرتبطة بتاريخ أسرته وتاريخ أمته ، فلا بد اذن من معرفة هذه الأسرة ، ودراسة تاريخ الأمة فى ذلك العهد .

لذا جاءت فصول الكتاب متتابعة تتناول هذه الجوانب : فالأول عن « الخليفة والدولة » ، والثانى يوضح كيف قامت « دولة آل مروان » ، والثالث عن الأسرة الأموية ، ثم بينت الفصول التالية أحوال الأمة والأحزاب ، وما حدث من ثورات وما دار من صراع ، ثم جهود « عبد الملك » وسط هذه المعارك ، حتى وصل الى تحقيق هدفه الأكبر — وهو أعز

وأعلى هدف للأمة أيضا — ألا وهو تحقيق وحدة الدولة العربية .

ثم بعد أن تحققت الوحدة استعادت الدولة قوتها كعندها السابق ، واستطاع عبد الملك أن يقودها الى النصر في جميع الميادين ، فقهروا الأعداء وتمت في عهده الفتوحات العظيمة ، التي كان من أكبرها تحرير بلاد المغرب من رقة الروم ، فأصبحت تلك البلاد منذ ذلك الوقت من أهم أقطار العروبة والاسلام — كما تمكن أيضا في ذلك الدور من تنفيذ اصلاحات كان لها أكبر الأثر في تدعيم بناء القومية العربية . فبعد أن بينت الفصول كل هذه الجوانب ، جعلت الخاتمة خاصة بالحديث عن شخصية عبد الملك وصفاته وسياسته العامة وادارته للدولة ، ثم عن بيته وأولاده الخلفاء الذين قاموا بالأمر من بعده ، فأدوا للأمة خدمات جليلة . فالواقع أنه في الوقت الذي عرض فيه الكتاب سيرة عبد الملك وفصلها تفصيلا ، رسم صورة واضحة دقيقة لتاريخ الأمة العربية في فترة من أهم فترات حياتها ، وهي فترة تبلغ نحو ربع قرن في خلال القرن الأول الهجري — فترة تقرر فيها مصير الدولة العربية وحضارتها ومكانها في التاريخ والعالم . وإذا كان هناك عصر في التاريخ العربي الاسلامي يستلزم

أن يدرس ويكتب عنه أكثر من غيره ، فهو عصر الدولة
الأموية ، لأن تلك الدولة كثيرا ما صورت على غير حقيقتها ؛
أو كتب تاريخها على غير ما يرضى الحقيقة والعدل ، وطالما
حمل عليها وأسيء تقدير رجالها ، وذلك لأنها قامت نتيجة
صراع ، فكان لها منذ نشأتها أعداء كثير ، وبقي العداء
لها مستحكما الى اليوم . فأكثر ما كتب عنها كانت تمليه اذن
وتفسده النزعة الطائفية ، ولا سيما من الشيعة ومن يحذو
حذوهم — كما أنه جنى أيضا على تاريخ هذه الدولة —
وكثيرا ما يتعرض التاريخ كله لمثل هذا — ان تناوله غير
المختصين ، فبنوا أحكامهم على معلومات سطحية أو خاطئة
أو دراسة ناقصة . والتاريخ — بصفة خاصة — ينبغي أن
لا يتعرض له الا المتخصصون أو من يسير على منهجهم ،
لأنه يعتمد على الدراسة والتحقيق ، ويشتمل على اصدار
احكام ، وهو مجموعة من قضايا مثل القضايا التي تعرض
في المحاكم أو الحياة العامة الآن — وان كان زمنها في الماضي —
فكما لا يستطيع أن يفصل في قضايا الحاضر أو يصل
الى الأحكام الصحيحة فيها الا القضاة أو الفاقهون في
القانون ، كذلك لا يستطيع أن يصدر الأحكام السليمة
العادلة في قضايا التاريخ الا من خصصوا جهودهم للبحث

والتحقيق فيها ، وتكونت عندهم ملكة النقد التاريخي ،
وتوفرت فيهم شروط الباحث ومن أهمها التجرد للحقيقة .
فقد بذلنا كل الجهد اذن لكى نصل الى الحقيقة ،
وتقدم الصورة التاريخية الصادقة عن هذه الفترة من تاريخ
الدولة الأموية — وهى التى يجدر أن تسمى عصر عبد الملك
ابن مروان — وعن الأحداث التى تكونت منها سيرته .
وحرصنا فى اصدار الأحكام عن موقفه وعلاقاته بالأشخاص
الذين ناضلهم ، أو كانت له بهم صلة ، وكذلك فى الحكم
على هؤلاء الأشخاص ، وما عدا ذلك — أن تكون الأحكام
كلها قائمة على مبدأ الموضوعية ، دون تأثر بالميل لبعض
الطوائف أو بالأفكار العامة الشائعة — وإن كان ذلك كله
لا يقدم بأسلوب الدراسة الجامعية أو « الأكاديمية » ،
ولكن بأسلوب المناسب للكتاب الذى يقصد به الثقافة
العامة ، والذى يطلع عليه أكبر عدد من القراء .

فعسى أن تكون الصورة التى سيحصلها القارئ من
هذا الكتاب بالغة حد الانصاف لتلك الدولة ، التى ظالما
عانت من الحملات الظالمة لذوى الأهواء — مع أنها أدت
خدمات جلّى للعروبة والاسلام . وعسى أن نكون بذلك
قد أدينا خدمة لتراثنا القومى ، وللثقافة الأساسية التى هى

صروية لتقوية الوعي بالقومية العربية والايان بها . وهل
هناك ما هو أجدر — لتحقيق هاتين الغايتين — من الوقوف
على حقائق تاريخ الأمة العربية ، وسيرة الزعماء أو القادة
أو الرجال الذين صنعوا حياتها الماضية ، التي صارت أساسا
لحياتها الحاضرة .

وقد يدرك القارئ مشابهات عديدة بين صور الماضي
والحاضر . وفي هذا التشابه كثير من الصدق ، ومنه يمكن
استخلاص كثير من الدروس والعظات ، لأنه لا يبعد التشابه
في تاريخ الأمة الواحدة — وإن كان التاريخ لا يعيد نفسه
تماما بجزئياته وتفصيله . فهل الدور الذي تمر به الأمة
العربية الآن من التفرق والخلاف والصدام ، يشبه الدور
الذي كانت فيه الأمة العربية عندما تولى عبد الملك بن مروان
الخلافة ؟ اننا نترك الحكم عن ذلك للقارئ بعد أن يطالع
الصورة في الكتاب ويدرسها .

والآن يسرنا أن تقدم كتابنا هذا الذي جعلنا عنوانه :
« عبد الملك بن مروان : موحد الدولة العربية — حياته
وعصره » . والله هو الموفق .

ضياء الدين الرئيس

القاهرة } ٢٦ ذى الحجة ١٣٨١
٣٠ مايو ١٩٦٢

الفصل الأول

الخلافة والدولة

اتته الخلافة منقادة •

في غرة رمضان من عام ٦٥ هـ وجد « عبد الملك بن مروان » نفسه خليفة .

أقبل عليه زعماء بني أمية وأمراء الجنود ورؤساء القوم ، فسلموا عليه بالخلافة في « دار الخلافة » بدمشق .
ذلك أنه في بكرة ذلك اليوم روعت « دمشق » نبأ سري في جميع أرجائها ، وهو أن الخليفة الذي عقدت له البيعة منذ عشرة شهور فقط ، وعلقت عليه كبار الآمال — قد مات فجأة ! . مات « مروان بن الحكم » دون أن يكمل العام الأول من خلافته .

ومع أنه لم يكن هناك شيء عجيب في أن رجلاً بلغ الخامسة والستين من عمره أو جاوزها ، وبذل جهداً فوق الطاقة في أواخر أيامه ، يدركه الأجل في أي وقت — فإن

الشائعات ، أو الروايات فيما بعد ، أرادت أن تجد وراء ذلك الموت الفجائي سرا ، وأن تقدم له تعليلا غير عادى ، فنسجت حوله قصة مشيرة ، وهى أن موت « مروان » الخليفة لم يكن طبيعيا ، ولا بسبب علة طارئة — كما ذكرت أقوال أخرى — ولكنه كان اغتيالا ، نتيجة مؤامرة دبرتها زوجته الأخيرة — على أنها امرأة جلييلة من نفس الأسرة — وهى بنت أبى هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس : أم خالد بن يزيد — وذلك انتقاما لحرمان ابنها من ولاية العهد ، ولعبارة اهانة قيل ان مروان وجهها اليها فى شخص ابنها على ملأ من الناس — وان كانت الروايات اختلفت بعد ذلك فى الصورة التى تم بها ذاك الاغتيال !

هل نقف لنحقق هذه القضية ؟ وهل هناك ضرورة لذلك ، وهذه القصة — مع ما تحتويه من عناصر متناقضة — تبدو لأول وهلة كأنها أسطورة اخترعتها مخيلات عجائز القوم ، ثم رددتها الألسن : اما حبا فى الثرثرة ، أو لتنال من سمعة هذه الأسرة الرفيعة المكاثرة ، حسدا لما وصلت اليه من مجد ؟ ! اتنا لا نرى هذه المسألة على كل حال ذات أهمية الآن . وسنعود اليها فى مناسبة قادمة ، لنبين وجه الحق فيها فى ضوء القرائن التاريخية . ولكن كيفما كان الأمر ، فالحقيقة

المؤكدّة التي لا شك فيها هي أن « مروان بن الحكم »
— سيد بني أمية وشيخ قریش ومؤسس دولة آل مروان —
قد انتهت مدته في هذه الدنيا في ذلك اليوم . فلما فرغ ابنه
والقوم من أمره ، توجه ابنه — وهو ولي عهده — على
الفور الى دار الخلافة ، وأقبل عليه الرؤساء وكبار رجال
الدولة فبايعوه . وهكذا تمت البيعة لابنه الخليفة الجديد ،
وهو « عبد الملك بن مروان » في نفس اليوم .

كانت هذه البيعة أمرا مقررا ، اذ كان مروان حكيما
بعيد النظر ، فاحتاط للأمر واتخذ له عدته قبل وقته . فما از
استتب له الأمر ، وشعر باستقرار دولته ، حتى حرص على
دعوة الرؤساء ممن يدعون أهل الحل والعقد ، وأخذ عليهم
المواثيق والبيعة بولاية العهد لابنيه : « عبد الملك » ثم
« عبد العزيز » ، فانعقد الأمر لهما . وتم ذلك قبل وفاة
مروان بأقل من شهرين . وكان هذا تدييرا بالغ الحكمة ،
فتمت البيعة لعبد الملك دون حدوث نزاع أو خلاف ، وأدى
ذلك الى استمرار الدولة ، وانتقل الأمر بكل هدوء من
الأب الى أرشد أولاده ، وقد حفظت وحدة القوم ، والكل
مجمع على مواصلة الجهد لاكمال البناء الذي وضع
أساسه الخليفة السابق ، حتى يصير صرحا شامخا .

في دار الخلافة

بدأت اذن خلافة « عبد الملك » في مستهل رمضان من عام ٦٥ هـ (وهو الموافق عام ٦٨٥ م) .

ولا يد أنه وهو جالس في دار الخلافة أخذت تجول بذهنه الذكريات وتتوارد الصور . فهو جالس في نفس المكان الذي جلس فيه قبله الخليفة الكبير « معاوية بن أبي سفيان » ، ثم ابنه « يزيد » ، ثم أبوه هو نفسه الشيخ « مروان بن الحكم » ، بل انه يمثل اتصال السلسلة في تألف نظام الخلافة الذي بدأ منذ قيام دولة الخلفاء الراشدين ، ومن بينهم الخليفة « عثمان بن عفان » الذي كان بمثابة رأس لأسرتهم ، وهو الذي وضع أساس المجد للدولة الأموية بصفة عامة والمروانية بصفة خاصة . فترتيب عبد الملك بين خلفاء الاسلام منذ بدء تاريخ الخلافة أنه الخليفة التاسع ، أو العاشر — ان عددنا خلافة الحسن ، والخامس بين الخلفاء الأمويين ، والثاني في دولة آل مروان . فياله من منصب خطير تقلده ، وما أعظمها من مسئولية ، وما أجله من مجد في الدنيا ، وأثقله من تبعه بالنسبة للأخرة . لقد أصبح عبد الملك « أمير المؤمنين » يتولى رعايتهم

وحفظهم ، وعليه أن ينهض بعبء قيادتهم ، ويحرص على
صيانة حقوقهم ، ويذود الأخطار عن دولتهم بل عليه أن يرفع
من شأن هذه الدولة حتى تصل الى ذروة المجد التي تبوأتها
منذ عهد غير بعيد ، وتبقى أبدا في مكان القوة والزعامة بين
دول العالم كما كانت دائما .

ثم ها هو ذا يجلس في مقر الخلافة في « دمشق » : هذه
المدينة الكبيرة العريقة ، ذات التاريخ القديم منذ عهد
الآراميين ، والتي شهدت مختلف الأقسام الى أن صارت
عاصمة اقليم سوريا في عهد الروم ، ثم تحولت الى مدينة
اسلامية عربية ، ومضى عليها منذ هذا التحول نصف قرن ،
وفدت عليها وأقامت فيها في خلاله وفود العرب : من قبائل
وجنود وساسة وعلماء وتجار ، وتكلمت باللسان العربي ،
وأصبحت مدينة اسلامية ، يشرق عليها النور بالدين والعلم
والحضارة ، ثم عظم شأنها فصارت عاصمة الدولة
أو الامبراطورية الاسلامية الكبرى ، الممتدة حدودها من
أواسط آسيا الى أقطار المغرب ، ومركز العالم الاسلامي
كله ، وذلك في عهد الخليفة معاوية وابنه يزيد ، ومضى عليها
في ذلك ربع قرن ، فكانت أهم مدينة في العالم في ذلك
الوقت .

كل هذه الخواطر — وأمثالها — لا بد أنها كانت تجول في ذهن خليفة دمشق الجديد : « عبد الملك » ، وكانت جديرة بأن تشيع في نفسه مشاعر الغبطة والفرح ، وتقدير النعمة والافتخار . ولكن المسألة كانت لها وجوه أخرى ، وكانت توجد الى جانب هذه الذكريات الحقائق الواقعة الصارمة ، وهي لا تثير الا مشاعر الأسف والقلق والاحساس بالخطر ، وتقدير المصاعب التي كانت تنتظر العهد الجديد . فاذا قورنت حال الدولة في أكثر عهودها السابقة : في عهد عمر أو عثمان أو معاوية بحالها حينما تقلد الخلافة عبد الملك ، فانه يتبين أن أحوالها تبدلت وتغير وضعها : كانت الدولة وحدة : كتلة متضامة ، فأصبحت الآن منقسمة متوزعة ، كان يسودها الهدوء ، فأصبحت الآن تسودها الفتن والاضطرابات ، كانت جهودها كلها متجهة الى محاربة العدو في الخارج ، فأصبحت الآن مشغولة بالتحارب بين أحزابها في الداخل ، كانت قائمة على أسس التضامن والألفة وتأييد الرأي العام ، فأصبحت الآن لا يقرر مصيرها الا السيف والمال والسياسة ، ولا بد من التصارع ، « والمملك لمن غلب » . فاذا فكر عبد الملك في ذلك ، فانه كان يشعر أنه لا يحق له أن يخالط قلبه السرور ، ولا يرى أن ما ورثه من والده

خير محض بل هو مسئولية وتركه ثقيلة وهم مؤرق ، ويتبين
أن ما آل اليه ليس لعمه خالصة ولكن أيضا محنة ، ستكلفه
الكثير من الجهود المضنية وسيبتلى فيها فكره وعزيمته
وارادته ، الى آخر مدى تتحملة القدرة البشرية . ذلك أنه
إذا نظر الى ما حوله ، ماذا يرى ؟

يرى أنه يوجد في الجانب الآخر من الدولة خليفة آخر
— فلم يعد على العالم الاسلامي خليفة واحد ، بل خليفتان — :
خصم قوى عنيد ، شخصية كبيرة ذات تاريخ مجيد وجهاد
مذكور ، أحد أبطال الاسلام ، وهو من الطبقة الاولى من
التابعين ، له صلات قرابة بالنبي عليه السلام وأبى بكر
والسيد خديجة ، وأبوه حوارى رسول الله ومن كبار
الصحابة ورجال الشورى — وهذا هو « عبد الله بن الزبير »
الذى أبى منذ البدء البيعة ليزيد ، أقام بمكة عائدا بالحرم ،
ثم عقب موت يزيد (٦٤ هـ) أعلن خلافته ، فبايعه أهل مكة
والمدينة أى الحجاز ، وأهل البصرة والكوفة أى العراق ،
وأرسل اليه بالبيعة أهل مصر واليمن وخراسان أيضا ، وكاد
أن يتم له الأمر لولا أن ظهر مروان وبايعه أهل الشام بعد
سبعة أشهر ، ولم يستطع مروان أن ينتزع منه غير مصر
فقط ، وذلك قبل وفاته بشهرين .

بذلك كان مع ابن الزبير القسم الشرقي كله من الدولة ، وهو الجزء الأكبر . فحين تولى عبد الملك خلفا من أبيه لم يكن في يده غير الشام ومصر فقط ، وهذه كانت حدود خلافته المحصورة . هذا على أن دولتهم لم تقم بالشام الا منذ عشرة أشهر فقط ، ولم تضم مصر الا منذ شهرين ، وأخذت البيعة لعبد الملك وفي بعض نفوس بنى أمية ما فيها ، فكانت الدولة بحاجة الى أن تثبت أقدامها .

ولم يكن الأمر قاصرا على هذا الحد . فهناك فريق من الأمة أعلن الثورة على هذه الأوضاع كلها — وثورته على بنى أمية كانت أشد — وهؤلاء هم الخوارج . وقد أقام جمع منهم دولة لهم بالأهواز في اقليم فارس جنوب البصرة ، وأقامت جماعة أخرى دولة ثانية في جزيرة العرب في اليمامة والبحرين وحضرموت . وفوق هذا كله ، كان هناك رجال الشيعة بالكوفة وغيرها يتأهبون وينظمون صفوفهم . استعدادا للقيام بثورة أو تكوين دولة ، وجل غضبهم منصب على الأمويين بالذات ، لأنهم — في نظرهم — هم الذين اغتصبوا الخلافة من آل البيت وأساءوا اليهم ، وقتلوا كبار أئمتهم .

فكانت الدولة الاسلامية العربية اذن ، التي كانت موحدة

من قبل — فيما عدا فترة الفتنة التي لم تطل بين على ومعاوية — منقسمة الآن الى أجزاء و فرق متباينة ، أو دول : فهناك دولة ابن الزبير في الحجاز ، ودولة بنى أمية في الشام ، ودولة الخوارج « الأزارقة » بالأهواز ، ودولة الخوارج « النجدات » بجزيرة العرب ، ودولة الشيعة بالكوفة في العراق . ولكن دولة بنى أمية بالشام تقف وحدها ، ويقف ضدها الباقيون موحدون في هدف محاربتها والقضاء عليها . فهكذا حين أُلقيت مسئولية الخلافة على كاهل عبد الملك . كانت دولته — وهي محصورة في منطقتها — محاطة بالأخطار مهددة من كل جانب . وكان عليه اذا أراد أن يضمن بقاء دولته أو يوسع حدودها ، أو يعيد الى اعادة الوحدة للدولة الكبرى ، أن يواجه كل هذه الدول الأخرى ، ويخوض معها غمرات القتال . هذا على أن الدولة كانت معرضة للأخطار من الخارج ، أيضا : فهناك دولة الروم لا تزال بالمرصاد ، تنتهز فرصة الانقسام لتغير على الحدود في الشمال والغرب . وقد ارتدت الجيوش في شمال افريقية ، بعد أن وصلت الى شاطئ المحيط ، وفقدت بعض الأقاليم . كما أنه كانت على الحدود — في الشرق — الجموع المتربصة من ترك وهنود وخزر وغيرهم . فالأخطار ماثلة في الداخل والخارج .

هذا هو مجمل الوضع كما وجدته عبد الملك في بدء
خلافته .

لكن كيف وصلت الأمور الى هذا الحد ؟ وكيف تطورت
الأحداث حتى تضدعت الدولة ، ووجدت هذه القوى التي
يقف بعضها في مواجهة بعضها الآخر ؟ وما سبب هذا الضغط
أو العداء ، الذي كان موجها من سائر أجزاء العالم الاسلامي
ضد دولة بني أمية ؟ . ثم كيف وصل الملك أو الخلافة لمروان
وبنيه ، وذلك منذ أواخر سنة ٦٤ هـ — مع أن مروان
وأسرته وابنه عبد الملك قضوا كل حياتهم في الحجاز ،
ولم يهاجروا الى الشام الا قبل البيعة لمروان بستة أشهر
فقط ، اذ أن قدومهم كان في شهر ربيع الثاني من
سنة ٦٤ هـ ، ثم تمت البيعة لمروان وبدأت دولته في
ذي القعدة من نفس هذا العام ؟ . وقد كان هذا تطورا
عجيبا ، وضربة فذة من ضربات القدر .

فلا تفهم التطورات ولا تتم الصورة اذن الا اذا عرفنا
أحوال الدولة في هذا العام التاريخي ، الذي كان في الواقع
عام انتقال في حياة الدولة كلها ، وكانت الدولة تمر فيه بدور
أزمة ، والأحداث التي وقعت فيه كانت الأصل لما تلاها من
أحداث ، وهو عام ٦٤ من الهجرة .

الدولة في أزمة

افتتح هذا العام وجيش يبلغ عدده نحو عشرة آلاف مقاتل يتحرك ، متجها الى « مكة » — لمحاربة أهلها ، بعد أن فرغ من قتال أهل « المدينة » . وهذا الجيش أرسله « يزيد بن معاوية » ، الذي كان يحكم الدولة في ذلك الوقت ، من الشام للقضاء على الثورة التي شبت في المدينة ، ثم الأخرى في مكة . وهذه الحقيقة وحدها ترمز الى حال السخط ، الذي عم أنحاء الدولة ضد حكم « يزيد » بصفة خاصة ، وبني أمية بصفة عامة .

وقد كانت أسباب السخط متعددة : فكثير من الناس لم يكونوا راضين عن تولية يزيد منذ البداية ، وكثير لم يرضوا عن أعماله فيما بعد . ولكن كان في مقدمة الأسباب سياسة الغشم والتجبر ، التي اتبعها بعض ولاة « يزيد » ضد الخصوم السياسيين لهذا الحكم ، والتي تمثلت بأشنع صورها في مأساة قتل « الحسين » . سنتكلم عن هذه المأساة فيما بعد ، ونحدد مسئولية ارتكابها ، ولكن يلزم مبدئيا أن نقرر أن المسئول الأول عنها هو الآثم الظالم : « عبيد الله بن زياد » — والى يزيد على العراق — ثم تقع

التبعة بعد ذلك على يزيد ، لأنه كان يجب عليه أن لا يطلق يد
واليه في التصرف ، وينهاه عن حد الوصول الى سفك الدم .
وان هذه الفاجعة التي حدثت في عاشوراء المحرم من
عام ٦١ هـ — أدمت قلوب الناس ، وهزت مشاعر المسلمين
هزا ، حتى في داخل بيت يزيد نفسه . وقد عبر هو نفسه
— في عبارات مختلفة — عن أسفه وتحسره لما حدث . وقد
أخذ الأثر السيئ الذي أحدثته الفاجعة يزيد ، ويعظم في
النفوس ، حتى تحول الى شعور بالنقمة والسخط على
الحكومة ، التي كانت السبب في وقوع الكارثة .
وفي العام التالي بعد حدوثها ، توجه وفد من أهل المدينة
لزيارة الشام ، فشاهدوا مظاهر الترف والاسراف ، وسمعوا
عن بعض سيرة يزيد ما أغضبهم ، فقد قيل انه يميل الى
اللهو والغناء ، وهم الذين يتطلعون الى السير المشالية من
أمثال سيرة أبي بكر وعمر ، فعادوا وقد ازداد سخطهم ، وهم
مصممون على القيام بثورة . فعند قدومهم أعلنوا خلع
يزيد ، وولوا عليهم رئيسا منهم ، وحصروا بنى أمية الذين
كانوا بالمدينة ثم أخرجوهم . فكانت هذه الثورة هي السبب
الذي حدا بيزيد الى ارسال جيشه الذي أشرنا اليه ، وذلك
بقيادة « مسلم بن عقبة » المرى — وكان رجلا جبارا —

لمقاتلة أهل المدينة ، فحدثت الموقعة التي تسمى موقعة الحرّة في أواخر سنة ٦٣ ، وقد قتل فيها عدد غير قليل من أهل المدينة ، واستولى الجيش عليها .

ثم بعد أن فرغ الجيش من مهمته ، سار متوجها إلى مكة لمحاربة أهلها الذين خرجوا على يزيد وحكومته ، وانضموا إلى ابن الزبير الذي ظل معتصما بالحرم في مكة ويدعو سرا إلى نفسه وكان ذلك في أوائل سنة ٦٤ هـ — كما ذكرنا — في المحرم . وفي الطريق مات « مسلم بن عقبة » ، وخلفه على قيادة الجيش « الحصين بن لمير السكوني » ، فوصل الجيش إلى مكة في أواخر المحرم سنة ٦٤ ، وضرب الحصار عليها . وكانت جموع من الخوارج من « البصرة » قد قدمت على عبد الله بن الزبير ، لما سمعت بمسير هذا الجيش إلى مكة ، وذلك لتشارك مع عبد الله بن الزبير في الدفاع عن الحرم ، وليوحدوا جهودهم معه في مقاومة الدولة الأموية وانجاح الثورة ضدها . كما انضم إليه بعض الأبطال ، مثل المختار بن أبي عبيد الثقفي : من زعماء الشيعة ، الذي سيكون له شأن فيما بعد .

وقد ولي ابن الزبير — قائدا على جيشه — أخاه المنذر ابن الزبير ، وخرج بمن معه لمقاتلة جيش الشام ، فقاتلهم

قتالا شديدا . وقتل في الموقعة المنذر وبعض أبناء المهاجرين ،
ولكن ابن الزبير — وكان من فرسان قريش وأبطالها
المعدودين — ظل يجالدهم طويلا في ذلك اليوم ، والأيام
التالية ، ولم يتمكنهم أبدا من دخول مكة . فاضطروا الى
الاكتفاء بالحصار ، وظلوا محاصرين لمكة طوال شهر صفر ،
ثم أوائل ربيع الأول . وفي ٣ من هذا الشهر ، حدث حادث
اهتمت له كتب السير ، وهو احتراق الكعبة . وقد اختلفوا
في السبب الذي أدى الى هذا الحادث ، ولكن الأرجح أنه
حدث بسبب أن رجلا من أصحاب ابن الزبير أخذ قبسا في
رأس رمح — وكانوا يوقدون حول الكعبة — فطيرت
الريح شرارة منه ، فوقعت على أستار الكعبة ، فأحرقتها
وأحرقت خشب البيت . وقيل ان ذلك كان بسبب قذف
البيت بالمنجنيق ، ولكن الحقيقة أن القذف به حصل في
الحصار الثاني — وهو الذي سيحدث بعد سنين لا في
الحصار الأول .

وفاة يزيد

واستمر الحصار حتى آخر ربيع الأول ، وقد ضاق
الأمر على أهل مكة ضيقا شديدا . وبينما هم كذلك ، اذا

بالخبر يصل — فى أول ربيع الثانى — الى ابن الزبير ، قبل
أن يصل الى أهل الشام : بأن يزيد ، الخليفة فى دمشق ،
قد توفى منذ منتصف الشهر . فقد توفى فى ١٤ ربيع الأول
سنة ٦٤ هـ . فنادى ابن الزبير ومن معه فى جند الشام ،
« علام تقاتلون ؟ قد هلك طاغيتكم ؟ ! » . فلم يصدقوا
بإدىء الأمر ، ثم جاءهم من أبلغهم الخبر اليقين ، فوقع
فيهم الفشل ، وكفوا عن القتال . وكانت وفاة يزيد بسبب
أنه كان يركض فرساً فى سباق ، فوقع من فوق فرسه
فأصيب بكسور ، قضت عليه . وكانت مدة حكمه ثلاث
سنوات وثمانية أشهر : (٦٠ — ٦٤ هـ) ، تميزت بوقوع
هذه الأحداث الثلاثة ، التى أثارت الرأى العام وبشت شعور
الكراهية ضده : وهى قتل الحسين ، ومقاتلة أهل المدينة ،
وحصار مكة . فمات وسط شعور البغض له ولحكم
بنى أمية .

ولم يكن يزيد مرضياً عنه منذ توليته — على كل
حال — لأن كثيراً من الأمة كان يقاوم فكرة انتقال الحكم
من نظام الشورى الى الوراثة ، وامتنع بعض الزعماء —
الذين كان يؤيدهم جانب كبير من الرأى العام — عن
مبايعته ، وهم : الحسين بن على ، وعبد الرحمن بن أبى بكر ،

وعبد الله بن الزبير ، وجرت هذه الأحداث . وإن كان معاوية رأى — عند عقد البيعة له بولاية العهد — أنه لا يستطيع أن يترك الأمة « كالضأن لا راعى لها » ، فيحدث التنازع والخلاف ، وتسفك الدماء — كما حدث بعد مقتل عثمان — فكانت هذه وجهة نظره . وإن كانت الأحداث أثبتت ، فيما بعد ، أن الاختلاف لم يثمنع — مع ذلك — وسالت الدماء . وكان من الممكن — حقا — تفادى ذلك ، لو استعملت الحكمة والسياسة بدلا من العنف والعسف ! .

وبدت الدولة كأنها تنهار بعد وفاة يزيد .

فأما في الحجاز ، فإن عبد الله بن الزبير أعلن الدعوة إلى نفسه بالخلافة جهرة ، بعد أن كان يدعو سرا . وقد أجابه وانضوى تحت لوائه أهل مكة وأهل المدينة ، وسائر الحجاز — فيما عدا بعض الزعماء : مثل عبد الله بن عباس ، ومحمد بن علي (المشهور بابن الحنفية) . وقوى مركزه لأنه أصبح بغير منافس ، فأخذت تفد عليه بعد قليل مبايعات الأقاليم : من العراق ومصر وخراسان ، حتى كاتبه عدد من الرؤساء في الشام أيضا .

وكان قائد جند الشام — الذين قاموا بحصار مكة — وهو « الحصين بن نمير » ، قد طلب — عندما تيقن من

موت يزيد — أن يقابل ابن الزبير ليفاوضه ، فتمت المقابلة
بمكان خارج مكة . وروى أن الحصين عرض على عبد الله
أن يبايعه هو والجند الذين تحت امرته ، على أن يخرج معهم
الى الشام ، فيأخذ له البيعة على باقى الجند والقواد فى
دمشق ، ويتم له بذلك أمر الخلافة . وكان ما قال له هو :
« أنت اليوم أحق الناس بهذا الأمر ، هلم فلنبايعك . ثم
اخرج معى الى الشام ، فان هذا الجند الذين معى هم وجوه
أهل الشام وفرسانهم ، فوالله لا يختلف عليك اثنان ، وتؤمن
الناس وتهدر هذه الدماء التى كانت بيننا وبينك ، والتى
كانت بيننا وبين أهل الحرة » . فأبى عبد الله بن الزبير أن
يجيبه الى ما طلب ، وكره أن يغادر مكة ، ورفض أن يهدر
الدماء . ويظهر أيضا أن أمله فى تحقق ذلك لم يكن قويا ،
ولم يكن مقتنعا بأن الأمر سيتم على هذا النحو . فانتهت
المقابلة بأن اختلفا . وحينئذ أمر الحصين جنوده بالعودة
وتوجه بهم نحو الشام .

هجرة بنى أمية

وفى طريق عودته مر على المدينة ، فقال له بنو أمية :
لا تبرح حتى تحملنا معك الى الشام ، فخرجوا معه . وذلك

لأن موقفهم صار حرجاً بعد موت يزيد ، واضطراب الأمر بالشام ، وبعدهما كان من علاقتهم بالقتال مع أهل المدينة ، في موقعة الحرة . كما أن ابن الزبير — وقد استقر له الأمر — عين أخا له واليا على المدينة ، وأمره أن يخرج من بقي بها من بنى أمية .

ففى هذا الوقت ، اضطر مروان بن الحكم أن يتخذ قراره — الذى كانت الحوادث ستظهر أنه كان قرارا تاريخيا ، لأنه ترتبت عليه أخطر النتائج — وهو المهاجرة مع أسرته من المدينة الى دمشق ، مع أنه قضى طول حياته هو وأسرته فى الحجاز . وكانت هذه أول مرة يفدون فيها على الشام ، للإقامة . وذلك لسر كان يعلمه الله ، ولم يكن يخطر على بالهم اذ ذاك ولا على خاطر أحد ، كحقيقة قريبة ، وهو أنهم يتولون الخلافة ويصير اليهم الملك ، ويؤسسون دولة يكون لها شأن كبير فى المشرق ثم المغرب . وكان مروان فى آخر حياته ، اذ كانت سنه اذ ذاك نحو الرابعة والستين ، أو أكثر . وكان ابنه عبد الملك فى نحو الأربعين من عمره . وقدموا على الشام (فى ربيع الثانى ٦٤ هـ) فوجدوا أنه ببيع لمعاوية بن يزيد ، ولكن الأمر فى غاية الاضطراب ، والقوم فى حيرة وتفرق ، لأن معاوية قد تخلص عن الأمر ،

ولم تكن له رغبة في المنصب ولا قدرة عليه ، وطلب اليهم أن يختاروا غيره ، وهم لا يستطيعون أن يتفقوا على شيء .

في الشام

وكان ما حدث بالشام هو أن يزيد — قبيل وفاته — كان عهد بالأمر من بعده لابنه « معاوية » ، فبايع له الناس عند وفاة أبيه . ولكن معاوية هذا كان كارها لتولى المنصب أو أية مسئولية ، لأنه كان ضعيفا أو مريضا ، أو تغلب عليه نزعة زهد في الدنيا وتفكر في أمر الآخرة ، فلم يخرج لمباشرة أى عمل من أعمال الدولة ، وطلب من القوم أن يولوا غيره . وأمر الضحاك بن قيس أن يصلى بالناس حتى يجتمع الناس على امام . وقيل إنه في آخر ولايته جمع الناس فخطبهم ، وقال : « انى قد نظرت في أمركم فضعفت عنه ، فابتغيت لكم رجلا مثل عمر بن الخطاب فلم أجده ، فابتغيت لكم ستة في الشورى مثل ستة عمر فلم أجده ، فأنتم أولى بأمركم فاختروا له من أحببتم » . وتغيب في منزله ثم مات بعد قليل ، دون أن يعهد لأحد ، وهو في العشرين من عمره . واختلف في سبب موته : فهل كان طبيعيا ، أم بالسم ، أم بإصابة بطاعون ؟ كما اختلف في مدة ولايته : من أربعين يوما ، الى

ثلاثة أشهر ؟ وعلى ذلك تقدر أن تكون مدته قد انتهت
حوالى جمادى الثانية سنة ٦٤ هـ . فوق الاختلاف حينئذ
شديدا بين أهل الشام ، وانقسموا شيعة ، أو على الأقل
فريقين رئيسيين : الأول أخذ يتصل بابن الزبير ويريد أن
يبايعه ، ويخرج الأمر نهائيا من البيت الأموى ، والفريق
الثانى يرفض ذلك ، ويصر على بقاء الأمر فى بنى أمية كما
هو ، ولكنه لا يستطيع اتخاذ قرار موحد ، لأن « خالد بن
يزيد » صغير السن لا يرضى به كثير من الناس ، ولا يصلح
بعد لتولى هذا المنصب الخطير ، وليس من السهل اختيار
غيره — كما أن بعض الرؤوس أخذت تتطلع الى اعتلاء
المنصب . فاشتد الخلاف ولم يمكن الوصول الى قرار .
وبقى الشام بدون خلافة : أى بدون حكومة أو دولة ،
واستمر الحال كذلك نحو ستة أشهر .

ووسط هذه الأزمة ، وصل « مروان » وابنه
« عبد الملك » وأسرتهم ، من المدينة الى دمشق ، ينوون
الاقامة بالشام . فاشتركوا فى المداولات ، ثم وفد عليهم
آخرون ، وبدأت الأمور تتطور . ثم بعد قليل أخذت اتجاها
جديدا .

الموقف في العراق

أما في العراق ، فإن تطور الأمور كان أقرب الى طبيعة رواية تمثيلية ، تحتوى على عنصر المفاجأة والتقلب .

كان الوالى على العراق ليزيد هو العاشم « عبيد الله بن زياد » ، الذى تحمل الاثم الاول أو الأكبر فى مقتل الحسين . وكانت سياسته على العموم سياسة جبرية وجور ، فكان الناس يكرهونه فى قلوبهم . فلما بلغه نعى يزيد وتخلى ابنه معاوية ، واضطراب الأمر بالشام ، فكر فى حرج مركزه ، فدعا الناس الى الاجتماع فى مسجد البصرة وقام يخطبهم ، فذكر لهم اختلاف الناس بالشام بعد وفاة يزيد ، وتحدث عن نفسه فقال : ان البصرة هى مهاجر أييه وأهله وفيها مولده وداره ، ونوه بعمله فقال : ان عدد المقاتلة أى : (جيش البصرة) قد زاد فى عهده من سبعين ألفا الى ثمانين ألفا ، وأن عدد عمال الديوان قد زاد كذلك ، من تسعين ألفا الى مائة وأربعين ألفا . ثم طلب اليهم أن يختاروا أميرا يولونه عليهم ، يدبر أمورهم حتى يجتمع أهل الشام على امام ، وقال انه يرضى بمن يختارون . فقال أهل البصرة : قد سمعنا مقالتك وما نعلم أحدا أقوى عليها منك ، فهلم فلنبايعك » . فأظهر

التمنع ثلاثا ، ثم بسط يده فبايعوه . ثم انصرفوا فجعلوا
يمسحون أيديهم بالحيطان وأبواب الدار ، وهم يقولون :
« أيظن ابن مرجانة أننا نتقاد له في الجماعة والفرقة ؟
كذب والله ! » . وما لبثوا أن اتفصوا عنه .

وكان قد أرسل أيضا رسولين الى أهل الكوفة يدعوهما
الى مبايعته . فلما قدما الكوفة وقاما يخطبان الناس ، قاطعهما
أحد الرؤساء ، فقال : « الحمد لله الذي أراخنا من ابن
سمية . أنحن نبايعه ؟ لا ، ولا كرامة ! » . وقذفهما بالحصى ،
فتبعه الناس وأخذوا يحصبونهما . ورموا كذلك نائب ابن
زياد في الكوفة وعزلوه . وهكذا رفض أهل الكوفة أن
يبايعوا لابن زياد ، وردوا الرسولين خائبين . فلما قدما
البصرة ، قال أهل البصرة : « أيخلعه أهل الكوفة ونوليه
نحن ؟ » فزادهم ذلك اصرارا على خلعه . وأخذوا جميعا
يتفرقون عنه فذهب سلطانه ، وصار لا يجاب له أمر . فكان
يأمر بالأمر فلا يقضى ، ويرى الرأي فيرد عليه ، ويأمر بحبس
المخطيء فيحال بين أعوانه وبينه .

وفي هذا الوقت ظهر أحد فرسان البصرة وهو : سلمة
ابن ذؤيب التميمي ، فجاء الى سوق المدينة ممطيا جواده
لابسا سلاحه ، وهو يرفع لواء ويقول : « أيها الناس ، هلموا

الى . انى أدعوكم الى مالم يدعكم اليه أحد . أدعوكم الى العائد بالحرم — يعنى عبد الله بن الزبير « فأقبل عليه الناس ، وأخذوا يبايعونه . وصار جمعه يكثر . فلما بلغ الخبر ابن زياد قام بآخر محاولة له ، فجمع الناس وقام فيهم خطيبا . فقص ما كان من أمره معهم وكيف أنه دعاهم الى أن يختاروا من يرضونه ، وأنه كان مستعدا أن يوافق على اختيارهم ، ثم قال — وهو يوجه الخطاب اليهم — « ولكنكم أبيتم غيرى . وانه بلغنى أنكم مسحتم أكفكم بالحيطان وباب الدار ، وقتلتم ما قتلتم . وانى أمر بالأمر فلا ينفذ ، ويرد على رأى ، وتحول القبائل بين أعوانى وطلبتى . ثم هذا سلة بن ذؤيب يدعو الى الخلاف عليكم ، ارادة أن يفرق جماعتكم ويضرب بعضكم جباه بعض بالسيف ا » . فقال الأحنف بن قيس زعيم تميم : نحن نأتيك به . ولكنهم حين أتوه ، وجدوا أن الناس قد اجتمعوا عليه وكثر أتباعه ، فتخلوا أيضا عن ابن زياد .

هرب ابن زياد

وجد ابن زياد حينئذ أنه أصبح وحيدا ، وشعر بالخطر ، فحاول أن يحمل الحرس الخاص وأفراد أسرته على أن يقاتلوا معه ، فأبوا . وحذره أحد اخوته من عاقبة ذلك

بل هده اذا أقدم على ذلك أن يزهق نفسه ، بأن يستند
بثقله على حد السيف ، حتى ينفذ من ظهره . ثم بدأ الناس
يهاجمون ابن زياد ، فرماه بعضهم بسهم فأيقن بالهلكة ، ولم
يجد بدا من الهرب ، فاختفى . وكان اختفاؤه بأن لجأ الى
أحد أشرف الأزد — وهو « الحارث بن قيس » وطلب منه
أن يحميه ، لأن الأزد كانوا أصدقاء أبيه . فخرج به الحارث
في جنح الظلام ، وسار به في خوف بين دور الأحياء حتى
أتى به منزله ، فأخفاه عنده . لكن الهارب كأنه لم يشعر
بالاطمئنان ، فأشار على الحارث ان يذهب به الى منزل
« مسعود بن عمرو » — سيد الأزد — وكانت له الرئاسة
عليهم ، فتوجه به اليه . فلما رآهما مسعود كره ذلك في
أول الأمر ، ثم غلبت عليه طبيعة النجدة وحب الذكر ، فأنزل
ابن زياد في داره ، وأجاره . ولما اختفى ابن زياد ، رأى
أهل البصرة أنه لا بد أن يولوا عليهم أميرا يدبر شئونهم ،
فاختلفوا أولا ، ثم اتفقوا على اختيار « عبد الله بن الحارث »
— وهو ينتمى من جهة أبيه الى عبد المطلب ، ومن جهة
أمه الى أبي سفيان — وكان أهل البصرة يلقبونه « به » —
فبايعوه ، وكانت مبايعتهم له في أول جمادى الآخرة
سنة ٦٤ هـ . فبقى أميرا عليهم نحو ثلاثة أشهر ، الى أن
أرسل ابن الزبير اليهم أميرا آخر .

وفي أثناء ذلك دبر ابن زياد — وهو في مخبئه —
 مؤامرة ، حاول أن يتمكن بها من الرجوع الى الامارة ،
 وذلك بأن سعى الى عقد تحالف بين قبائل الأزد وربيعة
 واليمن ضد تميم ، وأتفق في ذلك أموالا ، فتم له ذلك .
 ثم بعث « مسعودا » على أنه خليفة له ، فسار على رأس
 القوات المتحالفة ، ليستولى على المدينة . فلما علمت تميم
 بذلك ، ورئيسها الأحنف بن قيس ، سارت — بعد
 تلك — بقواتها ، لمنع تنفيذ المؤامرة . فالتقوا عند باب
 مسجد البصرة ، وحدث قتال بينهم .. وبينما كان « مسعود
 ابن عمرو » على المنبر يخطب ويحرض الناس ، أصابه
 سهم فقتل ، أو استنزله رجال من تميم وقتلوه ، فانهزم قومه .
 ولما بلغ خبر مقتله ابن زياد — وكان يتتبع أخبار القوم ،
 وهو يتهاى ليذهب الى دار الامارة — أسرع الى الرحيل ،
 فوضع رجله في ركابه — وأرسلت الأزد معه من يؤمنه في
 الطريق — وتوجه على الفور هاربا الى الشام . وكان ذلك
 في أول شعبان سنة ٦٤ هـ .

دولة ابن الزبير

وفد ابن زياد على الشام ، فوجد هناك مروان بن الحكم
 وعبد الملك وجميع بنى أمية ، ووجد القوم مختلفين مترددين ،

لم يستطيعوا أن يتفقوا على شيء ، حتى ان مروان بدأت
تساوره فكرة أن يكتب ابن الزبير ، أو يذهب اليه لينايجه
ويأخذ منه أمانا لبنى أمية .

هذا على حين أن الأمر أخذ يستحكم لابن الزبير ،
ويمتد نفوذ دولته . قالى جانب الحجاز الذى التف حوله منذ
البداية ، أتنه البيع من سائر الأقاليم . فلما تمت له بيعة أهل
البصرة ، وأرسلوا اليه يسألونه أن يولى عليهم أميرا من
قبله — أرسل اليهم ابن الزبير عمر بن عبيد الله بن معمر
واليا عليهم ، وذلك فى شوال سنة ٦٤ . كذلك لما أرسل اليه
أهل الكوفة — ما عدا الشيعة — يطلبون أن يولى عليهم
واليا — أرسل اليهم ابن الزبير محمد بن يزيد الأنصارى
واليا عليهم ، ومعه ابراهيم بن محمد بن طلحة على الخراج ،
فقدما الى الكوفة فى رمضان سنة ٦٤ . وعين ابن الزبير
محمد بن الأشعث الكندى على الموصل . وحوالى هذا
الوقت أرسل اليه عبد الله بن خازم السلمى — بعد أن
استولى على مرو وخراسان — ببيعته أيضا ، فأقره ابن
الزبير وجعله واليا على خراسان . وأرسل اليه كذلك أهل
مصر ببيعتهم ، فولى عليهم عبد الرحمن بن عتبة الفهرى ،
فقدم مصر وانضم اليه أهلها ، وذلك فى شعبان سنة ٦٤ هـ .

وهكذا في تلك السنة سنة ٦٤ ، كاد يتم الأمر لعبد الله
ابن الزبير . وولى الولاة من قبله — كما رأينا — على
أكثر الأقاليم . بل ان أكثر أمراء الشام نفسه كتبوا اليه ،
وأرسل يقرهم على اماراتهم . فكتب اليه الضحاك بن قيس
الفهري ، أمير دمشق ، والنعمان بن بشير الأنصاري أمير
حمص ، وزفر بن الحارث الكلابي أمير قنسرين . ولم يبق
الا أهل الأردن وفلسطين — وأميرهم حسان بن مالك
الكلبي — وهو من زعماء العرب اليمنية . واذا ذاك قدم
عبيد الله بن زياد من العراق ، فالتقى مع مروان بن الحكم
وعبد الملك بن مروان وعمرو بن سعيد بن العاص ، وسائر
بنى أمية . واجتمعوا مع حسان بن مالك والحصين بن نمير ،
وغيرهما من قواد الجيش . وحينئذ أخذت الأمور تتغير ،
وتتجه اتجاها جديدا ، ستكون له النتيجة الحاسمة . وذلك
منذ رمضان من ذلك العام .

شيعة وخوارج

ولكى تكمل الصورة عن أهم أحداث ذلك العام ينبغي
أن نشير الى ناحيتين : أى الخوارج والشيعة .
فأما الأولون : فكانوا قدموا على ابن الزبير بمكة في

أوائل العام — كما ذكرنا — ليؤيدوه في الدفاع عن مكة والحرم ، ثم فارقوه بعد موت يزيد (ربيع الأول ٦٤) ، لأنهم اختلفوا معه في العقيدة والهدف . فتوجه فريق منهم — وهو الأكثر — الى البصرة وعلى رأسهم نافع بن الأزرق . وتوجه فريق آخر الى اليمامة وولوا عليهم رجلا يدعى أبا طالوت . وفي أثناء اشتغال أهل البصرة بالوثوب على ابن زياد والمعركة بين تميم والأزد ، خرج الخوارج ثائرين ورئيسهم نافع بن الأزرق — وهؤلاء هم « الأزارقة » . فطاردهم أهل البصرة . ثم أقاموا معسكرهم أو دولتهم بالأهواز ، وذلك في شوال سنة ٦٤ . وفارق نجدة بن عطية نافع بن الأزرق لأنه لم يوافق على مبادئه ، فلهق باليمامة . وهناك تبعه الناس وخلصوا أبا طالوت ، فكون نجدة دولة أخرى من الخوارج في قلب جزيرة العرب ، وهؤلاء هم الذين يسمون الخوارج النجدات .

أما الشيعة ، فكانوا يكوّنون في الكوفة حزبا منظما قويا ، وفي بعض المدن الأخرى . بدأوا تكوينه منذ مقتل الحسين ، ثم أظهروا أمرهم بعد موت يزيد وإخراج ابن زياد ، وبدأوا ينشرون دعوتهم ويستعدون للحرب . وكان زعيمهم « سليمان بن صرد الخزاعي » ، وهو من أصحاب عليّ

وصحابى قديم . ولم يمنعهم بقية أهل الكوفة ولا ولاية ابن الزبير ، لأنهم كانوا يشاركونهم الشعور ضد قتلة الحسين . ثم قدم الى الكوفة أيضا « المختار بن أبى عبيد الثقفى » ، بعد أن كان مشتركا فى القتال مع ابن الزبير ضد جيش يزيد ، وفارقه مختلفا معه . وهو زعيم شيعى آخر ، قدم مظهرا الدعوة الى « محمد بن الحنفية » ، وساعيا الى جمع الناس تحت لوائه . وسيبدأ حركة قوية ، ويكون له شأن . وكان قدومه فى منتصف رمضان سنة ٦٤ .

* * *

ونكتفى الآن بهذه الإشارة الى الشيعة والخوارج ، لأننا سنفصل أمرهم فيما بعد . وهكذا فى تلك السنة أو ذلك العام التاريخى — أخذت القوات تتحرك ، والدعوات تظهر ، والاتجاهات تتحدد ، وكل حزب يجمع قوته ويعد وسائله ويختار مكانه ، وذلك استعدادا لما سيحدث من تطورات خطيرة . وستلتحم هذه القوى بعضها مع بعض ، وتستمر معاركها زمنا — كما سيتبين ذلك من سير الأحداث فى الأعوام التالية . لكن أهم مسرح للحوادث ، وهو الذى يجدر أن توجه إليه الأنظار فى هذا الظرف ، لأنه ستتم فيه أهم التطورات وتتخذ القرارات الحاسمة ، التى ستغير مجرى

التاريخ ، كان هو مسرح الشام . لأن الشام كان مقر الدولة ،
وطالما كان مركزها الحساس وقلبها النابض وعقلها الموجه ،
فننظر الآن كيف تطورت فيه الأمور ، وماذا كان مصيرها
وتتائجها ؟ .

الفصل الثاني

دولة آل مروان

كان وصول عبيد الله بن زياد الى الشام من العوامل الحاسمة في الموقف .

وصل عبيد الله هذا الى الشام ، فوجد القوم في أمر مريج . وهم منقسمون قسمين : فريق يدعو الى ابن الزبير سرا أو جهره ، وفريق يدعو الى بنى أمية . وزعيم الفريق الأول الضحاك بن قيس الفهري ، الذي كان وقتذاك أمير دمشق ، وكانت له من قبل مكانة كبيرة عند معاوية وابنه يزيد . ويؤيده النعمان بن بشير الأنصاري أمير حمص ، وزفر بن الحارث الكلابي (رئيس قيس) وهو أمير قنسرين . وزعيم الفريق الثاني حسان بن مالك بن بحدل الكلبى : (رئيس القبائل اليمنية ، التي من أكبرها قبيلة كلب) وكان أمير فلسطين والأردن ، وذلك منذ عهد معاوية ويزيد . وهو صاحب النفوذ الأكبر في الشام ، لأن العرب اليمنية كانت

لها الأغلبية في الشام ، ويكونون أكثرية الجنود . كما أن حسانا وعشيرته كانوا أحوال البيت المالك ، لأنهم أحوال يزيد بن معاوية وابنه . فيزيد أمه هي ميسون بنت بحدل الكلبيّة ، من عشيرة كلب هذه . ويؤيد حسانا في موقفه بنو أمية جميعا ، وكذلك أكثر قواد الجيش والجنود .

ثم إن هذا الفريق الثاني كان — بدوره — ينقسم الى شطرين : فجانب أو حزب يدعوا الى خالد بن يزيد بن معاوية بالذات ، بحق انتظام الوراثة . وهذا هو حزب حسان ومن تبعه . وآخرون ، في نفس الوقت الذي يؤيدون فيه بنى أمية ، لا يرضون بخالد ، لأنه لا يزال غلاما حديث السن ، ولكنهم لا يعرفون من يرشحون بدلا منه . وكان في مقدمة هذه الطائفة الحصين بن نمير السكوني ، الذي كان قائد الجيش الذي توجه قبل لحصار مكة وابن الزبير ، في العهد السابق . كما كان من هذا الرأي أهل الأردن جميعا ، وهم قوة كبيرة بين العرب .

* * *

فهكذا كان أهل الشام مختلفين ، منقسمين الى هذه الطوائف أو الأحزاب . وظل أمرهم على هذه الحال ، ولم يكن هناك أمل في أن يصلوا الى اتفاق ، أو يتنازل فريق

للآخر عن موقفه . وعلى ذلك استمر الشام بدون امام
ولا دولة ، عدة أشهر . وكان لابد أن يؤدي التنازع والتوتر
الى حدوث مصادمات ، ف وقعت بعض المناوشات ، التى باتت
تنذر بنشوب حرب أهلية :

كتب حسان بن مالك — وهو بالأردن — كتابا الى
الضحاك بن قيس ، وهو فى دمشق ، يبين له فيه حق بنى أمية
فى هذا الأمر ، ويدافع عنه ويشيد بأعمالهم وما أثرهم ،
ويذكره بما أسدوا اليه من معروف وما رفعوا من قدره ،
ويدعوه الى الطاعة والجماعة والبيعة لبنى أمية ، كما يذكر
ابن الزبير فيثلبه ويذمه ، ويقول انه ناكث ، لأنه خلع
خليفتين : وهما يزيد وابنه ، وهكذا . وطلب من الضحاك
أن يقرأ كتابه هذا على الناس ، فى المسجد الجامع . لكنه
فى نفس الوقت كتب نسخة ثانية أعطاها للرسول ، وقال له :
ان لم يقرأ الضحاك كتابى على الناس ، فقم أنت واقرأ عليهم
الكتاب — كما كتب نسخة ثالثة أرسلها الى بنى أمية ،
وطلب منهم أن يحضروا هذا الاجتماع . فلما كان يوم
الجمعة ، وصعد الضحاك المنبر ، قام اليه الرسول وطلب
منه أن يقرأ كتاب حسان على الناس . فرفض الضحاك ،
وأمره بالجلوس — فعل ذلك ثلاث مرات .. فحينئذ ، قام

الرسول وأخرج الكتاب الذي معه ، وقرأه على الناس .
فقام بنو أمية وصدقوا حسانا ، وحملوا على ابن الزبير .
وأيدهم الرؤساء من غسان وكنب . وقام آخرون من قيس
من أتباع الضحاك ، فسبوا حسانا ، وأثنوا على ابن الزبير .
وهكذا اضطرب الناس ، وجال بعضهم في بعض بالمسجد
وتضاربوا . وأمر الضحاك حرسه بأن يجلسوا الرؤساء ،
الذين صدقوا مقالة حسان ، وشتموا ابن الزبير ، فأخذوهم ،
ونزل الضحاك فصلى بالناس الجمعة . فجاءت جموع من
غسان وكنب ، فهاجموا السجن ، وأخرجوا المسجونين .
وهكذا زاد هذا الاشتباك العنيف من حدة التوتر .
وهذا اليوم كان أهل الشام يسمونه « يوم جيرون الأول »
— نسبة الى الموضع بجوار المسجد ، الذي حدثت فيه
المعركة . وفي يوم الجمعة آخر ، خرج الضحاك الى مسجد
دمشق ، فجلس فيه . فذكر يزيد بن معاوية ، ووقع فيه
وذمه ، فقام اليه شاب من قبيلة كلب بعصا كانت معه فضربه
بها ، والناس جالسون في هيئة حلق ، وهم متقلدون سيوفهم .
فقام بعضهم الى بعض في المسجد ، فاقتتلوا : قيس تدعو الى
ابن الزبير ونصرة الضحاك ، وكنب تدعو الى بنى أمية ثم الى
خالد بن يزيد ويتعصبون ليزيد . ودخل الضحاك دار الامارة

وأصبح الناس فلم يخرج الى صلاة الفجر . وهكذا بلغ هياج النفوس أقصاه ، وكانت هذه بوادر تنذر بوقوع حرب داخلية .

مروان والخلافة

في هذه الظروف وصل عبيد الله بن زياد الى الشام من العراق ، هاربا — كما قدمنا — قد أخرج من ملكه ودياره ، فكان وجوده بدمشق أحد العوامل الحاسمة في الموقف . فقد قابل « مروان بن الحكم » وتناقش معه عن الحال فوجد مروان يخامرہ اليأس ، وهو لا يرى أملا في رأب الصدع وزوال الخلاف . ولم يكن مروان — حتى هذا الوقت — يفكر في أنه يمكن أن ينهض ليرشح نفسه ، لنيل منصب الخلافة ، أو اذا كان عرض له هذا الخاطر ، فانه ما كان يراه مشروعاً قابلاً للتحقيق . ذلك لأن مروان عاش طول حياته بعيدا عن الشام — في الحجاز ، ولم ينتقل مع أسرته الى دمشق الا منذ بضعة أشهر ، وقد أشرف على الخامسة والستين . فكان يعد كانه غريب عن أهل البلاد ، ليست له بهم صلات قوية ، وليست لهم به ألفة . ولذلك لم يذكر أحد اسمه كأحد المرشحين للبيعة ، ولم يقم أحد بالدعوة اليه . والدلائل

تدل على أنه لم يكن يرضى بخالد لأنه ليس إلا كأحد
أحفاده ، ولم يكن راضيا عن آل أبي سفيان في قرارة نفسه ،
وبخاصة يزيد . لهذا لم يكن عجيبا أنه أخذت تراوده فكرة
أن يتوجه الى ابن الزبير — وكانت بين أسرتيهما صلة قديمة
بالمدينة — ليبايعه ويأخذ منه أمانا لأسرته وبني أمية .

فوصل عبيد الله بن زياد — وهو في هذه الحال ،
فلما وقف ابن زياد منه في هذه المقابلة على رأيه وما يجول
بخطره ، اذا به يعرب عن دهشته ويعلم استنكاره لهذه
الفكرة ، التي جالت بخاطر مروان ، وقال له فيما قال : « قد
استحييت لك مما تريد أن تصنعه ، أنت كبير قریش وسيدها
تمضى الى أبى خبيب (يعنى ابن الزبير) فتبايعه ؟ ! . أنشدك
الله أن تفعل ، فأنت أولى بها منه » . وفى رواية ثانية أنه
قال له : « أنت سيد بنى عبد مناف » . فقال له مروان :
« فما رأى ؟ » . قال أن تنهض وتدعو الى نفسك ، وأنا
أكفيك قریشا ومواليها فلا يخالفك منهم أحد . وكان بنو أمية
وعمر بن سعيد بن العاص حاضرين ، فقال عمرو : « صدق
عبيد الله ، أنت شيخ قریش وسيدها ، وأنت أحق الناس
بالقيام بهذا الأمر » . فوقع هذا الكلام من نفس مروان
الموقع الطيب ، وصادف — على الفور — منه موضع القبول ،

كأنه كان ينتظر أحدا أن يفوه به في أى وقت ، وتحديثه به نفسه في العقل الباطن . وكأنما طرح — فجأة — كل ما كان يفكر فيه جملة واتجه الى شيء جديد ، فقال : « ما فات شيء بعد » . ثم قام ومعه بنو أمية ومن تبعه فسار ، وهو يقول « ما فات شيء بعد » . وحينئذ وضح الطريق ، وظهرت فكرة جديدة في الموقف . وكانت — كما أن الحوادث ستثبت بعد قليل — هي الفكرة الحاسمة .

نهض مروان اذن للعمل . وتكفل عنه في الدعوة اليه ونشر الفكرة « عبيد الله بن زياد » وعمر بن سعيد ، وكثير من بنى أمية وغيرهم . وقد كانت هذه الفكرة حلا عمليا وسطا يمكن أن يوفق به بين الآراء بعد التقارب ، وكان فيها الجواب — بصفة خاصة — لما كان يتمناه أهل الأردن ويرضونه . فان « حسبنا » حينما توجه الى أهل الأردن ليدعوهم الى بيعة ابن أخته : خالد بن يزيد ، قالوا له : « انا نوافقك على آرائك : انا نشهد مثلك أن ابن الزبير ناكث ، وأن الذين قتلوا يوم الحرة ليسوا ناجين ، وأن يزيد كان على حق ، وأن الذين قتلوا منا هم الناجون . نحن اذن على رأى واحد ، ونحن لا نريد أن يخرج هذا الأمر عن بنى أمية . وانا نبايعك على أن تقاتل معك من خالفك وأطاع .

ابن الزبير . ولكن بشرط أن تجنبنا هذين الغلامين ، فانا نكره ذلك (يعنون ابني يزيد بن معاوية : عبد الله وخالدا) — فانا نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبي ! » — يعنون أن الناس في الحجاز والعراق أتوا بشيخ كبير ، وهو عبد الله ابن الزبير ، وهم يراد منهم أن يأتوا بصبي ، وهو خالد أو عبد الله : ابنا يزيد . اذن ففكرة ترشيح مروان وتنصيبه للخلافة — وهو شيخ مكافئ لابن الزبير ، وفي نفس الوقت من بنى أمية — لا بد أن تلاقى منهم أحسن القبول ، ويجدوا فيها الجواب لما يتمنونه . وهذا هو الذي حدث بالفعل . فانا سنرى أنهم كانوا أكبر المؤيدين لمروان ، وأول من بايعه . ومن الأردن نبتت دولة آل مروان .

مؤتمر تاريخي

ونشط ابن زياد في الدعوة لمروان ، وناصب هو وبنو أمية جميعا ومؤيديهم — سواء منهم من تبعوا رأيه ومن بقوا على ولائهم لخالد — ناصبوا « الضحاك بن قيس » العدا ، وضيقوا عليه الخناق ، حتى فشا الانقسام بين الأجناد في دمشق . ولما حدثت المصادمات — كما ذكرنا من قبل — واعتدى على الضحاك نفسه وتحديت سلطته ،

أحس بالخرج وشعر بخطر مركزه فبدأ عليه التردد أو مال إلى المساومة ، فاتصل بينى أمية ودعاهم إلى الاجتماع عنده . فحضروا إليه من الغد ، فتكلم إليهم معتذرا ، وذكر حسن صنيعهم له ، وقال : انه ليس يريد شيئا يكرهونه . وبعد أن تفاوضوا عرض اقتراح فوافقوا عليه جميعا — وكان اقتراحا بارعا — وذلك أنهم قرروا أن يعقد اجتماع عام ، أو مؤتمر ، يحضره جميع الأطراف ويتبادلون الآراء ، ليتفقوا على اختيار رجل من بنى أمية يولونه الخلافة . واختاروا أن يكون مكان الاجتماع « الجابية » — وهى موقع بين الأردن ودمشق . فيكتب بنو أمية والضحاك إلى حسان ومن معه من أهل الأردن أن يوافقوهم هناك ، ويسير الضحاك ومن معه من أهل دمشق فيلتقوا بهم فى ذاك المكان . فكتب كل طرف إلى الآخر فعلا ، وخرج الناس بأعلامهم ، وبدأ الاستعداد لعقد هذا الاجتماع أو المؤتمر .

فأما حسان وأهل الأردن وبنو أمية فساروا إلى الاجتماع بدون تردد . وأما الضحاك بن قيس وأتباعه فتوقفوا فى الطريق ، ثم عدلوا عن حضور المؤتمر . والسبب — الذى قيل لتعليل ذلك — هو أن بعض أصحاب الضحاك ، بمن كانوا أجابوه إلى بيعة ابن الزبير لاموه بشدة على تغيير

رأيه ، وأنكروا تحوله لبنى أمية ، وأثاروا فيه روح العصية
ثانية . فأنشئ الى رأيهم ، وعاد الى موقفه الأول . أو ربما
كانت هذه المسألة كلها حيلة أو مناورة ، ليتخلص الضحاك
من الحصار الذى كان حوله فى دمشق ، ويتمكن من الخروج
للدفاع أو لتعبئة قواته . وقد سار الضحاك الى « مرج
رايط » ، خارج دمشق ، وأقام معسكره فيه . وعلى كل ،
فإن المؤتمر تم انعقاده — فعلا — فى « الجابية » حضره أهل
الأردن وفلسطين وأنصار بنى أمية من دمشق وغيرها ،
وبنو أمية ، وفى مقدمتهم مروان بن الحكم ، وابنائه :
عبد الملك وعبد العزيز ، ثم حسان بن مالك وأكثر قواد
الجيش . واستمر انعقاد المؤتمر أربعين يوما ، وكان حسان
يصلى بالناس فيه ، أى أنه كان امام المؤتمر أو بمثابة
رئيس له .

* * *

كان « مؤتمر الجابية » مؤتمرا تاريخيا . ويمكن أن
يوصف — بلغة السياسة الحديثة — بأنه كان مؤتمرا
« دستوريا » . فقد حضره ممثلو الرأى العام فى الأمة ،
ليتشاوروا بحرية ليصلوا الى قرار يتهون به الأزمة القائمة
ويحسمون الخلاف ، ويحفظون كيان الأمة ويصونون

مستقبلها وتمت الدعوة اليه بالرضا من عناصر الأمة ، لا من قبل حكومة ولا باكره من سلطة رسمية ، فهو مؤتمر ديمقراطي شعبي .

وقد لبث الحاضرون يتناقشون مدة طويلة . ويدل ما ورد من بعض المناقشات فيه على أن وجهات النظر كانت تتبادل فيه بحرية . فمن ذلك ما جرى بين مالك بن هبيرة السكوني والحصين بن نمير السكوني — وهما قائدان بارزان ، ينتميان الى عشيرة واحدة . فقد كان الأول يهوى هوى بنى يزيد ، ويحب أن تكون الخلافة فيهم ، فقال للآخر : « هلم فلنباع لهذا الغلام فقد عرفت منزلتنا كانت من أبيه ، فانه يحملنا على رقاب العرب غدا — يعنى : خالد ابن يزيد . فقال الحصين : « لا لعمر الله . لا تأتينا العرب بشيخ ولأتيهم بصبي » . فقال له مالك : « والله لئن استخلفت مروان ، وآل مروان ، ليحسدنك على سوطك وشراك نعلك ، وظل شجرة تستظل بها . ان مروان أبو عشيرة وأخو عشيرة فان بايعتموه . كنتم عبيدا لهم » . فقال الحصين : « مروان شيخ قريش ، والطالب بدم الخليفة المظلوم ، وهو يديرنا ويسوسنا ، ولا يحتاج الى أن ندبره ونسوسه ، وغيره يحتاج الى أن يدبر ويساس » . ثم روى له رؤيا رآها ، وهى أنه

رأى في المنام قنديلا معلقا في السماء وأن من يتناوله يلي
الخلافة ، فلم ينبله أحد الا مروان . وقال : « والله
لنستخلفنه » .

ومناقشة أخرى ، جرت بين حسان بن مالك ورجل آخر
هو ابن عضاه الأشعري . فقد قال لحسان : « أراك تريد هذا
الأمر لخالد بن يزيد وهو حدث السن ! . فقال له حسان :
« نعم انه معدن الملك ومقر السياسة والرئاسة » . فأتى
ابن عضاه خالدا في جماعة من نظرائه فوجده نائما متصبحا ،
فقال : « يا قوم أنجعل نحورنا أغراضا للأسنة والسهم
بهذا الغلام وهو نائم في هذه الساعة ، وانما صاحب هذا
الأمر المجد المشمر الحازم المتيقظ ؟ ! » . ثم أتى مروان بن
الحكم ، فألفاه في فسطاط له ، واذا درعه الى جانبه والرمح
مركوز بفنائه ، وفرسه مربوط الى جانب فسطاطه ، والمصحف
بين يديه — وهو يقرأ القرآن . فقال ابن عضاه « يا قوم ،
هذا صاحبنا الذي يصلح له الأمر ، وهو ابن عم عثمان أمير
المؤمنين ، وشيخ قریش وسيدها » . فرجعوا الى حسان
فأخبروه خبر ذلك ، وأعلموه أنهم مجمعون على مروان لأنه
كبير قریش وشيخها . وحينئذ قال حسان : « رأيي لرأيكم
تبع ، انما كرهت أن تعدل الخلافة الى ابن الزبير ، وتخرج
من آل هذا البيت » .

ويظهر أنهم في هذا الاجتماع عرضوا أسماء المرشحين
وبحثوا في أمر كل منهم . وممن ذكر اسمه : عبد الله بن عمر .
ويدل على ذلك الخطبة التي ألقاها في المؤتمر روح بن زنباع
الجدامي — وكان أمير فلسطين خلفا لحسان — فقد قام
روح ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس ، انكم
تذكرون عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وصحبته من رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، وقدمه في الاسلام — وهو كما
تذكرون ، ولكن ابن عمر رجل ضعيف ، وليس بصاحب أمة
محمد الضعيف . وأما ما يذكر الناس من عبد الله بن الزبير
ويدعون إليه من أمره ، فهو — والله — كما يذكرون بأنه
ابن الزبير حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن
أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين ، وهو — بعد —
كما تذكرون ، في قدمه وفضله . ولكن ابن الزبير منافق قد
خلع خليفتين : يزيد وابنه معاوية ، وسفك الدماء وشق عصا
المسلمين . وليس صاحب أمر أمة محمد — صلى الله عليه —
المنافق . وأما مروان بن الحكم فوالله ما كان في الاسلام
صدع قط الا كان مروان ممن يشعب هذا الصدع ، وهو
الذي قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار ،
والذي قاتل على بن أبي طالب يوم الجمل . وانا نرى للناس

أن يبايعوا الكبير ، ويستشبهوا الصغير — يعنى بالكبير مروان بن الحكم ، وبالصغير خالد بن يزيد بن معاوية .

وهذا هو رأى الذى أخذ به أخيرا بعد المداولة والمشاورة ، فاتجه رأى الناس الى البيعة لمروان ، ثم من بعده لخالد بن يزيد ، ثم لعمر بن سعيد بن العاص . وقال أهل الأردن لمروان — وكانوا هم أكبر المؤيدين له منذ البداية — : أنت شيخ كبير وابن يزيد غلام وابن الزبير كهل ، وانما يقرع الحديد بعضه ببعض ، فارم بنحرك فى نحره . ابسط يدك نبايعك . فبسط يده فكانوا أول من بايعوه . وعدل حسان نهائيا عن رأيه نزولا على ارادة الأكثرية ، واقتنع باختيارهم . فقام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ، ثم ذكر مروان فقال : هو كبير قریش وسنها ، وابن عم الخليفة المظلوم ، والطالب بدمه قبل الناس أجمعين . فبايعوه — رحمكم الله — فهو أولى بميراث عثمان ، وأحق بالأمر من الناكث ابن الزبير ، الذى خلع الخلافة وجاهر الله بالمعصية . فسارعوا الى بيعته .

وهكذا أجمع المؤتمر على رأى واحد وافقت الكلمة . وفى يوم الأربعاء ، لثلاث خلون من ذى القعدة عام ٦٤ هـ — قام الناس جميعا فبايعوا لمروان بن الحكم

على أنه خليفة المسلمين ، وتفاهما على أن يكون الأمر من بعده لخالد ثم عمرو بن سعيد . والتفت بنو أمية حول مروان ، وقالوا : الحمد لله الذى لم يخرجها منا . وخرج الناس يدعون لمروان وأسرع عبيد الله بن زياد فأخذ البيعة على أهل دمشق لمروان . وأطبق الناس على البيعة له . وهكذا تمت البيعة لمروان بن الحكم بالخلافة . ومن ثم قامت دولة آل مروان .

وقد تبين من هذه الأقوال — التى ذكرت — أن الأسباب التى دعت الناس الى انتخاب مروان هى : أنه شيخ قريش ، رجل كبير السن محنك ذو رأى وشجاعة ، له تاريخ فى الاسلام ، وهو من بنى أمية ، وابن عم الخليفة عثمان ووارثه ، وكان فى طليعة من دافع عنه وكان أول من طالب بدمه ، وهو كفء يصلح للقيادة فى الحرب والسياسة ، وهو معادل لابن الزبير يستطيعون أن يصطفوا تحت لوائه ، ويسيروا معه — فى ثقة — لمواجهة الخصوم . لكن كان أيضا من بين الأسباب أن أهل الشام رفضوا أن يبايعوا لابن الزبير لأنه رجل بعيد عنهم ، كغريب مقامه فى الحجاز . فاذا بايعوه ، كان معنى ذلك أنهم رضوا بانتقال الدولة والملك من الشام

الى الحجاز : الى قوم غيرهم . وقد كانت الدولة مقرها بينهم ، منذ أمد طويل . وليس هذا استنتاجا ، ولكن سجلته الأخبار منذ القدم . فقد روى التاريخ أن ابن الزبير لما استخلف الضحاك الفهرى على الشام ، كره أهله ذلك ، « واجتمع رجال بنى أمية وناس من أشراف أهل الشام ووجوههم ، منهم روح بن زنباع وغيره ، فقال بعضهم لبعض : ان الملك كان فينا أهل الشام ، فانتقل عنا الى الحجاز ، لا نرضى بذلك . هل لكم أن تأخذوا رجلا منا ، فينظر في هذا الأمر ؟ » . فأخذوا يبحثون ، حتى انتهى الرأي الى اختيار مروان بن الحكم . وفي هذا معنى قومى له أهميته التى لا تخفى ، اذ كان انتقال السلطان من دمشق معناه خسارة جسيمة للشام .

موقعة حاسمة

قامت دولة آل مروان — اذن — فى أواخر عام ٦٤ هـ ، واستقبلت أول عام لها فى فاتحة عام ٦٥ هـ . وقد بدأ تاريخها — من الوجهة القانونية — منذ عقدت البيعة لمروان فى المؤتمر وما بعده . ولكن — من الوجهة الواقعية — ما كان يضمن لها البقاء والاستقرار الا اذا خاضت حربا مع المنشقين

الذين لا زالوا بالشام ، وكتب لها النصر . فان الضحاك — ومن تبعه — الذين دعوا لابن الزبير ، كانوا لا يزالون يجمعون قواتهم في « مرج راهط » . ولما علموا بقرار المؤتمر أظهروا خلافهم ، وخلعوا بنى أمية وأعلنوا مبايعتهم لابن الزبير . وأرسل الضحاك الى النعمان بن بشير وزفر بن الحارث ، وناقل بن قيس — الذى ثار وأخرج روح بن زنباع من فلسطين — كتب الى هؤلاء جميعا أن يمدوه بالجنود ، فأمدوه . فكان أول واجب على مروان ودولته أن يواجهوا هذا الخصم ، ولا بد أن يجمع هو أيضا قواته ويسير الى مرج راهط ، ويخوض الموقعة حتى يؤيد النصر الحربى — اذا انتصر — القرار القانونى ، الذى اتخذ في المؤتمر .

عبأ كل طرف اذن قواته . ولا يمكن تحديد أعداد الجيوش بالدقة ، فقد ذكرت أرقام فيها مبالغة . ولكن الظاهر أن كل جيش كان لا يقل عن اثنى عشر ألفا . واجتمعت على الضحاك قيس بفروعه ، واجتمعت على مروان كلب وغسان والسكون ، وكندة وطيباء . وقاد مروان جيشه بنفسه ، وجعل على ميمنته عمرو بن سعيد ، وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد . أما الضحاك ومن معه فكانوا

يقاتلون عن ابن الزبير ، الذي كان غائبا بعيدا في مكة . وقبيل
الموقعة ، استولى أحد قواد مروان من غسان على دمشق ،
وغلب على الخزائن وبيت المال . وأمد مروان بالأموال
والرجال والسلاح . فكان أول فتح على بنى أمية . والتحم
الجيشان ، واقتتل الفريقان قتالا شديدا . وحدثت الموقعة
في المحرم عام ٦٥ هـ — واستمر القتال عشرين يوما ، وكانت
موقعة هائلة .

وأسفرت الموقعة عن قتل « الضحاك » ، وهزيمة جيشه .
وقتل من الجانبين أعداد كبيرة . ولكن قتلت قيس مقتلة
عظيمة ، لم يصيبهم مثلها ، وتفرق من بقى منهم . فتم النصر
لمروان ، وثبتت دولته . وهذه الموقعة كانت موقعة تاريخية
حاسمة ، فقد قررت مصير ابن الزبير في الشام ومروان .
وبالنصر الذي أحرزه مروان فيها ، خلصت له الشام كلها ،
وأصبح هو الخليفة فيها بلا منازع . واتتهى أمر الزبير بالنسبة
لها . واتصلت دولة بنى أمية — وان كان الملك فيها انتقل من
فرع الى فرع . ومن ذلك الوقت ، بدأت دولة مروان وآله
الحقيقية .

وكانت ذيول المعركة أن النعمان بن بشير — والى
حمص — لما بلغه خبر الهزيمة خرج هاربا ليلا ، فتحير ليلته

كلها . ثم أدركه أهل حمص فقتلوه . ولما بلغت الهزيمة زفر بن
الحارث بقنسرين ، هرب فلاحق بمدينة «قرقيسيا» وهى على
الفرات شمال الجزيرة . وغلب على المدينة ، وتحصن بها .
وكانت منيعة ذات أبراج ، واجتمعت اليه فيها قبائل قيس
التي كانت مقيمة على الفرات ، فبقى متحصنا بها عدة سنين .
وكان عقبة فى طريق جيوش الشام الى العراق . وسيكون
له شأن مع عبد الملك — سنذكره فيما بعد . وقيل ان زفر
حضر الموقعة ، ثم فر الى تلك المدينة . وقال فى ذلك قصيدته
المشهورة ، التي جاء فيها :

أرينى سلاحى لا أبا لك انى

أرى الحرب لا تزداد الا تماديا

لعمري لقد أبقت وقية راهط

لحسن صدعا بيننا متنايا

الخ ...

وهرب نائل بن قيس الجذامى من فلسطين ، فلاحق بابن
الزبير بمكة . وقيل ان مروان — لما جرى اليه برأس
الضحاك ساءه ذلك ، وقال : « الآن حين كبرت سنى ودق
عظمى ، وضرت فى مثل ظمء الحمار (يعنى أن بقيت من
أجله مدة قصيرة) أقبلت بالكتائب أضرب بعضها ببعض ! » .

خلافة مروان

صفت الشام لمروان ، واستقرت دولته بها . ولكن كان مكتوبا أنه لن يبقى بعد هذه الموقعة أكثر من ثمانية أشهر . وهذه لم تكن مدة كافية لانجاز ما أمامه من مهام ، أو لمنازلة خصمه ابن الزبير ، وتوحيد الدولة . لكنه بعد أن قضى فترة في تنظيم شئون الدولة في الداخل ، شرع في العمل في هذا السبيل .

وكان أهم ما حققه في المدة الباقية من خلافته فتح مصر ، وائتزاها من يد ابن الزبير ، فضمها الى الشام . وذلك أن بعض أهل مصر كانوا كتبوا الى ابن الزبير بالبيعة ، فأرسل اليهم عبد الرحمن بن عتبة الفهري واليا ، ولكن أكثرية أهل مصر كانوا يحبون بنى أمية . فما ان ظهر مروان وبلغهم خبر نصره ، حتى كاتبوه سرا ودعوه الى القدوم الى مصر . فجهز مروان جيشا ، وأمر عليه ابنه عبد العزيز بن مروان وبعثه أمامه ، وسار مروان . فلم يجدوا مقاومة تذكر ، وانهزم القواد الذين أرسلهم ابن عتبة ، حتى نزل مروان عين شمس . وبعد قتال يسير سافر أناس بينهم بالصلح . فصالح ابن عتبة مروان على أن يخلي مصر ويلحق بنأمنه ، فلحق بابن الزبير .

وكان دخول مروان مصر في غرة جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ ،
وبقى بها شهرين الى هلال رجب من نفس العام . وعين ابنه
عبد العزيز واليا عليها ، وأوصاه . ثم رجع الى الشام .
ولما أقبل راجعا يريد دمشق ، بلغه أن عبد الله بن الزبير
قد بعث أخاه « مصعبا » نحو فلسطين ، حين بلغه خبر نائل
واقباله اليه هاربا . فوجه مروان اليه عمرو بن سعيد في
جيش قوى ، فلقيه عمرو قبل أن يدخل الشام ، فقاتله عمرو
فهزم أصحابه ، فرجع مصعب ومن معه الى الحجاز . ورجع
عمرو بن سعيد الى مروان ، فوافاه في دمشق .

ولم يكن من اليسير الآن فتح العراق . لكن ابن زياد
كان بينه وبين أهله ثأر . فقد أخرجوه وسلبوا سلطانه ،
وألجأوه الى الهرب . ولم تكن الجهود التي بذلها ابن زياد
من أجل انقاذ الدولة بالشام ، واعادة سلطان بنى أمية ،
الا بهدف أن يتمكن من العودة الى العراق ، فيستعيد ملكه
وسطوته ويأخذ بثأره . فيظهر أنه هو الذى حمل مروان
على أن يسرع باعداد جيش كبير ، يضعه تحت قيادته ،
ليتوجه به لاسترداد العراق . وقد تكون هذا الجيش فعلا ،
وسار به ابن زياد . وكانت الخطة أن يسير أولا الى
« قرقيسيا » بالجزيرة لاختضاع زفر بن الحارث ، ثم بعد

أن يفرغ من هذه المهمة يتجه جنوباً الى العراق لفتحه . لكن الذى حدث أن هذا الجيش قبل أن يصل الى قرقيسياء ، واجهه جيش قادم من العراق من متطوعين فدائيين ، لم يبعثهم أمير ، كانوا قادمين لمقاتلة ابن زياد بالذات . وهؤلاء هم « التوابون » وهم قوم من الشيعة . وسنقص أمرهم وأمر الحرب التى جرت فى فصل قادم ، نخصصه لثورات الشيعة التى ستمتد الى عهد عبد الملك .

ولم يغفل مروان أمر الحجاز ، بعدما رأى من الغارة التى شنّها مصعب على فلسطين . فجهز أيضاً قبيل وفاته جيشاً أرسله الى الحجاز ، وذلك بقيادة « حبيش بن دلجة القينى » . وقد سار الجيش لغايته ، ولكن الحوادث التى تلت تمت فى عهد عبد الملك . فسنذكر أمره اذن فيما بعد ، لنعرف ماذا صار اليه أمره .

ولاية العهد

وكان أهم ما فعله مروان — من الوجهة الداخلية — وبرهن على حكمته وبعد نظره ، وأدى الى خير النتائج ، هو أنه عقد البيعة بالعهد من بعده — وكان ذلك قبل وفاته بأقل من شهرين ، وكأنما كان ملهماً فى ذلك — عقد العهد لابنيه : عبد الملك ثم عبد العزيز .

ومع أنه في ذلك ربما كان مخالفا ما كان متفاهما عليه
في مؤتمر الجابية ، من أن يكون العهد من بعده لخالد بن
يزيد ثم لعمر بن سعيد ، إلا أن هذه المخالفة كانت تقتضيها
الحكمة السياسية ولصالح الدولة ، فإن انتقال الأمر من بعده
لابنيه هو ضمان الاستقرار ، ويكفل استمرار الدولة . وكان
عبد الملك بلا شك أكفأ من كل من خالد وعمر . وشعور
الناس برجحان شخصية عبد الملك هو الذي جعل هذا
ممكنا .

فقد دعا مروان رؤساء القوم بعدما عاد الى الشام من
رحلته في مصر ، وأخبرهم بما كان عمرو يعلنه من أن الأمر
سيكون له من بعد مروان ، وطلب اليهم أن يوافقوا على
المبايعة بالعهد من بعده لابنيه . فأجابوه الى ذلك ولم يلق
اعتراضا . وكان من أول الموافقين حسان بن مالك نفسه ،
الذي كان من أشد المتحمسين لخالد . ذلك أن مروان كان
مهد لهذا الأمر بحيلة سياسية ، وهي أنه بعد أن تم له النصر
وآلت اليه الخلافة ، أشير عليه — ورحب بالفكرة — أن
يتزوج أم خالد التي توفي عنها الخليفة السابق يزيد ، وقد
كانت من نفس الأسرة الأموية ، فهي فاختة بنت أبي هاشم
ابن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وكانت — كما روى —

سيدة جليلة وعاقلة . فبهذا الزواج حقق غرضين : الأول أنه ربط بين الأسرتين : تلك التي كان فيها الحكم ، والأسرة التي آل اليها الحكم ، وكان يرمى بذلك الى تثبيت مركزه وتوثيق العلاقات ، والغرض الثاني أنه أصبح بمثابة الأب لخالد ، فلم يعد يخشى شيئا من جانبه وصار من الممكن أن يؤثر عليه .

وهكذا كان من السهل على مروان أن ينفذ ما أراد . وعقد العهد من بعده لابنه عبد الملك ، ثم ابنه الآخر . لكن عمرو بن سعيد حمل الضغن في نفسه لما حدث ، ولا سيما أنه اعتبر أنه ساعد مروان في تأسيس ملكه ، فسيئرها اذن في نفسه . وستكون لهذه عاقبة خطيرة ، ويكون لعمرو شأن مع عبد الملك سنعرفه فيما بعد .

هل مات أم قتل

وفجأة ، في مستهل رمضان من سنة ٦٥ هـ — توفي مروان بن الحكم .

هل كان موته طبيعيا ؟ — « حُتِفَ أنفه » ، كما يقولون — . أم مات باصابة بالطاعون ؟ أم قتل اغتيالا ، حيث سقته زوجته — التي تحدثنا عنها — « أم خالد » — لبنا دست فيه

السم ؟ . أو خنقته هي — أو جواربها — بأن وضعت على وجهه وسادة في أثناء نومه ؟ . كل هذا لا أهمية له . المهم أن مروان توفي في ذلك اليوم ، وليس في الموت غرابة ، فالموت مكتوب على كل حي .

ومع ذلك ، فليس هناك مانع أن تقف برهة — حيث وعدنا بذلك من قبل — لننظر في هذه المسألة . فأول ما يلاحظ أن الروايات متضاربة . فالرواية الأولى أنه مات موتاً طبيعياً . والرواية الثانية أنه مات باصابته بالطاعون . والثالثة أن زوجته سقته لبنا وضعت فيه السم . والرابعة أن زوجته هي التي خنقته ، والخامسة أنها أمرت جواربها ففعلن ذلك . فلسنا ندرى إذن أى هذه الروايات نصدق ؟ . لكن تناقض الروايات دليل ظاهر على أن الحقيقة غير معروفة . ثم إذا عرضنا هذه الروايات على حكم العقل ، فإنا نجد أن الروايات التي تزعم أن زوجته هي التي اغتالته مباشرة — أو بالواسطة — غير مقبولة ، أو معقولة .

فهذه الزوجة سيدة شريفة عربية من بيت عبد شمس ، ولم يعرف عن نساء العرب — فضلاً عن أن يكن من قریش — إلا شرف النفس ونبل السجية ، والاخلاص والوفاء للزوج — ولا سيما وهذا قريبها من نفس أسرتها ،

ورجل هو عظيم قومه له مكاتته ، وكان فى منصب الخلافة .
ثم هى كانت زوجة خليفة سابق ، وهو يزيد . وأم خليفة
سابق ، وهو معاوية بن يزيد . ثم صارت أيضا زوجة خليفة
آخر ، وهو مروان . فيستبعد كل البعد أن تقدم على مثل
هذا العمل . ولنسأل : وكم مرة سمعنا عن نساء من العرب ،
أو أزواج خلفاء ، أنهن أقدمن على مثل هذا العمل ، الذى
يتنافى مع شهامة النفس العربية . ثم اتنا لم نر أى أثر لهذا
الاغتيال — اذا كانت الجريمة وقعت . فلم يحدث فى
الأسرة أى خلاف ، ولم نسمع عن المطالبة بالدم أو الانتقام
— على عادة العرب . بل على العكس ، نرى خالدا كالأخ
الصغير أو الابن لعبد الملك ، وظل مطيعا وفيا له طوال
خلافته ، وزوجه عبد الملك بنته وتزوج عبد الملك أيضا بنت
نفس السيدة الجليلة المذكورة ، حيث تزوج « عاتكة » بنتها
— وهى بنت يزيد الخليفة ، وأخت خالد . وكانت أثيرة عنده
محبوبة محترمة طوال عمرها ، وهى أم ابنه « يزيد » .
والسبب الذى قيل انه هو الذى دفع السيدة المذكورة
الى القتل — وهو أن ابنها أخبرها بأن زوجها مروان ذكرها
بكلمة نائية — لا يكفى ، على الاطلاق ، أن يكون سببا
للدفع الى ارتكاب جريمة القتل . وكذلك لا يكفى أن يكون

تحويل ولاية العهد عن ابنها الى عبد الملك سببا هو الآخر
لاقتراف هذه الجريمة . فخالد كان بمثابة الأخ الصغير
أو الابن لعبد الملك . وهم جميعا بيت واحد . وهى تعلم
— وخالد يعلم — أن الناس أعرضوا عن خالد ، لصغر
سنه وقلة تجربته ، واختاروا مروان . فذهب أمله فى الخلافة
منذ ذلك الوقت ، ويظهر أنه لم يكن يهتم بها كثيرا . ورضيت
أمه أن تكون زوجة لمروان بعد أن نال الخلافة ، وذلك لأنها
أرادت أن يكون الفرعان بيتا واحدا ، ويظل الشرف متصلا .
ولما عهد مروان لابنه عبد الملك كان هذا شيئا طبيعيا ، وتم
بموافقة الناس ، وخالد نفسه الذى ظل من أقرب الناس
لعبد الملك . على أن مسألة السياسة لا تهم الزوجات كثيرا ،
ولا تبلغ أن تكون ذات بال لدرجة أنها تحمل على القتل :
قتل الزوج والقريب ، وعماد الأسرة وقمة شرفها .

فخلاصة الحكم فى المسألة أنها ليست الاتهمة كاذبة ،
خفية ، أو خرافة ، أو كما قلنا من قبل : « ليست الا أسطورة
اخترعتها مخيلات عجائز القوم ، ثم رددتها الألسن حبا فى
الثروة أو لتنال من سمعة هذه الأسرة الرفيعة المكانة ، حسدا
لما وصلت اليه من مجد » . على كل ، فإن مروان قد أدركته
منيته فى ذلك اليوم ، فى التاريخ الذى ذكرناه . وحينئذ
ترك لابنه كل شيء — خلف لعبد الملك تركة مثقلة .

حقاً لقد أسس مروان الدولة . ولكن هذه الدولة لم تكمل من عمرها عاما واحدا . كانت لا تزال بحاجة أن تثبت دعائمها . وهى لا تشمل الا الشام ومصر ، وهذه الأخيرة لم تضم الا منذ شهرين . ثم فوق كل شىء ترك مروان لابنه خصمه القسوى وهو ابن الزبير . كان على عبد الملك أن يتحمل أعباء النضال لمنازلة هذا الخصم العتيد ، وأن ينتظر ليلتحم معه فى الموقعة الفاصلة . كان على عبد الملك — اذا أراد أن يوحد الدولة — أن يعد نفسه وجيوشه لخوض غمرات القتال ، فيهاجم العراق والحجاز ، والجزيرة ، وما وراء هذه من بلاد العرب والفرس . وكان فى العراق خاصة أحزاب وطوائف ، من شيعة وخوارج وزبيريين ، وغير ذلك . فهل كان عبد الملك كفؤا لهذه المهام ؟

الحق أنه كان كفؤا لحمل أعبائها وكان جديرا بأن يحمل أمانة هذا المنصب فى هذه الظروف ، وكأنما أهله الأقدار ليكون القائد الذى ينقذ الأمة فى هذه الساعات الحرجة ، والزعيم الذى يعمل لتوحيد الأمة والدولة ، وينجح فى ذلك . وربما كان أكفأ من أبيه . بل هذه هى الحقيقة كما تظهر من المقارنة . وصدق عبد الله بن عمر اذ قال : « ولد الناس ابنا . وولد مروان أبا ! » .

وكل هذه الأمور ستتجلى لنا حينما ندرس شخصية
عبد الملك وأعماله ، في الفصول التالية . فالآن علينا أن
نتعرف هذه الشخصية بأن ندرس سيرتها منذ البداية ،
بل ندرس الأسرة التي تنتمي إليها ، ومكاتها من الأمة
وموقفها من الاسلام . فالآن الى دراسة سيرة عبد الملك
وأسرته .

الفصل الثالث

عبد الملك وأُسرته (١)

من هذا الخليفة الجديد ، الذى جلس على عرش الخلافة فى دمشق ، فى ذلك التاريخ الذى ذكرناه (١ رمضان ٥٦٥ هـ) ،
واليه آلت هذه المسئوليات الضخمة ، وأصبح هو القائد
الذى تتطلع اليه الأنظار ، ويرجى أن يقود الأمة الى بر
النجاة ، وينقذها من أخطار الفرقة والافتقار ؟
من هو عبد الملك ؟

فأما نسبه — وهو الذى منه يعرف أسماء آبائه —
فانه هو :

عبد الملك بن مروان ، بن الحكم ، بن أبى العاص ،
ابن أمية ، بن عبد شمس ، بن عبد مناف .
فهو أموى ، لأنه من نسل أمية بن عبد شمس . وفى
هذا ، يلتقى مع معاوية بن أبى سفيان وابنه يزيد : الخليفين
قبله ، ومع سائر بنى أمية . غير أن أمية كان له — من بين

أولاده الكثيرين — ولدان ، هما اللذان نالا الشهرة في التاريخ ، وهما : حرب ، وأبو العاص : ابنا أمية .

فمعاوية من فرع حرب ، لأنه هو معاوية بن أبي سفيان ابن حرب بن أمية . ومروان وابنه من فرع أبي العاص ، لأن عبد الملك هو ابن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية . وفي أبي العاص هذا ، يلتقى عبد الملك وأبوه مروان بالخليفة عثمان — رضى الله عنه . فعثمان — رضى الله عنه — هو ابن عفان ، بن أبي العاص بن أمية . فالحكم اذن أخو عفان وعم عثمان ، ومروان هو ابن عم لعثمان . فمروان أقرب الى عثمان من معاوية . وعثمان يعتبر رأس أسرته .

أبو العاص

وقد كان حرب أكبر من أخيه أبي العاص ، وكانت له الرئاسة في الجاهلية ، ثم انتقلت الى ابنه أبي سفيان ، فالاسم والشهرة كانتا في الجاهلية في هذا الفرع . ولكن عثمان هو الذى أسس مجد بني أبي العاص ، فنال هذا الفرع نباهة الذكر والشرف في الاسلام . ثم بعد أن ظهر معاوية وانتقلت اليه زعامة الأسرة ، عادت الرياسة ثابتة الى مروان وابنه وأولاده : أى الى فرع أبي العاص . فأبو العاص هو جد

جميع الخلفاء والملوك الأمويين من مروان فما بعده ، سواء
في الدولة الأموية في المشرق ، أو في الدولة الأموية بعد في
الأندلس في المغرب . وفي هذا قال الشاعر (أعشى
بنى شيبان) وهو يمدح عبد الملك : —

عرفت قرشن كلها لبنى أبى العاص الامارة
لأبرها ، وأحقها عند المشورة بالاشارة
المائبين لما ولوا والنافعين ذوى الضراوة
وهم أحقهم بها عند الحلاوة والمرارة
وقال عبد الله بن الحجاج التغلبي يمدح عبد الملك أيضا :
يا بن أبى العاص ، ويا خير فتى

أنت سداد الدين ان دين وهى
أنت الذى لا يجعل الأمر سدى
حبيب قرشن عنكم حوب الرحى
ان أبا العاص — وفى ذاك اعتصى
أوصى بنيه فوعوا عنه الوصى
أن يتسرعوا الحرب ، ويأبوا ما أبى
الطاعنين فى النحور والكلى
شزرا ، ووصلا للسيوف بالخطى
الى القتال ، فحجوا ما قد حوى

وبهذا يشير الشاعر الى موقف بسالة وثبات لأبي العاص
في حرب الفجار ، وهى الحرب المشهورة التى نشبت في
الجاهلية : بين قريش وكنانة من جهة ، وهوازن وقيس من
جهة أخرى ، وسنشير اليها في مناسبة آتية . فعن هذه
الحرب وردت الأنباء بأن الظفر كان لقيس في أول النهار
على قريش فانهزم منها كثير ، ولكن حرب ابن أمية وبنى
عبد مناف ثبتوا ، وتبعهم سائر قبائل قريش ، وكما قال
المؤرخون : « وعقل حرب نفسه ، وقيد سفيان وأبو العاص
نفسهما ، وقالوا : لن يبرح رجل منا من مكانه حتى نموت
أو نظفر . فيومئذ سموا : العنابس ، والعنيس : الأسد » .
واقتل الناس قتالا شديدا . فحينئذ دارت الدائرة على قيس ،
وعاد الظفر منذ منتصف النهار لقريش ، فأحرزوا نصرا
كبيرا . وهذه هى الحرب التى شهدها النبی عليه الصلاة
والسلام في بدء شبابه قبل البعثة ، وكان مع أعمامه ، وقال
فيها الحديث : « كنت أنبل على أعمامى » : أى أناولهم
النبال : أى السهام التى يرميها أعداؤهم . فهذا موقف كان
لأبي العاص في هذه الحرب ، مع بنى عبد المطلب وسائر
بنى عبد مناف . وقد أبلاوا فيها جميعا بلاء حسنا .

بين الهاشميين والأمويين

وفي عبد مناف يجتمع عبد الملك بن مروان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في النسب . فعبد مناف هو أبو الهاشميين والأمويين جميعا . لأن هاشما هو ابن عبد مناف ، وأمّية هو ابن عبد شمس بن عبد مناف . وأمّية هو ابن أخى هاشم ، وهاشم عمه . فمن هذا يعرف ما بين الفرعين الكبيرين أو البطينين — كما هو التعبير اللغوي الدقيق — من وثيق القربى ، فهما أبناء عمومة . وكانت هذه القربى جامعة بينهما ، ملحوظة ومراعاة في الجاهلية ، فيما عدا أنه كانت توجد أحيانا منافسة بينهما . فالذى كان حاصلًا بينهما هو منافسة في سبيل الشرف ، كما توجد عادة بين فروع أسرة كبيرة ، لم تبلغ مبلغ العداء ولم تصل إلى الحرب . وقد كتب كثيرا عن الخصومة بين البطينين وبولغ فيها ، حتى صور ما بينهما بحالة عداء مستحكم ، مقرون بعواطف الحقد والبغض والمرارة . وليس هذا صحيحا ، ولا يتفق مع واقع التاريخ ، وإنما هو قراءة للتاريخ الماضى في ضوء الأحداث التالية ، وهو ما يسمى بعكس الترتيب الزمني ، وهو من الأخطاء المعروفة في تصوير التاريخ . ويدل على خطأ هذه الصورة أن حرب

ابن أمية كان صديقا لعبد المطلب بن هاشم : كان ملازما له في مجلسه وكان نديمه ، حتى حدثت بينهما جفوة صغيرة بسبب طاريء خارجي ، كذلك التي تحدث عادة بين الأصدقاء والأقارب . أما الصداقة بين أبي سفيان بن حرب والعباس ابن عبد المطلب فمشهورة ، استمرت في الجاهلية والاسلام . وكان العباس هو الواسطة في انقاذ حياة أبي سفيان واقناعه بالاسلام ، كما ثبت ذلك القصة التي ذكرها « ابن هشام » في سيرته .

عبد مناف : الأصل

وتبين هذه القصة أن القرابة والصداقة ، والاجتماع في أصل عبد مناف ، هي التي دعت العباس — عميد الهاشميين — أن يشعر بالعطف والرثاء لأبي سفيان — عميد الأمويين — فيسعى لانقاذ حياته ، ويأخذه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليطلب منه الأمان له . ثم يقنعه بالاسلام ، حتى اذا جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم في صباح اليوم التالي يسلم أبو سفيان بعد مناقشة بسيطة ، ويشهد شهادة الحق . وحينئذ يقول العباس لرسول الله : ان أبا سفيان

رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا ، فيقول الرسول : « نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ! » .

فأين اذن هذه العداوة المستحكمة بين بنى هاشم وبنى أمية ؟ . ثم ان بنى هاشم وبنى أمية وقفوا جميعا جنبا الى جنب في حرب الفجار — التي أشرنا اليها — وقاتلوا أعداءهم ، وقف بنو عبد المطلب بن هاشم الى جانب أبناء أمية بن عبد شمس ، حتى نالوا الظفر .

لكن الاسلام أتى بظروف وأحوال جديدة ، افترق فيها الفرعان من أجل العقيدة . ثم التآما ، ثم فرقت بينهما عوامل السياسة ، كما تفرق دائما وفي كل عصر ، بين الأحزاب والأسر . لكن الفرعين لم ينسنيا أبدا — بالرغم من الاختلاف — التقاء أصلهما في عبد مناف . وكان الشعور بذلك عاملا حاسما في كثير من المواقف السياسية .

وكان معاوية وهو خليفة يراعى دائما الصداقة التي كانت بين أبيه أبي سفيان والعباس : والد عبد الله بن عباس واخوته فكان يكرمهم ويجلهم ويحبب مطالبهم ، ولا يقبل وشاية فيهم . وكان يقول في مجالسه : رحم الله أبا سفيان والعباس ، كانا صفيين دون الناس . وأجابه ابن عباس — وكان يوما

حاضرا — فقال : رحم الله أبانا وأباك ، كانا صفيين
متقارضين : لم يكن لأبى من مال الا ما فضل أباك ، وكان
أبوك كذلك لأبى .

وفى أثناء الفتنة بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن
الزبير ، كان شعور عبد الله بن العباس بأنه وعبد الملك
يجتمعان فى عبد مناف ، واذن فعبد الملك أقرب اليه من
ابن الزبير — الذى كان ينتمى الى أسد بن عبد العزى —
واذن فعبد الملك أولى بتأييده ومناصرته — كان هذا
الشعور من العوامل القوية التى جعلت ابن عباس يمتنع عن
مبايعة ابن الزبير ، لأنه بذلك يخرج الخلافة من بنى
عبد مناف الى بنى أسد بن عبد العزى . ولما اشتد عليه
ابن الزبير واضطره الى أن يخرج الى الطائف من مكة ،
أرسل ابن عباس ابنه « عليا » — وهو على بن عبد الله بن
العباس — الى عبد الملك بالشام ، وقال اذ ذاك : « لأن
يربئى بنو عمى أحب الى من أن يربئى رجل من بنى
أسد » — قال المؤرخ معلقا : « يعنى ببني عمه : بنى أمية ،
لأنهم جميعهم من ولد عبد مناف ، ويعنى برجل من بنى
أسد : ابن الزبير ، فانه من بنى أسد بن عبد العزى بن
قصى » .

أما العداوة التي حصلت وصارت لها جذور ، فهي تلك التي وقعت بين علي بن أبي طالب وبيته وبين بيت آل أبي سفيان . وذلك للاختلاف في العقيدة ، والحروب التي وقعت في صدر الاسلام ، وقتل من قتل فيها . ثم للاختلاف السياسي الذي حدث بين علي ومعاوية — بالذات — حول الخلافة والولاية ، ثم بين ابنيهما . والخلاف السياسي نفسه سيفرق بين الهاشمين أنفسهم . سيفرق بين آل علي بن أبي طالب وآل عبد الله بن العباس — وذلك في عهد العباسيين وقيام دولتهم — وهما أقرب الناس بعضهم الى بعض ، فهم أهل بيت واحد جميعا من عبد المطلب بن هاشم . وهذا شأن السياسة .



أما مروان وابنه عبد الملك وأسرته فلم يشتركوا في هذا الخلاف ، أو العداة الذي حصل بين آل علي وآل أبي سفيان . فان مروان حين خرج الى البصرة عقب مقتل عثمان ، انما خرج ليطلب بدم عثمان — ابن عمه وعميد بيتهم — من أهل العراق . ثم بعد أن انتهت موقعة الجمل طلب الأمان من علي ، فأعطاه له . وحينئذ بايع مروان علي بن

أبى طالب بالخلافة وعاد الى المدينة فعاش فيها ، شبه معتزل
للسياسة . ولم يشترك في الحرب التي وقعت بين علي ومعاوية
في صفين ، ولم يخرج الى معاوية لمبايعته . وهذه حقيقة تلفت
النظر . وحين صار واليا على المدينة — في عهد معاوية —
كانت العلاقة طيبة بينه وبين آل علي ، حتى كان الحسن
والحسين يصليان خلفه .

ولم تكن لمروان ولا لعبد الملك علاقة بمقتل الحسين .
فهما كانا بالمدينة ، وهذا الحادث حدث بالقرب من الكوفة .
وكانا في ذلك الوقت معزولين عن الامارة والولاية بالمدينة ،
فقد عزل مروان في آخر عهد معاوية ، ولم يوله يزيد ولاية
المدينة ولا غيرها . بل الأخبار التي وردت تبين أنهم استنكروا
قتل الحسين ، وأشفقوا من نتائجها . وسنزيد هذا الأمر
توضيحا فيما بعد . غير أن مروان ، وأولاده الذين تولوا
بعده ، ورثوا جانبا من سوء العلاقة أو العداوة التي كانت
موجودة بين آل علي وأتباعهم وبين آل أبى سفيان ، لأن
دولتهم كانت استمرارا للدولة السابقة ، وكانت الشام هي
نفس مقرهم . فلذلك سيقف الشيعة منهم موقفا معاديا ،
وتنشب بينهم الحروب — كما سيتضح في فصل قادم .

عربي قرشى

بيتنا نسب عبد الملك بن مروان ، فهو من بنى عبد مناف ، ومن بنى أمية ، فهو قرشى من صفوة قريش ، لأن بنى عبد مناف بن قصي هم صفوة قريش ، فقصى كان زعيم قريش وهو الذى أسس مجدهم وأقام دولتهم ، وهو اذن أيضا — أي عبد الملك — من أشرف معادن العرب ، لأن قريشا ، بلا جدال ، هى أشرف العرب ، وهم يقرون لها بالمجد ويعترفون لها بالزعامة ولا يقبلون الطاعة الا لها . فعبد الملك اذن — أو الخليفة الذى تولى الخلافة فى دمشق ، فى التاريخ الذى ذكرناه — عربى من صميم العرب وصفوتهم ومن أشرف أصولهم . اذ هو قرشى من أوسط قريش نسبا ، ينتمى الى قصي وعبد مناف وأميه وعبد شمس . واذن فهو — فى شخصيته وصفاته ومواهبه وأعماله — يمثل نموذج العربى الأصيل ، حين يصير خليفة أو ملكا ، أو رجل سياسة ودولة .

وهو — من جهة نسب أمه — عربى قرشى ، أيضا . فأمه هى : عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبى العاص ، ابن أمية . فنسبه من جهة أبيه وأمّه معا ، ينتهى الى أبى العاص بن أمية . وكان يضرب بأمه عائشة المثل فى الخصال الحميدة ، والصفات

الكريمة ، واليهما يشير عبد الله بن قيس الرقيات في قوله ،
وهو يمدح عبد الملك :

أنت ابن عائشة التي فضلت أروم نسائها
لم تلتفت للذاتها ومضت على غلوائها
ولدت أغر مباركا كالشمس وسط سماءها

الحكم

هذا أبو العاص . وابنه (الحكم) وهو أبو مروان ،
وجد عبد الملك .

وكان الحكم من أشرف قريش ، الذين ناصبوا الاسلام
العداء في أول ظهوره . وكان معادلا لأبي سفيان . وتأخر
اسلامه مثله ، فلم يسلم الا عند فتح مكة . فهو من مشيخة
قريش ، الذين أسلموا يوم الفتح . ويومئذ أمر الرسول
بإبعاده الى الطائف . ولا يعرف السبب الذي من أجله أمر
الرسول بإبعاده على وجه التحديد ، فاختلف فيه . والاختلاف
حول حقيقة السبب يدل على عدم معرفته . والذي يرجح
في ذلك أن رسول الله (ص) كان يحكم ببعض عقوبات على
النفر الذين وقفوا موقف عداء للاسلام في أول الأمر ، حتى
يثبت صديق اسلامهم ، وصفاء سريرتهم . والأظهر أن الرسول
عفا عنه ورده بعد قليل الى مكة ، كما ثبت ذلك ما جاء

في خطاب لعثمان ، اذ قال : « وقالوا أنى رددت الحكم ، وقد سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم . والحكم مكيّ سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة الى الطائف ، ثم رده رسول الله صلى الله عليه وسلم . فرسول الله سيره ، ورسول الله رده أكذلك هو ؟ » — فقال الناس : اللهم نعم . ويمكننا أن نستنتج أن عثمان — وهو ابن أخيه — شفع له .

وقد بقى الحكم مع أسرته في بلده مكة ، حتى جاءت خلافة عثمان ، فحينئذ استدعاه عثمان ، وأحضره وأسرته الى المدينة . لأن عثمان كان معروفا بعطفه على ذوى قرباه ، وخبه لصلة الرحم . وكان يريد أن يجمع شمل الأسرة ليشتركوا في الأعمال العامة ، وليجدوا المجال ليكون لهم شأن في الاسلام ، كما كان لهم في الجاهلية . ولم يسمع عن الحكم خبر منذ اسلامه أو يؤخذ عليه ما ينقد ، فيظهر أنه قضى بقية حياته في هدوء . فلم يزل منذئذ مع أسرته بالمدينة ، حتى توفي في خلافة عثمان وصلى عليه عثمان . وإذا أردنا أن نعرف صفة للحكم فقد وصفه عبد الله بن الزبير ، في حديث له فيما بعد — مع شدة عداوته لآل مروان — فقد قال : « لا تسبوا الحكم . فقد كان الحكم رجلا وديعا » . فهذه إحدى الصفات التي تلقى ضوئا على شخصيته .

مروان

على أنه إذا كان الحكم قد اختلفت حياته بين الجاهلية والاسلام ، فان ابنه « مروان » قد ولد بعد ظهور الاسلام : ولد حوالى العام الذى حدثت فيه الهجرة — قبله أو بعده بقليل — وكان بمكة مولده . فحين أسلم أبوه عام الفتح ، كانت سنه نحو الثامنة . فأسلم وعاش حياته فى الاسلام منذ ذلك الوقت ، فنشأ اذن من صغره نشأة اسلامية . ولا بد أنه رأى رسول الله ، وشهد جيش المسلمين يوم الفتح ، وكان لهذا أثره العميق فى نفسه وهو صغير ، ثم قضى مع أبيه فترة فى الطائف ثم عاد الى مكة . وكانت مكة قد أصبحت حصنه للاسلام ، وتحولت قريش كلها الى الدفاع عنه ، ثم توالى الفتح ووقائع النصر فى عهدى أبى بكر وعمر ، فعاش مروان صدر شبابه وهو يرى دولة الاسلام فى أوج مجدها وقوتها ، وقد استولت على دول كسرى وقيصر . ويظهر أنه كان يزور المدينة ، لأنه رويت أنباء عن وجوده بها فى عهد عمر ، كما أنه روى بعض الحديث عن عمر .

وحين استدعاه ابن عمه عثمان للحضور الى المدينة مع أبيه وأسرتة ، فانتقلوا اليها من مكة ليقيموا بها ، كانت سنه

— أى مروان — اذ ذاك فى نحو الخامسة والعشرين . لأن
خلافة عثمان بدأت من عام ٢٤ هـ . وكان عثمان بالنسبة له
— من حيث السن — بمثابة الأب ، كما كان له كالمربي
والأستاذ . ولا بد أن مروان كان ينظر الى عثمان على أنه
مثله الأعلى ، فهو عميد أسرته الذى أكسب الأسرة شرفها
فى الاسلام ، ولمكانة عثمان فى الاسلام وعلمه وتقواه ،
ولتبوئه منصب الخلافة . فلا بد أن مروان تتلمذ عليه ،
أو نقول انه دخل فى مدرسة عثمان . وقد أتاح له وجوده
بالمدينة أن يحصل على بغيته من العلم والتفقه فى الدين ،
لأنه كان على مقربة من الصحابة والتابعين — ولا سيما زيد
ابن ثابت الذى كان مستشار عثمان ورئيس ديوانه . كما
أن وجوده بالمدينة أعطاه أيضا الفرصة ليطلع على شبثون
الدولة ، ويفهم أحداث السياسة . وقد قربه عثمان وأنعم
عليه هو وآله ، حيث كان معروفا عن عثمان عطفه على
ذوى قرباه ووجه لصلة الرحم ، وضمه لحاشيته فعينه أحد
كتابه . ثم ما زال يرقى حتى صار بمثابة أمين سر دولته
ورئيس ديوان رسائله .

ومنذ قدوم مروان إلى المدينة فى عام ٢٤ هـ بقى بها
وأسرته ، فلم يرحلها الا لرحلات موقوتة — وذلك حتى

سنة ٦٤ هـ : أى قضى فيها أربعين سنة من حياته ، فيعتبر
اذن من أهل المدينة والحجاز . ثم أجبر فى ذاك العام الأخير
على مغادرتها الى الشام — كما قدمنا من قبل ، وكما سنشير
اليه بعد .

والأخبار التى وردت عن مروان تقول عنه : « انه كان
من رجال قريش ، وكان من أقرأ الناس للقرآن » . وكان
يحيى الليل بالصلاة . وتحدث مروان فقال : « لقد رأيتنى
عند عمر فى فتية من قريش ، كلهم يقرب دونى . فما زال
ايثارى الحق حتى كان يبعثنى فى مهم أمره » . وكان مروان
يقول : « ما أخللت بالقرآن قط » . وقد أشرنا فيما تقدم
الى أنه كان من المؤهلات التى رجحت كفة مروان ، وحملت
الناس على انتخابه للخلافة ، أنهم جاءوه ليلا فوجدوه فى
فسطاطه ساهرا والى جانبه مصباح ، والمصحف بين يديه
وهو يقرأ القرآن « ! ولا بد أن هذا كله كان من آثار اقتدائه
بعثمان — أستاذه — وعمر — رضى الله عنهما ، وغيرهما
من الصحابة والتابعين .

وكان أهم حادث شهده مروان ، وهو لا يزال فى فتوته
— حادث الفتنة أو الثورة على عثمان ، التى انتهت الى

حصاره في داره ثم اغتياله ، وذلك في أواخر عام ٣٥ هـ .
وقد كان بعض أسباب هذه الثورة يتعلق بمروان نفسه .
وكثير من التهم التي سبقت ليست ثابتة أو جوهريّة . ويظهر
أن مروان — وهو في عنفوان شبابه — كان يقابل الناس
بالشدة ، ويصادمهم ، فيزيد من ثائرة غضبهم . وخلاصة
حكم التاريخ في مقتل عثمان هو ما قاله علي بن الحسين ،
إذ قال : « والله ما قتل عثمان على وجه الحق ! » . وقد
لخص ابن خلدون حادث الفتنة ، فقال : « ثم تجمع قوم من
الغوغاء ، وجاءوا الى المدينة يظهرّون طلب النصفة من
عثمان ، وهم يضمرون خلاف ذلك من قتله .. وعزل لهم
(أي عثمان) عامل مصر . فأنصرفوا قليلا ، ثم رجعوا وقد
لبسوا بكتاب مدلس ، يزعمون أنهم لقوه في يد حامله الى
عامل مصر بأن يقتلهم . وحلف عثمان على ذلك . فقالوا :
مكنّا من مروان ، فانه كاتبك . فحلف مروان . فقال عثمان :
ليس في الحكم أكثر من هذا . فحاصروه بداره ، ثم يتوه
على حين غفلة من الناس ، وقتلوه ! . وانفتح باب الفتنة » .
وقد دافع مروان دفاعا مجيدا عن عثمان ، في يوم وقعة
الدار عند محاصرته ، وقاتل قتالا شديدا ، ليصد المهاجمين
الذين اقتحموا الدار . وقد خرج يومئذ لابسا درعه شاهرا

سيفه ، وهو ينادى الى المبارزة ويتمثل بهذا الشعر :

قد علمت ذات القرون الميل

والكف والأنامل الطفول

أنى أروع أول الرعيل

بغارة مثل قطا الشليل

وما زال يقاتل ببسالة ، حتى أتى رجل فضربه من خلفه
بالسيف على رقبته ، فخر صريعا مغشيا عليه ، وأراد آخرون
أن يجهزوا عليه ، فحالت بينهم وبينه مريته التي كانت
أرضعته — وكانت دارها قريبة من المعركة — وقالت لهم :
ان كنتم تريدون قتله فقد قتل ، وما تصنعون بأن تمثلوا
بجثة ميت ؟ فتركوه . ثم حملته الى داخل الدار ، لتداويه
حتى يبرأ . ونجح المدافعون في ذلك اليوم في اجلاء المهاجمين
عن الدار ، ولكنهم بعد ذلك تسبورا الدار من دار ملاصقة ،
واقترفوا جريمتهم !

وهذه المعركة أظهرت مروان في دور الفروسية ، وبرهنت
على شجاعته وقوة شكيمته ونبل وفائه .

ولما تولى معاوية الخلافة عينه واليا على المدينة ، وذلك
في سنة ٤٢ هـ . فلبث واليا حتى سنة ٤٨ هـ .

ويظهر أن مروان كان ناجحاً في ولايته موقفاً في حكمه ،
لأننا لم نسمع عن حدوث فتنة في عهده ، وعرفت عنه بعض
الاصلاحات التي نفذها في أثناء ولايته : فحرص على سلامة
العملة ، وعاقب من يغشها بالزيف أو التقطيع . وضبط
الموازين والمكاييل ، حتى لا يقع غبن في البيع أو الشراء .
ومن ذلك أنه توصل الى تحديد مقدار الصاع الشرعى ، بأن
جمع الصيعان فعاير بينها حتى أخذ أعدلها ، فأمر أن يكال
به . فقليل صاع مروان ، وهو نفسه صاع رسول الله صلى
الله عليه وسلم . وكان أسلوبه في الحكم أسلوباً شورياً ،
فقد « كان مروان في ولايته على المدينة يجمع أصحاب
رسول الله يستشيرهم ، ويعمل بما يجمعون له عليه » . وهذه
السنة الحسنة هي التي اتبعها حفيده الصالح عمر بن
عبد العزيز ، حين جاء أيضاً ليحكم المدينة في أواخر القرن
مقام جده .

العلاقة مع آل البيت

ولم يعينه يزيد في ولاية ما أطوال عهده . فحين حدثت
مأساة الحسين كان مروان وعبد الملك بعيدين خارج الحكم
والولاية ، وهما مقيمان بالمدينة . فلم تكن لهما أية علاقة

بهذه المأساة . وانما كان المستول عنها عبيد الله بن زياد في العراق ، ويزيد في الشام . وكان والي المدينة اذ ذاك عمرو ابن سعيد بن العاص ، وهو الذي تولى اعلان الخبر لأهل المدينة . وكانت علاقة مروان وعبد الملك بعلي بن الحسين علاقة طيبة ، كانوا أصدقاء . فعندما أخرج أهل المدينة بنى أمية ، قبيل موقعة الحرة ، أتى مروان علي بن الحسين فكلمه ، وقال : يا أبا الحسن ان لي رحما . فأذن لي أن يكون حرمي مع حرمك . فرحب عليّ ، وآوى اليه ثقل مروان وحرمه — وكانت هي عائشة بنت عثمان بن عفان ، أم أبان بن مروان — فخرج علي بن الحسين بحرمه وحرم مروان ، حتى آواهم بينبع ، وقيل الطائف . فشكرها له مروان . ولذلك فانه بعد انتهاء موقعة الحرة ، وانتصار جيش بنى أمية ، جاء مروان وعبد الملك ومعهما علي بن الحسين ، يمشي الى مسلم بن عقبة القائد ، ليطلبها له الأمان منه . وكان مسلم في نفس الوقت مأمورا من يزيد بأن يحسن معاملة علي ، فأمنه مسلم وأكرمه .

ولما ثار أهل المدينة ثورتهم هذه التي انتهت الى موقعة الحرة ، كانوا حاصروا بنى أمية جميعا ، وعددهم نحو ألف ، وعلى رأسهم مروان — حاصروهم في دار مروان . ثم رأوا

أن يخرجوهم ، فأخرجوهم على أن يتوجهوا الى الشام ، بعد أن أخذوا عليهم شروطا . ولكن مروان وعبد الملك قابلا مسلم بن عقبة في الطريق ، قادمًا بجيشه للدفاع عنهم ومقاتلة الثائرين بالمدينة . فعاد مروان معه : وهنا قصة حدثت بين القائد مسلم وبين عبد الملك ، سنذكرها بعد قليل . كانت هذه الموقعة في أواخر سنة ٦٣ هـ . وبعد أن تم النصر ، استأثف مروان وأسرته حياتهم بالمدينة . ولكن مدة بقائهم لم تطل ، فبعد شهرين ونصف شهر توفي يزيد ، وجاءهم الخبر بوفاة واضطراب الأمر بالشام ، ثم أعلن ابن الزبير الدعوة الى نفسه بالحجاز ، وأرسل الى نائبه أو واليه على المدينة يأمره بإخراج بنى أمية من المدينة والحجاز ، الى الشام .

الهجرة إلى الشام

ففى هذا الوقت لم يجد مروان بدا من الهجرة ، فهاجر وأسرته نهائيا من المدينة الى الشام . وكان ذلك فى شهر ربيع الثانى ، من عام ٦٤ هـ . ويحدث الراوى عن هذه الهجرة التاريخية ، فيقول : « لم يزل مروان بالمدينة ، حتى كتب ابن الزبير — بعد موت يزيد وشخص خصين بن نمير — أى رجوعه الى الشام ، الى ابن مطيع (نائبه فى المدينة) فى

تسير بنى أمية ، فسيره وسيرهم . فورد الشام ومعاوية
ابن يزيد قد بويع . وكان مروان لما سيروا ، اكثري أبرة
(جمالا) ركبها وبنوه ، وأمر أن يحث به وبهم ، فقال
راجزه :

حرم مروان عليهن النوم
الا قليلا ، وتلاهن القوم
حتى يقرن أو يتن بالدوم

والدوم على مسيرة ليلتين من المدينة . وكان عبد الملك
ابن مروان عليلا ، فقال للرسول الذي وكل بازعاجهم : قل
لأبي خبيب (أى ابن الزبير) يصنع الله . وفى ذلك يقول
الشاعر أبو قطيفة — وهو عمرو بن الوليد بن عقبة
الأموي — وكان ممن سيروا الى الشام :

بكى أحد لما تحمل أهله

فكيف بذى وجد من القوم آلف ! » .
خرج مروان وعبد الملك وآل بيتهما فى رحلتهم هذه
مهاجرين ، وهم يظنون أنهم ذاهبون الى منفى : الى مغرب
وعزلة . وكان مروان بالذات وقد بلغ من السن عتيا يفكر أنه
ذاهب ليقضى الفترة الباقية من عمره فى هدوء ، وما دروا
حينئذ — كما كانت ستين لهم الأيام — أنهم ذاهبون
ليخوضوا معتركا سياسيا ، لم يشهدوه من قبل . وأنهم

ذاهبون ليعطيهم أهل الشام الدولة والخلافة والملك . وأنهم ذاهبون ليسجلوا صفحات في تاريخ العرب والاسلام ، وليصنعوا تاريخا جديدا ! . فبعد ستة أشهر فقط من قدومهم ، بويح مروان بالخلافة ، وأجلس على عرش دمشق في المكان الذي كان يجلس عليه معاوية الخليفة الكبير ، وابنه الخليفة الآخر . وقام مروان في المدة الباقية له — وهي أقل من عام — بأعمال مجيدة ، ذكرناها في الفصول السابقة : فانتصر في موقعة حاسمة ، وفتح مصر ، وبعث جيوشا الى العراق والحجاز ، وضمن انتقال العرش لأولاده ، فعقد البيعة لهم . فكل شيء كان ممهدا لتولية عبد الملك . لقد كان آخر عام في حياة مروان أهم عام في حياته ، على الاطلاق .

* * *

ومن سيرة مروان هذه التي ذكرناها تتبين الصفات التي تميز شخصيته . فقد رأينا أنه نشأ نشأة اسلامية منذ صغره ، وكان أول ما شاهده مجد الدولة الاسلامية وسيادتها ، وتأثر بعمر في صدر شبابه ، ثم تتلمذ على عثمان في رجولته ، فنشأ تقيا قائما بواجباته ، عاملا بتعاليم القرآن . وهو محب لتلاوته . كذلك تجلت شجاعته في المواقف التي تحتاجها : كما في مواقف الدفاع عن عثمان ، وقتال يوم الجمل ، وفي الموقعة

الأخيرة الكبيرة في مرج راهط ، حيث قاد المعركة بنفسه وكان وسط الميدان يحرض القوم على القتال ويدفعهم الى التقدم . ولكنه فيما عدا أمثال هذه المواقف ، كانت طبيعته تميل الى المسالمة : كما رأينا من مصالحته لعلی ، وعدم بدئه أهل المدينة بالقتال يوم حاصروه ، وفي أثناء ولايته على المدينة . وكان مستقل الرأي فلم يندفع وراء العصبية — مثل سائر بني أمية — في العداء لآل علی ، بل كانت علاقته بهم طيبة .

ومن ناحية أخرى ، عرف مروان بالفصاحة والتأدب بالثقافة العربية : كما ظهر ذلك في تمثله بالأشعار البليغة في المواقف المناسبة ، وفي بعض العبارات التي أثرت عنه .

وأما من ناحية الإدارة والسياسة ، فكان ناجحا في ولايته على المدينة ، ونفذ بعض الإصلاحات . وكفى أنه اتبع أسلوبا شوريا أو ديمقراطيا ، فكان يجمع الصحابة ويستشيرهم ثم يعمل بما يتفقون عليه كما ذكرنا من قبل . وهذه خير سياسة . وقد جاء في وصيته التي أوصى بها ابنه عبد العزيز بن مروان ، حينما ولاه ولاية مصر ما يأتي :

« يا بني ، عمهم باحسانك يكونوا كلهم بني أبيك . واجعل وجهك طلقا تصف لك مودتهم . وأوقع الى كل

رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره يكن عوناً لك على غيره ،
وينقاد قومه اليك . وقد جعلت معك أخاك « بشرا » مؤنسا .
وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً . وما عليك
يا بني أن تكون أميراً بأقصى الأرض ؟ ! أليس ذلك أحسن
من اغلاقك بابك وخمولك في منزلك ؟ ! » .

كما أوصاه أيضاً بتقوى الله في السر والعلانية ، وبالبر
بالفقراء ، وتنفيذ وعده إذا وعده ، ولو حال دون ذلك شوك
القتاد . وأن تكون المشورة رائده قبل الفصل في أمور
دولته . فتلهج الألسن بالدعاء له ، ويأمن الفتن والقلقل .

فهذه الوصايا تشهد له بنمو حكمته ومعرفته بأصول
السياسة . ويظهر أن عبد العزيز اتبع نصائح أبيه إذ كان
أميراً ناجحاً على مصر لمدة عشرين سنة .

ومع أن خصوم مروان وبيته — وهم كثير في عصره
وما بعده — وبخاصة الشيعة وأنصار بني العباس
— وضعوا أحاديث وأخباراً مكذوبة ، ترمى إلى الطعن في
مروان وأبيه وذريته — فإن أحاديث مروان وعبد الملك
رويت في كتب الحديث الصحيحة . وعد مروان في الطبقة
الأولى من التابعين ، وعبد الملك في الطبقة الثانية ، واستشهد
أئمة الاجتهاد بأعماله . وشهد لهما المؤرخون بالعدالة .

الفصل الرابع

عبد الملك وأسرته (٢)

اتنا في سيرة مروان هذه قد تتبعنا الى حد كبير سيرة عبد الملك . فان سيرة عبد الملك تشترك مع سيرة أبيه في أربعين سنة وعام . وذلك منذ قدوم مروان وأسرته الى المدينة للإقامة في عام ٢٤ هـ ، في أول خلافة عثمان . .
فانه في تلك السنة التاريخية في حياة الأسرة ، السنة التي بدأ فيها يلمع نجم الأسرة ، وكانت فاتحة الخير والمجد لهم . ولد « عبد الملك » لأبيه مروان ، كأنما كان قدومه بشير خير وسعد . فنحن نرجح أن مولده كان في ذلك العام : ٢٤ هـ .

فقد رويت ثلاثة تقديرات لعمر عبد الملك ، ومنها نستنتج ثلاثة تقديرات لتاريخ مولده : فقد قيل انه عاش ستين سنة ، أو اثنتين وستين ، أو ثلاثا وستين . وثابت أن وفاته حدثت في عام ٨٦ هـ — ولا خلاف على ذلك — فهذا أمر واضح

مشهور . فاذن على التقدير الأول يكون تاريخ ميلاده سنة ٢٦ هـ ، وعلى الثانى عام ٢٤ هـ ، وعلى الثالث ٢٣ هـ . وهى — على العموم — تقديرات متقاربة . وأنا أرجح التاريخ الوسط . أولا ، لأنه متفق عليه أن مولده كان بالمدينة ، واذن فيستبعد التاريخ الأخير ، لأنه كان قبل الانتقال الى المدينة . وثانيا لأن هذا التقدير : ٢٤ هـ هو الذى يتفق — أكثر من الآخرين — مع سير الأحداث فى حياته ، ولقرائن وأدلة أخرى لا داعى لتفصيلها هنا .

فى المدينة

ولد عبد الملك اذن بالمدينة فى عام ٢٤ هـ ، فى شهر رمضان بالتحديد — كما ذكر هو فيما بعد . وكان هذا العام هو أول عام فى خلافة عثمان ، التى بدأت فى المحرم من ذاك العام .

وكان عبد الملك — وهو أول من سُمى بهذا الاسم فى الاسلام — هو أول فرد من الأسرة يولد فى بيئة اسلامية كاملة ، من بيت شمله كله الاسلام ، من أب مسلم وأقارب مسلمين ، لم يدرك لحظة من الجاهلية . فكانت نشأته اذن منذ لحظة مولده نشأة اسلامية محضة . وقد ذكر هو عن

نفسه أنه « جمع » القرآن : أى حفظه كله . وكان ذلك فى رمضان أيضا — الشهر الذى لاحظ أنه لعب دورا فى حياته — وان كان لم يحدد العام ، فلا بد أن ذلك كان فى سن مبكرة . كما أننا نوقن أنه لابد أن تلقى الثقافة العربية التى كان يتلقاها أمثاله من أبناء البيوتات الكريمة وأبناء قريش خاصة ، وظل يواصل التزود منها فى سننى عمره ، اذ يدل على ذلك ما بلغه من مستوى عال متفرد فى البلاغة ومعرفة الآداب العربية، كما يظهر فى خطبه ورسائله وأحاديثه، أما تربيته الدينية والخلقية فانه يعتبر أنه نشأ فى بيت عثمان الذى كان بمثابة عمه ، وكان عميد أسرهم ، وأستاذ أبيه ، فكان عثمان أمامه هو المثل الأعلى الذى يحتذيه ، وكفى به مثالا نموذجيا فى التقوى والورع والحياء والعمل بأحكام الدين . كما كان أبوه قدوته أيضا اذ كان مروان من رجال الاسلام : من الصف الأول من التابعين . وقد رأينا كيف أنه كان يترسم خطى عمر وعثمان ، ويحىي الليل بالصلاة ، ويعمل بفضائل القرآن ، ويكثر من تلاوته . لذا لا غرو أن نسمع من شهادات معاصرى عبد الملك بن مروان والمؤرخين فيما بعد — وكلها مجمعة على ذلك — أن عبد الملك كان أيضا مثالا ممتازا فى العبادة والنسك ، طوال حياته فى المدينة ، كما سنذكر جانباً من هذه الأقوال بعد قليل .

ولما كبر عبد الملك وبدأ يدرك ما حوله كان أول ما أدركه — ولا بد أنه كان له أثر عميق في نفسه — أن عمه — ونعني به عثمان — كان هو الخليفة الذي يحكم الدولة الإسلامية العظيمة كلها : « أمير المؤمنين » — كما يلقبه الناس ، وأن أباه « مروان » من كبار رجال الدولة وأقرب الناس للخليفة وهو أمين سره ورئيس ديوانه ، وأن بعض أقاربه يتولى ولايات خطيرة . وقد قربهم الخليفة وجمع حوله شمل الأسرة وشملهم بعطفه ورعايته ، فلا بد أن هذا كله كان يبعث في نفسه شعور الزهو والفخر ، ويجعله يحس بالثقة في نفسه وبالتفاؤل بمستقبله .

كما كان أول ما أدركه أيضا — وقد ازداد وعيه — أن رأى الدولة الإسلامية في أوج المجد والقوة ، أعظم الدول جميعا بلا استثناء ، ويسمع الأنباء المدوية عن انتصاراتها الباهرة في مختلف الميادين : في شمال إفريقيا وفي بلاد فارس وفي أرمينية ، وفي البحر في موقعة ذات الصواري ، وغير ذلك من الأحداث التي وقعت في خلافة عثمان ، فيكون أثر ذلك في نفسه أن تجعله يؤمن بتفوق العرب والإسلام . ولما كان يعرف أن الإسلام هو الذي أوجد ذلك كله ، هو الذي خلق

الدولة وصنع هذه القوة وأقام النظام والخلافة ، فان ذلك كان يزيد ايمانه بالاسلام ويجعله يعتقد أن الاحتفاظ بالاسلام هو أساس كل شيء ، ويقوى اعتقاده في الله ، اذ هو يشعر أن هذا كله وجد بسبب أن الله أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله .

ولابد — وهو الفتى العربى الذكى — أنه كان يفكر ويطيل التأمل في تاريخ الاسلام منذ ظهوره — وكان لا يزال حديث العهد — ويسأل أباه وعمه ومن حوله عن أحداثه وعن سيرة النبى العربى «محمد» — وهو قريب له يجمعه به أصل عبد مناف — الذى اختاره الله لإعلان هذه الرسالة والذى كانت جهوده لها الفضل في إقامة الدولة ومعرفة الدين ، وبعث أمة العرب ، وبدء هذا التاريخ الرائع المجيد — يسأل ، فيجيبونه بما يثير دهشته ويزيد من إعجابه . وكان يتردد على المسجد بالمدينة للصلاة ، فيرى على مقربة منه قبر الرسول «محمد» ، ويجواره قبر أبى بكر وعمر ، فيجعل هذه الفكرة حاضرة لديه دائما ، ويجدد مشاعره بهذه المعانى كل يوم .

حادث عثمان وأثره

لكن الحادث الذي هز نفسه من أعماقها ، بل زلزل وجدانه ، وأثر فيه أكثر من سواه — كان هو حادث مقتل الخليفة « عثمان » ، بما تقدمه وما قارنه ولحقه من أحداث . فان مقتل عثمان كان بمثابة صدمة له ، جعلته يراجع فكرته عن الناس والدنيا ، وتركت آثارا في نفسه لا تمحى . فانه اذا كان مصرع خليفة فاجعة بالنسبة للدولة والأمة ، فان مقتل الخليفة عثمان بالذات — بالنسبة له ولأسرته — كان فاجعة شخصية ، ومصيبة نزلت بأسرته وبيته . فقد كان عثمان أباهم وعمهم وعميد أسرته ، وكان العدوان الذي وقع عدوانا على كيان الأسرة ، وشرفها ومركزها .

شهد عند الملك هذا الحادث — الذي وقع في آخر عام ٣٥ هـ — وكان فوق العاشرة من عمره ، بل كان جاوز الحادية عشرة ، فكان عنده اذن من قوة الإدراك ما يجعله يفهم ما يدور حوله من أمور ، ويعرف أسبابها وما يترتب عليها . ولا بد أنه ظل منذ هذا الوقت يستوضح خفاياها ، ويزداد تفهما لحقائقها . ومن هذا الحادث ، وما أثر في وجدانه وما استنتج منه ، استنبط الدرس الذي آمن به ، ورسخ

فى ذهنه ورسب فى أعماق نفسه . كان هذا الدرس أو العبرة أنه اعتقد أن سبب هذا الذى حدث كله : سبب هذه الفاجعة أو الكارثة ، إنما هو اللين الذى أخذ به عثمان ، سياسة اللين أو الضعف أمام المهاجمين والناثرين . فلو كان عثمان أخذ هؤلاء المشاغبين المعتدين بالقوة والحزم ، لقمعهم وصرعهم ، وقضى على الفتنة فى مهدها ، ولما تطورت الأمور الى هذا الحد ، الذى أدى الى مصرعه . إذن فالشدة والحزم هما عماد السياسة ، وهما اللذان يحفظان الدولة . ولذلك فإنا سنرى هذا الدرس هو الذى سيكون القاعدة التى يبنى عليها عبد الملك سياسته ، حينما تشاء الأقدار أن تثول اليه مسئولية الخلافة ، ويجلس فى نفس المكان الذى كان يجلس فيه سلفه وعمه : الخليفة عثمان .

ولو كان عبد الملك لم يترك لنا أقوالا تبين رأيه ، لكان استنتاجنا هذا من ذاته موافقا للحقيقة . ولكن أثرت عن عبد الملك أقوال عبر فيها عن رأيه بوضوح ، وذلك فى حديث تاريخى جرى بينه وبين أحد معاصريه . فقد حدث أنه بينما كان عبد الملك فى الحج بمكة — وذلك بعدما تولى الخلافة — وهو جالس فى الحرم ، أن جرى حديث بينه وبين رجل من الأنصار ، اسمه ثعلبة بن مالك القرظى . ففى أثناء

هذا الحديث قال الرجل — وذلك بمناسبة خلاف حول حكم من أحكام العبادة — : « ليست سنة أحب اليّ من سنة عمر » — كأنه يلمح أنها تختلف عن سنة عثمان . فحينئذ قال عبد الملك ، رادا عليه : « رحم الله عمر . فعثمان كان أعلم بعمر . لو كان عمر فعل هذا لاتبعه عثمان ، وما كان أحد أتبع لعمر من عثمان . وما خالف عثمان عمر في شيء من سيرته الا باللين . فان عثمان لان لهم حتى ركب . ولو كان غلظ عليهم جانبه كما غلظ عليهم ابن الخطاب ، ما نالوا منه ما نالوا ! »

ثم استمر يقول ليبرر سياسة الشدة ، التي يتبعها في أثناء خلافته وفي عصره : « وأين الناس الذين كان يسير فيهم عمر بن الخطاب والناس اليوم ، يا ثعلبة ؟ ! . انى رأيت سيرة السلطان تدور مع الناس . ان ذهب اليوم رجل يسير بتلك السيرة ، أغير على الناس في بيوتهم ، وقطعت السبل ، وتظالم الناس ، وكانت الفتن . فلا بد للوالى أن يسير في كل زمان بما يصلحه ! » . وفي خطبة لعبد الملك أيضا ، حول هذا الوقت وهو في الخلافة ، أشار الى الخليفة عثمان — وهو يتحدث عن نفسه ، فقال : « أيها الناس : لست بالخليفة المستضعف ! » — يعنى عثمان . فهكذا آمن

عبد الملك بأن سياسة الضعف أو اللين تؤدي الى الاطاحة بالدولة ، أو تعرضها للأخطار — على حين أن سياسة القوة والحزم تحفظ كيائها ، وتصون بقاءها . وكان هذا هو الدرس الذي استخلصه من مقتل عثمان .

وشهد عبد الملك بعد مقتل عثمان اضطراب الأمور ، وبيعة على ، واختلاف الصحابة ، وخروج أبيه وبنى أمية الى مكة ، ثم الى البصرة حيث حدثت « موقعة الجمل » ، التي قاتل فيها أبوه وأصيب بجراح ، ثم عودة أبيه الى المدينة بعدما صالح عليا وبايعه . فقضت الأسرة منذئذ نحو خمس سنوات هادئة ، بعيدة عن التقلبات . وكانت خطة حكيمة من مروان أنه لم يشترك في النزاع الذي دار بين علي ومعاوية ، ولم يحضر صفين . وكفى نفسه وعائلته بذلك شرور الحرب والسياسة . وهكذا حتى عام ٤١ هـ .

في عهد معاوية

ففي ذلك العام بدأ عهد جديد . وهذا هو العام الذي أسماه المؤرخون : عام الجماعة . وذلك لأن الفتنة فيه انتهت ، واستقر أمر الخلافة لمعاوية . فبدأ منذ ذلك الحين عهده .

وكان معنى ذلك أن أمويًا آخر ، من نفس الأسرة ، وهو قريب لعثمان ومروان وعبد الملك ، قد جلس أيضا على عرش الخلافة ، فكان ذلك بشيرا بأن يعود حظ الأسرة ، وتشهد عهدا ثانيا من الرخاء والسيادة . لكن صلة معاوية بمروان وعبد الملك كانت أبعد درجة من صلة عثمان بهم ، لأن هذا من فرع وذاك من فرع — كما بيناه سابقا ، كما أن معاوية كان يخشى شيئا من المنافسة من جانب مروان . فاكتمى بأن عين مروان واليا على المدينة ، ثم على الحجاز . وكان في هذا ارضاء كاف له . وذلك في عام ٤٢ هـ .

وفي ذلك العام استؤنفت الفتوح ، واستعدت الدولة لغزو الروم . فجهزت سرية من المدينة تتوجه الى الشام ، لتشارك في غزو الروم بالبحر . وعين عبد الملك رئيسا لهذه السرية — وكان في بدء شبابه ، وغمره نحو الثامنة عشرة . فتوجه عبد الملك الى مقصده ، وركب البحر مساهما في الحملة . وكانت هذه أول تجربة له في الجهاد ، وتحدث عنها مرة في أخريات أيامه ، فقال : انها من أرجى الأعمال التي يرجوها عند الله .

ولبت أبوه واليا على المدينة حتى سنة ٤٨ هـ . وحدث أنه في سنة ٤٥ هـ أدركت المنية زيد بن ثابت الصحابي الجليل

— وكان رئيس ديوان المدينة اذ ذاك — فكتب مروان الى معاوية يستأذنه في تعيين عبد الملك رئيسا لهذا الديوان . فأجاب معاوية بالموافقة ، وعين عبد الملك رئيسا للديوان ، في مكان زيد الصحابي الجليل . وكانت هذه ثقة بعبد الملك واعترافا بجدارته . فظل على رئاسة هذا الديوان الى آخر مدة بقائه بالمدينة .

وهناك ما يدل على أن عبد الملك زار الشام ودمشق في عهد خلافة معاوية ، غير مرة . ففي أثناء هذه الزيارات شاهد دولة معاوية وشواهد عظمتها ، وحضر بعض مجالس الخليفة وتعرف الى شخصيته ، ورأى العاصمة التاريخية التي أصبحت معقلا للعروبة والاسلام ، وما فيها من مظاهر الحضارة والعمران ، ورأى الجيوش تجهز لغزو بلاد الروم أو للفتوح في المغرب أو في المشرق ، والأساطيل تعبأ لفتح القسطنطينية ، أو الاستيلاء على بعض جزر البحر الأبيض ، وكانت سبقت له تجربة الاشتراك معها . وهكذا اكتسب كل هذه التجارب ، واخترن ما التقط من دروس في عقله الباطن ، فكانت له ذخيرة قدر له أن ينتفع بها ، حينما شاءت ارادة الله أن تثول اليه هذه الدولة ، ويجلس هو في نفس مكان معاوية الخليفة الكبير .

عبد الملك وموقعة الحرة

ولما جاء بعد معاوية ابنه يزيد ، وحدثت هذه الأحداث المؤسسة التي بينهاها من قبل ، والتي هزت شعور المسلمين في جميع أنحاء الدولة ، كان عبد الملك لا يزال مقيما بالمدينة . ولم يشترك في أى من الأسباب التي أدت الى هذه الحوادث . ولكن أصابه وأسرتة منها الضرر ، حين ثار أهل المدينة وحاصروا بنى أمية في دار مروان ، وأخرجوا من المدينة ليعودوا مع الجيش القادم ، وحدثت موقعة الحرة (آخر سنة ٦٣ هـ) . وتفيد بعض الأقوال التي أثرت عن عبد الملك أنه لم يكن راضيا عن سياسة يزيد وأفعاله ، فقد وصفه في خطبة له — بعد أن تولى الخلافة — فقال عنه : انه « الخليفة المأفون » — والأفن هو ضعف الرأي وخطله . وحقا كاد يزيد أن يضيع الدولة ، التي بذل أبوه كل الجهود في بناء صرحها .

تذكر الأخبار هنا اسم عبد الملك في أثناء الحديث عن موقعة الحرة . .

وخلاصة هذه القصة — كما ذكرتها بعض الروايات — أن أهل المدينة يعد أن حاصروا بنى أمية وهددوهم ، عادوا

فأرأوا أن يكفوا عنهم وأخرجوهم من المدينة ، بعد أن أخذوا
عليهم العهود والمواثيق : أن لا يظاهروا عليهم عدوا ولا يدلوه
على عورة ، ولا يبعوهم غائلة . فأخرجوا من المدينة ، وساروا
حتى لقوا مسلم بن عقبة بوادي القرى قادما من الشام
بجيشه . فدعا بعمر بن عثمان أول الناس ، فقال له :
خبرني ما وراءك ، وأشر على . فقال لا أستطيع . قد أخذ
علينا العهود والمواثيق ، أن لا ندل على عورة ولا نظاهر
عدوا ، فانتهره وقال : والله لولا أنك ابن عثمان لضربت
عنقك ! . فخرج وأخبر أصحابه ، فقال مروان لابنه
عبد الملك : أدخل قبلي لعله يجتريء بك عني . فدخل
عبد الملك . فقال : هات ما عندك . فقال : « نعم . أرى أن
تسير بمن معك ، فاذا انتهيت الى ذى نخلة نزلت ، فاستظل
الناس في ظله فأكلوا من ثمره . فاذا أصبحت من الغد ،
مضيت وتركت المدينة ذات اليسار ، ثم درت بها حتى تأتيهم
من قبل الحرة ، مشرقا . ثم تستقبل القوم ، فاذا استقبلتهم
وقد أشرقت عليهم الشمس ، طلعت وراء ظهور أصحابك
فلا تؤذيهم ، وتقع في وجوههم فيؤذيهم حرها ، ويرون من
اقتلاق ييضمكم وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم
مالا ترونها أتم من سلاحهم ، ما داموا مغربين . ثم قاتلهم ،

واستعن بالله عليهم » . فقال له مسلم : لله أبوك ، أى امرئ ولد ! .

ثم ان مروان دخل عليه فقال له : ايه . فقال : أليس قد دخل عليك عبد الملك ؟ . قال : بلى ، وأى رجل عبد الملك ! — قلما كلمت من رجال قريش رجلا شبيها به . فقال مروان : اذا لقيت عبد الملك فقد لقيتني .

ثم ارتحل مسلم ، وصار ينفذ ما أمر به عبد الملك . فكان سببا فى اخراجه النصر فى الموقعة .

* * *

هذه هى القصة . ومفادها أن عبد الملك هو الذى وضع خطة الحرب لهذه الموقعة ، وتنفذها « مسلم » قائد الجيش : الشيخ الكبير المريض .

فإن صحت هذه القصة ، فأنما تشهد لعبد الملك بما كان يتمتع به من مواهب الذكاء وسداد الرأى والخبرة حتى بالحرب ، وعلى تقدير أبيه والناس له ، حتى ان القائد الكبير يصغى لقوله وينفذ رأيه . كما أن عبد الملك لو كان فعل ذلك لم يكن ليلا م ، لآته وأهله وقومه معتدى عليهم ، اذ أن أهل المدينة حاصروهم وكادوا أن يقتلوهم ، وأخرجوهم من وطنهم وديارهم . فكان عليه أن يساعد الجيش الذى

جاء لمناصرتهم ، ومقاتلة الذين اعتدوا عليهم ، واعادتهم الى وطنهم .

ولكن هناك ملاحظات لا بد من ابدائها . فهذه الرواية عن مصدر معين . ولكن هناك رواية أخرى للواقدي لم يذكر فيها هذه القصة ، وقال ان عبد الملك كان مجدورا : أى مريضا في هذا الوقت وفي أثناء الرحلة . وكل ما ذكره أن مروان وعبد الملك لقيا مسلم بن عقبة في الطريق فرجعا معه ، لكن عبد الملك تخلف في مكان على بعد اثني عشر ميلا من المدينة يسمى بذي خشب ، وذلك لمرضه ، فلم يرجع مع أبيه الى المدينة لحضور الموقعة ، ولكنه كان متلهفا على سماع خبر تبيجتها ، فأرسل رسولا لذلك ، فلما جاءه خبر نصر أهل الشام فرح بذلك كثيرا وشكر الله . فهل اذا كان مريضا بهذا المرض يدخل على مسلم ويحادثه الحديث السابق ؟ ثم هل خرج القائد الكبير من الشام على رأس جيش يبلغ عدده اثني عشر ألف مقاتل ، دون أن يضع خطة يعرف بها كيف يقاتل أهل المدينة ، فيضطر الى أخذ الخطة من الطريق ؟ . وماذا كانت خبرة عبد الملك إذ ذاك بأساليب الحرب ، وهو لم يشهد من قبل موقعة كبيرة ، وكان جل اهتمامه في هذا الدور موجهها الى مسائل الفقه والدين

أو الكتابة والادارة ، أكثر من غيرها ؟ . ثم كيف يجيز عبد الملك لنفسه — وهو الذى عرف بشدة تقواه وورعه فى هذا الوقت — أن يخالف العهود والمواثيق اذا كان أعطاها ؟ !

على كل حال — ومع ذلك — فإن القصة لا تبدو أنها مستحيلة . ويمكن تصديقها وقبولها ما دامت جاءت عن طريق رواة غير متهمين ، ورويت نصوص الأقوال بصورة ترجح صدقها . وهى — كما قلنا — تشهد لعبد الملك بسداد الرأى وقوة العقل وتفاذ الملاحظة ، ولكن على شرط أن تستبعد فكرة أنه كان حاضرا عند أخذ المواثيق ، وأنه أعطى عهودا على نفسه، بل يغلب أنه كان غائبا لمرضه . وحتى على فرض أنه ومن معه أعطوا عهودا ، فقد كانوا محاصرين وأعلنت عليهم الحرب ، وكانوا مجبرين على كل ما فاهوا به ، وهم يتعهدون لأعدائهم ضد مصلحتهم . فهل اذا لم يفوا بها يوجه اليهم اللوم ؟ على أننا مع ذلك نستبعد الفكرة من أساسها ، لأنها لا تتفق مع ما عرف عن عبد الملك فى هذا الدور من حياته ، وأجمعت عليه الأخبار : من الورع والتقوى والانصراف الى العبادة والتفقه فى مسائل الدين ، حتى عد ناسك بنى أمية وعالمها — كما سنشرحه الآن .

سيرة عبد الملك في المدينة

قضى عبد الملك أربعين عاما متوالية من حياته بالمدينة منذ ولد فيها (٢٤ — ٦٤ هـ) فلم يبرحها الا لزيارات موقوتة . فهو مدنى اذن ، وينبغى أن يعتبر من أهل المدينة . وكانت المدينة لا تزال عامرة بعدد غير قليل من الصحابة وعدد أكثر من التابعين ، فكانت لا تزال المركز الأول للثقافة الاسلامية ، والمصدر الأول للتأثير الروحى . واذا كانت قد فقدت كثيرا من أهميتها السياسية بعد انتقال العاصمة الى دمشق ، فانها مع ذلك لم تفقد أهميتها وقيادتها العلمية والروحية ، بل ان ذلك كان أدعى لأن تتفرغ لدراسة العلم وأداء رسالة الدين . فكانت الفرصة ميسرة اذن أمام عبد الملك — وقد أهله ذكاؤه واستعداده ونشأته لذلك — أن ينهل من هذا المورد السائغ الغزير . وقد أفاد عبد الملك من هذه الفرصة المائلة خير افادة ، ونهل من هذا المورد العذب ما شاء له جده أن ينهل ، وآكب على تحصيل العلم باجتهاد حتى نال من العلم بغيته ، وحتى وصل الى مستوى شهد له فيه بالتفرد والنبوغ ، وعد من رجال المدينة المعدودين .

وقد تأثر عبد الملك في نفس الوقت بالجو الروحي الذي عاش فيه في المدينة ، ولا سيما في بيئته الخاصة : حيث كان يرى عثمان مثله الأعلى ، ثم أباه مروان ، ثم زيد بن ثابت الذي كان مستشار عثمان ، والذي قال عبد الملك عنه فيما بعد : « نعم المشير كان للإسلام » — تأثر بهذا الجو ، حتى صار أيضا نموذجا فريدا من حيث العمل بأحكام الدين والتزام فضائله ، والعكوف على العبادة ، وشهد له أيضا بالنبوغ في ميدان الخلق الكريم ، والاجتهاد في العبادة .

وإذا كانت أكثر الأقوال التي سنذكرها تشهد له بالتفوق في هاتين الناحيتين : ناحية العلم الديني والأخلاق الفاضلة ، فالتا نرى أيضا أنه حصل على أكبر قدر ممكن من الثقافة العربية ، كما تدل على ذلك خطبه فيما بعد ورسائله ، وقوته على نقد الشعر ، ومناقشاته في مجالسه الأدبية مع العلماء والشعراء التي حفلت بها كتب الأدب والتاريخ . وقد جاءت بعض الأقوال شاهدة بذلك أيضا .

* * *

قال ابن سعد : أخبرنا الواقدي عن رجاله من أهل المدينة قالوا :

قد حفظ عبد الملك عن عثمان ، وسمع من أبي هريرة

وأبى سعيد الخدرى ، وجابر بن عبد الله ، وغيرهم من أصحاب رسول الله . وكان عابدا ناسكا قبل الخلافة .

وقال الذهبى — مؤيدا هذا القول وزائدا عليه — :
سمع عبد الملك من عثمان وأبى هريرة وأبى سعيد وأم سلمة وابن عمر ومعاوية .

وروى عنه (أى عن عبد الملك) عروة ، ورجاء بن حيوة ، والزهرنى ، ويونس بن ميسرة ، واسماعيل بن عبيد الله ، وطائفة .

وقال نافع : لقد رأيت المدينة وما بها شاب أشد تشميرا ولا أفقه ولا أنسك ، ولا أقرأ لكتاب الله ، من عبد الملك بن مروان .

وقال مالك : سمعت يحيى بن سعيد يقول : من صلى فى المسجد ما بين الظهر والعصر عبد الملك بن مروان وقتان معه . كانوا اذا صلى الامام الظهر قاموا فصلوا الى العصر .

وروى البلاذرى وصاحب الفخرى أن عبد الملك كان يقال له : حمامة المسجد ، لعبادته ومداومته تلاوة القرآن .

وقال أبو الزناد : كان فقهاء المدينة أربعة : سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وقبيصة بن ذؤيب ، وعبد الملك ابن مروان .

وقال الشعبي : ما ذاكرت أحدا الا وجدت لى الفضل
عليه الا عبد الملك بن مروان . فانى ما ذاكرته حديثا الا زادنى
فيه ، ولا شعرا الا وزادنى فيه . (والشعبى هو عالم العراق) .
وقال هو أيضا :

« وفدت على عبد الملك فما أخذت فى حديث أرى أنه
لم يسمعه الا سبقنى اليه . وربما غلطت فى الشيء ، وقد علمه
فيتغافل عنى تكرما » .

وجاء أناس الى عبد الله بن عمر يشكون بعض ولائهم
— وعبد الملك يصلى الى سارية بالمسجد — فأشار ابن
عمر اليه وقال : « لو وليهم عبد الملك هذا ما رضوا به » —
يضرب به المثل فى الفضل والصلاح .

وقال الأصمعى : أربعة لم يلحنوا فى جد ولا هزل :
الشعبى ، وعبد الملك بن مروان ، والخجاج بن يوسف ،
وابن القرية .

وكان عبد الملك بن مروان يخطب ، فسمعه رجل أعرابى
من البادية ، فسأله رجل من قریش : كيف ما تسمع ؟ فقال :
لو كان كلام يؤتد به لكان هذا .

وكان عبد الملك يوصى بنيه أن يحفظوا لغة العرب ،
وقال :

الله لا يلى العرب الا من يحسن كلامهم .

وقال الجاحظ : كان عبد الملك بن مروان سنان قرش
وسيفها رأيا وحزما ، وعابدها قبل أن يستخلف ورعا وزهدا .
وسطر ابن خلدون حكمه على عبد الملك فقال :
« وعبد الملك صاحب ابن الزير أعظم الناس عدالة .
وناهيك بعدالته احتجاج مالك بفعله ، وعدول ابن عباس
وابن عمر الى بيعته عن ابن الزير وهم معه بالحجاز » .
وفي موضع آخر قال : « فقد احتج مالك في الموطأ بعمل
عبد الملك » .

وقال أيضا عن أبيه :

« وأما مروان فكان من الطبقة الأولى من التابعين .
وعدالتهم معروفة » .

ولما كانت هذه صفات عبد الملك فانه نال اعجاب من
رأوه حتى في حدائته ، وتنبا له البعض بما يكون من مستقبله
وأنه سيصل الى مراتب السيادة .

حدث سعيد بن العاص فقال : كنت عند معاوية وعنده
عبد الملك ، فلما قام أتبعه بصره ، ثم قال : لله در هذا
الفتى ، ما أعظم مروءته ! .

وهذا الحديث روى في رواية أخرى بصورة أكمل : فقد
روى محمد بن اسماعيل المدني قال : جلس معاوية بن
أبي سفيان ذات يوم ومعه سعيد بن العاص ، فمر بهما

عبد الملك بن مروان . فقال معاوية : ما آدب هذا الفتى وأحسن مروءته ! فقال سعيد بن العاص : يا أمير المؤمنين ان هذا الفتى أخذ بخصال أربع وترك خصالا ثلاثا : أخذ بحسن الحديث اذا حدث ، وحسن الاستماع اذا حدث ، وحسن البشر اذا لقي ، وخفة المئونة اذا خولف . وترك من القول ما يعتذر منه ، وترك مخالطة اللئام من الناس ، وترك ممازحة من لا يوثق بعقله ولا مروءته .

وروى المدائني أن عثمان — رضى الله عنه — رأى عبد الملك فضمه اليه ، وقال : رأيتني أخذت برنسي فوضعتة على رأسه . وقد ولده أبو العاص مرتين . ولئن خرجت مني اليه ما ذاك كبير .

وقالت أم الدرداء لعبد الملك : ما زلت أتخيل هذا الأمر فيك منذ رأيتك ! قال : وكيف ذاك ؟ قالت : ما رأيت أعلم منك محدثا ، ولا أحسن منك مستمعا .

ودخل عبد الملك وهو شاب على أبي هريرة — رضى الله عنه — فقال أبو هريرة : هذا يملك العرب .

* * *

فهذا هو « عبد الملك بن مروان » .

وقد بقى في « المدينة » حتى بلغ أربعين سنة . ثم

اضطر هو وأسرته الى الهجرة الى الشام فى ربيع الآخر
عام ٦٤ هـ عند حدوث الفتنة ، واضطراب الأمر بالشام ،
وظهور عبد الله بن الزبير بمكة والحجاز ، وأمره باخراج
بنى أمية من المدينة — كما سبق أن شرحنا كل ذلك . فوصل
عبد الملك الى « دمشق » فى التاريخ المذكور ، رجلاً ناضجاً
كامل الثقافة كثير التجارب ، ولم يكن يدرى ماذا يكون
مصيره ومصير أسرته فى هذا المغرب . ولكن الله وحده كان
يعلم أنه ، بعد ستة أشهر فقط ، سينعقد « مؤتمر الجابية »
— الذى ذكرنا أمره فيما مضى — ويقرر بالاجماع انتخاب
« مروان » أباه خليفة على المسلمين ، وتقوم بذلك دولة
« آل مروان » بدمشق ، ويكون عبد الملك العضد الأيمن
والوزير لأبيه فى أثناء خلافته ، فيعينه نائباً عنه فى دار
الخلافة ، حينما خرج لفتح مصر ، ثم يعقد البيعة بالعهد له
عند عودته ، فلا يلقى الا قبولا وموافقة من الناس وذوى
الحل والعقد ، ثم يعينه أميراً على فلسطين ، ولو أنه لم يبق
فى ذلك الا مدة قصيرة .

ثم لا تكاد تمضى عشرة أشهر فقط على قرار مؤتمر
الجابية حتى يختار الله أباه الى جواره ، ويصبح عبد الملك
فيجد نفسه خليفة الاسلام والمسلمين ، وصاحب الدولة فى

دمشق — وذلك بعد سنة فقط وبضعة أشهر من قيامه من
المدينة منفيًا ، يواجه الصحراء الفسيحة ويواجه
المجهول !

بنو أمية والإسلام

بقيت هنا مسألة لا بد أن تناقشها .

وهي أنه ، بعد أن تبينت لنا هذه الحقائق ، وتتبعنا
سيرة هاتين الشخصيتين — وكل منهما صار بدوره خليفة
في الدولة الأموية — يتضح الفرق اذن جليا بين الحقيقة
التاريخية لهذه الدولة وفكرة كثير من الناس عنها . فكثير
من الناس يسيء تقدير الدولة الأموية ، ويحمل عليها وينظر
الى خلفائها ورجالها كأنهم لم يكونوا كثيرى الاهتمام بالدين
وأن غاياتهم كانت دنيوية أو نفعية أو نحو ذلك ، وبذلك
يخطئ هذه الدولة حقها ، ويقلل من الدور الذى أدته لخدمة
الدين والأمة الإسلامية .

لكننا قد رأينا — كما أوضحنا لنا الأدلة والأقوال
التاريخية — أن سيرة مروان ، وهو مؤسس الفرع الأكبر
من الدولة الأموية ، وسيرة ابنه عبد الملك — تثبتان عكس
ذلك . فقد ثبت أنهما كانا من التابعين ، وكان كل منهما مثالا

في الفضل والصلاح ؛ فالأول وهو مروان كان يقتدى بعمر وعثمان ، « ولم يخل قط بأحكام القرآن » . والثاني وهو عبد الملك وصل الى أن صار نموذجا يحتذى في الصلاح والتقوى وطلب العلم ، وبلغ من المكانة أن عد بين كبار فقهاء المدينة ، وقرن اسمه بأسماء سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير ، وغيرهما من أفذاذ علماء الصدر الأول .

وكذلك نشأ أولادهما الذين حكموا الدولة بعدهما نشأة فاضلة ، واتبعوا نفس النهج ، فكانوا من خيرة الخلفاء ، وحدثت في عهودهم الفتوحات العظيمة . وهم : الوليد ابن عبد الملك ، وسليمان وهشام أخواه . ثم نجيبه بيت مروان ، وقمتهم في التقوى والورع ، وهو عمر بن عبد العزيز ابن مروان . وحتى آخر خلفائهم — وهو مروان بن محمد — كان من أكفأ من تولوا حكم الدولة الإسلامية ، وكان قائدا قديرا ، ولكنه جاء في ظروف غير مواتية . فلا نستثنى إذن الا يزيد الثاني وابنه الوليد ، وهما لم يحكما الدولة أكثر من خمسة أعوام ونصف عام ، من مجموع المدة التي حكم فيها بيت « آل مروان » ، وقدرها سبعة وستون عاما .

بل اذا رجعنا الى الفرع الأول — ونعني به معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية كلها وابنه يزيد — فإنا

إذا فحينما سيرة يزيد جانباً — فماذا نجد من سيرة معاوية ؟
نجد أن معاوية كان من أجلاء الصحابة ، واختاره النبي عليه
الصلاة والسلام ليكون من كتابه ، وروى عن الرسول مائة
وثلاثة وستين حديثاً ، وروى عنه من الصحابة ابن عباس
وابن عمر والنعمان بن بشير ، وغيرهم . وشهد مع الرسول
موقعة حنين . ولم يثبت عليه بعد أن أسلم إلا ما يدل على
حسن إسلامه ورعايته لأداء واجباته وتدينه . بيد أن الذى
دعا فريقاً من الناس أن يقفوا منه موقفاً عدائياً هى مسألة
خلافه مع على — رضى الله عنه — والشأن الكبير الذى جرى
بينهما فى أثناء الفتنة . ولكن هذه كانت مسألة سياسية .
وكان الموقف شديد التعقيد يحتوى على عوامل كثيرة .
ولا يحتل المقام أن نشرح هنا هذا الموضوع ، فنكتفى بإيراد
رأى ابن خلدون ، فقد قال : « وغاية الخلاف الذى بين
الصحابة والتابعين أنه اختلاف اجتهادى فى مسائل دينية
ظنية . وهذا حكمه » . ثم بعد أن بحث وجوه الخلاف
وأدواره ، لخص حكمه الشامل ، فقال : « وإذا نظرت بعين
الانصاف عذرت الناس أجمعين » . فهذا هو حكم المؤرخ
المنصف الذى لا تؤثر عليه العاطفة .

ونقطة أخرى تحتاج أيضاً أن تجلّى الحقيقة عنها . وهى

أن كثيرا من الناس حين ينظرون الى رجال الدولة الأموية يغلب أن يكون حكمهم متأثرا بفكرة أن بنى أمية دخلوا الاسلام متأخرين . لكن هذه النظرة غير اسلامية ، كما أنها لا تلم بكل الحقائق . فينبغى أن نذكر أولا أنه دخل في الاسلام منذ بدء ظهوره عدد من بنى أمية . وفي كل دين وعقيدة لابد من سابقين ومتأخرين . وحين ظهر الاسلام كان في كل أسرة من هؤلاء وهؤلاء ، حتى في أسرة بنى هاشم . والأمثلة على وجود النوعين في كل الأسر كثيرة ، لا داعى لایرادها .

وانما الذى يجب أن يقرر أن النظرة الاسلامية الى هذا الأمر أن . نحكم بأنه متى دخل المرء في الاسلام فقد أنهى الاسلام ما قبله ومحاه . فهذه هي النظرة التى علمنا اياها الرسول عليه السلام نفسه ، وهذا هو حكمه المعصوم الحق . فانه لما جاء « عمرو بن العاص » — وكان قبل من زعماء قريش — لما جاء يسلم قبيل فتح مكة ، وقال : « يا رسول الله انى أبايعك على أن يتغفر لى ما تقدم من ذنبى » — قال له الرسول عليه الصلاة والسلام : « يا عمرو ، بايع . فان الاسلام يجتبى ما قبله » : أى يقطعه ويمحوه . ولذا لم يجد الرسول أى بأس فى أن يعينه — عقب اسلامه — أميرا

على جند المسلمين بأرض الشام ، وكان تحت امرته عدد من المهاجرين . ثم أسلم أيضا في السنة السابعة خالد بن الوليد فأصبح بعد قليل سيف الله وسيف الاسلام . ثم أسلم أبو سفيان بن حرب حين جاء في رفقة العباس بن عبد المطلب ، وأسلم ابنه معاوية . وأسلم أيضا الحكم بن أبي العاص أبو مروان . كما أسلم عند فتح مكة أكثر زعماء قريش . ثم دخل الناس في دين الله أفواجا . وهكذا كان شأن الاسلام في أول دعوته ، فهو دين جديد . ولا ينتظر أن يدخل الناس في دين جديد دفعة واحدة .

ولم يبد الرسول — عليه الصلاة والسلام — حين أقبل هؤلاء على الاسلام الا أنه كان فرحا باسلامهم ، بل كان يقابلهم فاتحا ذراعيه معانقا لهم . فهو كان نبيا ، رسالته أن يدعو الناس الى الاسلام والهدى ، فلا يفرحه مثل نجاح دعوته وانتشارها . وكان — صلى الله عليه — فوق نزعات البشر من الحقد أو الرغبة في الانتقام ، حتى بلغ من عفوه أن عفا عن « وحشى » قاتل عمه حمزه — حينما أسلم — وكان حمزة أحب الناس اليه ، ولم يحزن الرسول لموت أحد كما حزن عليه ! . ولما أسلم أبو سفيان أراد الرسول أن يكرمه ، فأمر أن ينادى في الناس — كما أشرنا اليه من

قبل — أن « من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن » . وحسن
اسلامه . فعقب ذلك خرج مع الرسول هو وابنه معاوية ،
فشهدا مع الرسول وقعة « حنين » . ثم اختاره الرسول
سفيرا الى ثقيف . كما اختار الرسول معاوية ليكون أحد
كتابه ، فحظى بصحبة الرسول ، وتعلم منه كل ما قوى
ايمانه وازداد هدى . وعندما فتحت مكة ولى الرسول عليها
أحد أفراد بنى أمية وهو « عتاب بن أسيد بن أمية »
— وكان ممن أسلموا يوم الفتح — فبقى في ولايته بقية
حياة الرسول ، ثم طوال عهد الخليفة أبي بكر .

ولما تولى الخلافة أبو بكر ، وفد اليه بنو أمية في لهفة
ليشتركوا مع اخوانهم في الجهاد ليعوضوا ما فاتهم من نصر
الاسلام واعلاء شأنه . فوجههم أبو بكر لحرب الروم في
الشام ، وعين يزيد بن أبي سفيان قائدا ، فاشتركوا في موقعة
« اليرموك » حتى حقق الله النصر للمسلمين .. وبعد الفتح
عين عمر « يزيدا » واليا على دمشق ، ثم عقب موته عين
أخاه معاوية ندلا منه . كما ولاه أيضا على الأردن ، حيث
عزل شرحبيل بن حسنة أحد كبار القواد ، فحين ذهب
شرحبيل مغضبا الى عمر ، يقول : « أعن سخطه عزلتني
يا أمير المؤمنين ؟ » ، قال له عمر : « لا . انك لكما أحب :

ولكنى أريد رجلاً أقوى من رجل ! » . وقاد معاوية جنده
فى فتح مدن سواحل الشام . ومعاوية هو مؤسس البحرية
الاسلامية فى عهد عثمان ، واستولى على قبرص ، وأوغل
فاتحاً فى بلاد الروم حتى وصل الى « عمورية » . ولبت
واليا على الشام نحو عشرين عاماً ، وهو يدير ولايته بكفاية ،
ومدافعا بقوة عن دولة الاسلام ضد الروم .

وهكذا صار معاوية من كبار رجال الاسلام ، وكتب
بنو أمية هذه الصفحات فى تاريخ الجهاد . أما مروان فلم تتح
له سنة أن يشترك فى هذه الحروب ، ولكنه لما بلغ دور
الشباب توجه فى عهد الخليفة عثمان للجهاد فى بعض الفتوح .
وكان هو بعد ذلك العضد الأيمن للخليفة فى إدارة شئون
الدولة الاسلامية . ووجدته ابنه عبد الملك فى هذا المنصب
الهام حين نشأ ، فأخذ يساعده فى بعض الأعمال . فكانت هذه
هى المكانة التى وصل إليها بنو أمية فى الاسلام ، حين حدثت
الفتنة وقتل الخليفة عثمان ، وظهر الخلاف الذى أحاطت به
ظروف قاسية ، فانقسمت الأمة ونشبت الحرب الأهلية
— كما يحدث فى تواريخ كثير من الأمم . وأخيراً انتهى
الموقف بأن بقى معاوية وتنازل له الحسن بن على ، فألت
إليه الخلافة . والتأمت كلمة الأمة فى عام الجماعة عام ٤١ هـ ،

وعادت الى الدولة وجدتها وقوتها . ومن ثم بدأ تاريخ الدولة
الأموية .

وبعد كل ، من ذا كان معاوية ومروان وبنو أمية ؟
لم يكونوا الا أبناء عمومة لعلى والحسن وبنى هاشم .
وقد شرحنا في الفصل السابق ما كان بين الهاشمين والأمويين
من علاقة ، وأنهم جميعا يلتقى نسبهم في عبد مناف ، فهم
أبناء عبد مناف . وقد بينا — فيما تقدم — ما كان من
صداقة بين حرب وعبد المطلب ، وبين أبي سفيان والعباس .
واذا رجعنا الى التاريخ القديم ، فإن الزعامة كانت أولا في
الجاهلية على قريش لهاشم بن عبد مناف ، ثم انتقلت
السيادة الى ابنه عبد المطلب ، وبقيت كذلك طوال حياته
لكن بعد أن توفي — وكان أولاده لا يزالون صغارا —
آلت الرياسة الى حرب بن أمية ، فنجد حرب بن أمية في حرب
النفجار — التي أشرنا اليها — هو قائد قريش ، ثم خلفه
ابنه أبو سفيان . ثم جاء الاسلام ، وشرف الله بنى هاشم
بالنبوة — وهى الشرف الذى ما فوقه شرف . فكان مما منع
بنى أمية من المبادرة الى قبول الاسلام الغيرة والأثرة
والكبرياء ، وأيضا الخوف على مصالحهم .

ثم ظهرت دولة الاسلام ، وأراد الله لهم الخير ، فهداهم

الى الدخول في دينه . فأسلموا ، وفرح الرسول باسلامهم .
فحسن اسلامهم ، وأخلصوا في الجهاد في سبيله : أسلم فرع
حرب ، وأسلم أيضا فرع أخيه أبى العاص . ومات أبو سفيان
مسلماً . وكذلك الحكم . وصار معاوية صحابياً ، ونشأ
مروان تابعياً . وكان مولد عبد الملك ونشأته كلها اسلامية .
وجاهدوا في الاسلام : في ميادين الحرب ، أو السياسة ،
أو العلم ، أو العبادة ، حتى أدركوا السابقين ، وحققوا لهم
مجدا في الاسلام . فانتقلوا من شرف في الجاهلية الى شرف
في الاسلام .

* * *

فهذه هي سيرة بنى أمية باجمال . ولما انتهت اليهم الدولة
بذلوا كل الجهد لاعلاء شأنها ، وفي الدفاع عن الاسلام
وأهله ، وسهروا على حفظ وحدة الأمة — التي هي الأساس
لبقاءها وتقدمها — وكان هذا أمرا شاقا عسيرا لا يقدر عليه
الا نوابغ السياسة والأقوياء من القادة . فأظهروا كفاية في
ذلك ، ونجحوا في الجملة اذا استثنينا العدد القليل الذين
استثنيناهم : وواصل خلفاء بنى أمية الفتوحات كما كانت
في عهد الخلفاء الراشدين ، ورفعوا أعلام الاسلام في كل
الجهات ، حتى كادوا أن يستولوا على القسطنطينية . وبدأت

في عهدهم النهضة العلمية والأدبية ، التي أزهرت وآتت ثمارها في العصر العباسي بعدهم . ووضعوا القواعد لنظام الدولة التي ورثها من جاء بعدهم ، فأمكن اذن استمرار الدولة .

فهذا هو موقف الدولة الأموية من الاسلام . فهي جزء لا يتجزأ من تاريخه ، وتاريخها استمرار لمجد الاسلام . وهو في الجملة مفخرة للاسلام . وهناك من استثنيناهم . وهناك طبعا للباقيين أخطاؤهم وما أخذهم ، وهل كانوا معصومين ؟ . أما مكانهم من العروبة : فكلهم من صميم العرب ، من صفوتهم ، وأرفع أنسابهم . فهم من قريش ، وذؤابة قريش عبد مناف . وهم أبناء عمومة بنى هاشم . فهم يمثلون مقدرة العرب وعبقريتهم : في السياسة ، والدين والحرب ، والادارة والثقافة — كما سيمثلهم أيضا بنو العباس من بنى هاشم . فالدولة الأموية جزء مجيد من تاريخ الاسلام والعرب معا . ونذكر قول الشاعر قيس بن الرقيات المعاصر لهم :

ما تقموا من بنى أمية الا أنهم يحلمون ان غضبوا
وأنتهم سادة الملوك ، فما تصدح الا عليهم العرب
وحيث كان « عبد الملك » من أحسن خلفائهم وأقواهم ،
وكان له فضل كبير في اتقاذ الأمة من موقف خطير مضطرب

اذ تمكن من اعادة وحدتها وتشبيد دولتها — فقد كان
جديرا أن تدرس حياته . وقد تتبعنا سيرته وسيرة أسرته
حتى تولى الخلافة . والآن نتابع هذه السيرة ، بعد أن آلت
اليه مسئوليات الدولة ، لنرى كيف واجه المصاعب وتغلب
عليها ، وكيف نجح في قيادة السفينة حتى أوصلها الى شاطئ
الأمان .

الفصل الخامس

ثورة الشيعة بالعراق

ألم تكن دولة « آل مروان » تتألف — كما ذكرنا ذلك من قبل — عندما تولى « عبد الملك » الخلافة في رمضان عام ٦٥ هـ ، إلا من الشام ومصر فقط . أما بقية الوحدة الإسلامية العربية الشاملة التي كانت تكون دولة كبرى من قبل ، فكانت موزعة بين طوائف أو أحزاب مختلفة ، كل منها يكون دولة أو ما يشبهها . وقد أوضحنا في الفصول الأولى من الكتاب الخطوط الرئيسية لهذه الصورة . ويلزم أن نعيد الآن إلى الذاكرة هيئة هذا التقسيم :

فكانت هناك دولة ابن الزبير التي أقامها في الحجاز ومركزها مكة — وذلك منذ وفاة يزيد بن معاوية في ربيع الأول سنة ٦٤ هـ . وكان العراق : البصرة والكوفة ، يدين له بالولاء ، وإن كان ولاء ظاهريا لم يتخذ جذورا عميقة . وكانت خراسان تعترف له بالولاء أيضا ، ولكنها كانت شبه

مستقلة تحت حكم متغلب عليها ، اسمه عبد الله بن خازم
السلمي ، من قيس . وولى ابن الزبير عماله على المدينة
والبصرة والكوفة والموصل ، وغيرها . وبدأت دولته أخطر
منافس للدولة الأموية بالشام .

غير أن هذه الدولة أصيبت أولا بضربة نافذة ، حينما
هزم الضحاك بن قيس في موقعة « مرج راهط » وقتل
ومن معه — وكان يدعو الى ابن الزبير في دمشق ويريد أن
يحول الشام اليه — ففضى اذن على هذا الأمل . ثم تلتها ضربة
أخرى ، حين خرج مروان ففتح مصر وضربها الى الشام .
وأخذت دولة آل الزبير تناوش دولة الشام ، فوجه عبد الله
أخاه « مصعبا » على رأس جيش ليغزو فلسطين ، في آخر
خلافة مروان ، فرده جيش من الشام على رأسه عمرو بن
سعيد بن العاص ، فعاد أدراجه الى الحجاز . وعلى الفور ،
أعد مروان جيشا قويا أمر عليه أحد قواده العرب واسمه
« حبش بن دلجة القيني » ووجهه الى الحجاز . فسار هذا
الجيش الى مقصده في أول خلافة عبد الملك ، في رمضان
سنة ٦٥ هـ . وسرى ماذا سيكون من مصير هذا الجيش ،
حينما يصل الى المدينة — فيما بعد . وهكذا بدأ عبد الملك
عهده ، والحرب دائرة بينه وبين دولة ابن الزبير : بين الشام
والحجاز .

وكانت هناك دولة ذات بأس للخوارج في « الأهواز »
— وهي اقليم من فارس الى الجنوب من البصرة — وهؤلاء
هم الخوارج « الأزارقة » ، الذين تبعوا مذهب نافع بن
الأزرق الحنفى — وكان زعيمهم وقائدهم — ولكنه قتل
في جمادى الآخرة عام ٦٥ هـ ، في قتال بينه وبين أهل
البصرة . فولى الخوارج عليهم قائدا آخر ، اسمه « عبيد الله
ابن بشير بن الماحوز » . لكن الخوارج كانوا يهددون العراق
وابن الزبير ، ولم يكونوا يهددون عبد الملك مباشرة ، غير
أنه سيضطر الى الالتقاء بهم ومواجهة قوتهم حينما يتمكن
بعد بضع سنين من ضم العراق ، فتكون مسألتهم إحدى
المشاكل الكبرى في دولته .

وفي شرق جزيرة العرب ، أو الخليج العربى ، تكونت
دولة ثانية لخوارج على مذهب آخر . كان زعيمهم أولا
يسمى : « أبا طالوت » ، ثم بايعوا لنجدة بن عطية الحنفى ،
وهو الذى لبث عدة سنين ، واتسعت الدولة فى أيامه حتى
شملت اليمامة والبحرين وعمان وحضرموت ، وحتى اليمن .
وسيكون عبد الملك مضطرا أيضا — فى المستقبل —
لمحاربة هذه الدولة ، بعد أن يكون هو حاكم العراق —
ويكون زعيم الخوارج عندئذ هو « أبو فديك » ، الذى
سيخلف « نجدة » .

ثم كانت هناك دولة الشيعة في العراق ، وهي لم تكن دولة بكامل الصورة ، ولكنها كانت قوة منظمة كبيرة يخشى بأسها ، أو حزبا له زعماءؤه وقواده وجيشه ، وقد أمكن أن يكون دولة بالفعل ، فيما بعد ، ولو لوقت قصير . وكان مركز حركة الشيعة في « الكوفة » ، التي استولوا فيها — عمليا — على الأمور ، وكانت لها فروع في « البصرة » و « المدائن » وغيرهما . وكان على رأس هذه الحركة عدد من أبطال العرب وأشرفهم .

وقد نضيف الى هذه الصورة أيضا ، لتكمل أجزاءها ، دولة صغيرة ، ولكن كان لها شأنها ولها أثرها . وهي دولة « زفر بن الحارث الكلابي » التي أوجدها في مدينة « قرقيسيا » في شمال الفرات على حدود الجزيرة . وكانت مدينة حصينة ذات قلعة وأبراج ، فأتى زفر بن الحارث واستولى عليها . وزفر هذا هو الذي كان أمير « قنسرين » في شمال الشام ، وكان يؤيد الضحاك بن قيس وابن الزبير ، لأنه من قيس ، ثم فر بعد موقعة « مرج راهط » فأتى هذه المدينة وتحصن بها . وقد بقيت هذه القوة شوكة في جنب دولة الشام ، وكانت عقبة لا يستهان بها في طريق جيوش الشام الى العراق . وما زال زفر متمنا وراء حصنه هذه

بجيشه من قيس ، فلم يمكن عبد الملك أن يتغلب عليه الا بعد عدة سنوات ، وكان ذلك بأن استنزله عن طريق الصلح . ولم يستطع عبد الملك أن يتوجه بقوة الكاملة الى العراق في المستقبل ، لينازل خصمه الرئيسي وهو مصعب بن الزبير أخو عبد الله ، الا بعد أن زالت هذه العقبة من طريقه ، وكان ذلك بعد سبع سنوات من تحصن « زفر » بتلك المدينة .

هبوب العاصفة على دولة الشام

كان هذا هو الوضع السياسى ، وهذا توزيع القوى داخل الدولة العربية الاسلامية ، فى أول عهد دولة « آل مروان » ، وعندما حمل عبد الملك مسئوليات الخلافة . فمن أى جهة كان سينبعث الخطر ، أو من أى أفق كانت ستهب العاصفة على هذه الدولة التى تكونت حديثا فى الشام ؟ . ان الذى كان يتوقع أن يجيئ الخطر من ناحية دولة آل الزبير فى الحجاز أو فى العراق ، لأنها كانت الدولة الأكبر : الأوسع حدودا ، والأكثر عددا ، أو من الخوارج لو أمكن أن يوحّدوا جهودهم مع ابن الزبير . لكن الخطر لم يأت من قبل هاته القوى . وانما هبت العاصفة الشديدة التى هزت الدولة فى أول عهدها من قبل الشيعة ، الذين

لم يكونوا دولة بعد : من مركزهم بالعراق . وبدأ هبوب العاصفة في عهد مروان ، ثم استمر في خلافة عبد الملك . ذلك لأن الشيعة كانوا أكثر الجماعات حماسا ، وكانوا أشد شعورا بالمرارة ، بل بالحنق على دولة بني أمية ، اذ كانت عدوهم الأول ، وهي التي كان لها معهم تاريخ طويل منذ الخلاف بين علي ومعاوية ، ثم ارتكبت تلك الجريمة التي لا تغفر ، وهي قتل « الحسين » .

وقد أشرنا من قبل الى أن مقتل الحسين كان فاجعة ، أدمت قلوب المسلمين وهزت مشاعرهم في كل الأنحاء ، وكان أثرها أعمق وأشد — بوجه أخص — في نفوس الشيعة . فهم كانوا أنصار أيه ، وكانوا يعقدون على الحسين آمالهم ليقم دولتهم ، وبه ينتصرون على خصومهم . والى جانب شعورهم بالحزن كان هناك شعور بألم ممض من وخز الضمير وأسف وحسرة ، لأنهم تخاذلوا عن الحسين ولم يهبوا لنصرته ، بعد أن دعوه واستخرجوه من موطنه ، فكأنهم كانوا السبب في قتله وفي كل ما حدث .

مقتل الحسين : من المسئول ؟

وحادث مقتل الحسين معروف . ويتلخص في أن أهل الكوفة — بعد أن تولى يزيد بن معاوية الخلافة في

سنة ٦٠ هـ — بعثوا رسائل عديدة الى الحسين ، يدعوه الى القدوم اليهم ، ويستحثونه الى الاسراع في ذلك ، حيث أخبروه أنهم مهدوا كل شيء لمبايعته ، وعند قدومه يهبون للاستيلاء على الكوفة . ولما كان الحسين قد امتنع عن مبايعة يزيد ، وتوجه الى مكة معزلاً ، وكان يعتقد أن يزيد غير كفء لتولي منصب خلافة المسلمين ، وليس له الحق في ذلك ، اذ أن أهل البيت هم الأحق بخلافة الرسول ورعاية الأمة بعده — لما كان الأمر كذلك ، وجاءته هذه الدعوات — فقد رأى أن هذا هو نداء الواجب ، ويتعين عليه أن ينهض لتليته .

فعزم على التوجه الى الكوفة . ثم خرج الى الكوفة مع أهل بيته وعدد قليل من أنصاره . وفي الطريق — ولما صار غير بعيد من الكوفة — جاءته الأخبار بأن الأمور تغيرت فيها . فقد عين واليا عليها « عبيد الله بن زياد » ، وقدم اليها من البصرة ، واستطاع أن يقبض على مسلم بن عقيل : ابن عم الحسين ، الذي كان أرسله ليمهد له الأمر ، وقتله . وأعد جيشاً وأرسله ليقا تل الحسين أو يأسره .

ولما تيقن الحسين من خذلان أهل العراق له ، عرض على قائد الجيش القادم وابن زياد عروضاً ثلاثة ، كل منها

كان يقدم حلا عادلا منصفاً للموقف : فاما أن يتركوه يرجع الى مكة وبذلك تنتهى الأزمة ، واما أن يدعوهم يذهب الى يزيد — وهو ابن عمه — فيضع يده فى يده ويفاوضه ، واما أن يترك يتوجه الى أحد ثغور المسلمين ليشارك معهم فى الجهاد . وكل حل من هذه كان عادلا ومعقولا . ولكن ابن زياد رفضها جميعا . وأصر على أن يسلم الحسين نفسه وينزل على حكمه ، أو يقاتلوه .

فهذا كان منتهى الجبرية والطغيان . وهو الغشم بعينه والخرق وسوء السياسة وعدم النظر للعواقب . فحتى اذا قال قائل : ان الحسين كان خارجا على الدولة ، وأن الدولة كان لها الحق أن تدافع عن نفسها — وهى وجهة نظر ترد عليها اعتراضات قوية كثيرة ، منها أن هناك حق الثورة على الدول الظالمة أو غير الشرعية — حتى اذا قيل ذلك ، فلم يكن هناك مبرر على الاطلاق ، أو داع من وجهة نظر الدولة نفسها ، لمقاتلة الحسين — وقد عرض عليهم أن يتخلى عن الأمر ويعود من حيث قدم ، أو يذهب الى وجه آخر — لكنه الطغيان والجهل . وكيف كان يعقل أو يتصور أن الحسين : ابن الامام على وابن بنت رسول الله عليه الصلاة والسلام — ينزل على حكم ابن زياد ، وهو ابن مرجانة — كما

كان أهل البصرة يدعونه — وأبوه زياد بن سمية ، على ما هو معروف ؟ ! وأليس الحسين هو سبط « محمد » الرسول الذى أسس الدولة كلها ، التى أصبح لابن زياد وأبيه فيها شأن وصاروا يرتعون فيها ويمرحون ؟ !

ثم من كانوا يريدون أن يقاتلوا ؟ لم يكن مع الحسين إلا سبعون أو ثمانون رجلا يدافعون عنه ، ومعه أهل بيته من نساء وأطفال صغار مما يدل على نيته السلمية ، على حين أن الجيش الذى يواجهه والذي أرسله ابن زياد بلغ خمسة آلاف ! فأى معركة غير متكافئة ! وأى معركة يظهر فيها الجبن والخسة والندالة — وذلك من جانب جموع ابن زياد الكثيرة — مثل هذه المعركة !

لقد أظهر الحسين عليه السلام بطولة وشجاعة قلما سجل مثلها التاريخ . رفض أن يستسلم ، وقاتل ، على أن نتيجة المعركة كانت معروفة ، وأظهر استعدادا للشهادة فى سبيل عقيدته ، واحتقاره لأمر الدنيا . وقتل — رحمه الله — شهيدا كريما يعجب به معاصروه ويثنى عليه الأجيال . وظل قدوة ومثالا عاليا لمن يجاهد فى سبيل ما يعتقد أنه الحق ومن يتحدى الظالمين وقوتهم . وقد استشهد به فيما بعد

مصعب بن الزبير حين ظل يقاتل في عدد قليل رافضا
الاستسلام ، فقال :

وان الألى بالطف من آل هاشم

تأسوا ، فسنوا للكرام التأسيا

والطف هو الموضع الذى قتل فيه الحسين ، قرب
كربلاء . كذلك ضرب الذين دافعوا عن الحسين وقاتلوا معه
أعلى المثل : فى الشجاعة والنبل والوفاء وقوة الايمان
— فعليهم رحمة الله . فهذه المعركة أو الملحمة التى خلدت
بطولة الحسين وأنصاره فى التاريخ ، كانت فى الواقع أشبه
بمذبحة أو مجزرة — نظرا لتفوق جنود ابن زياد فى العدد
والعدة ، فوق كل نسبة معقولة . وقد تجلت فيها من جانب
أولئك الجنود — وآمرهم — روح الوحشية والغلظة ،
والاستهتار بسفك الدم .

فالمسئولية الأولى والاثم الأكبر فى هذه المذبحة تقع على
عاتق ابن زياد ، لأنه مدير هذا الأمر كله وهو الذى رفض
عروض الحسين . والتاريخ يستنكر كل ما فعله ، ويذمه أشد
الذم ، ويدمغه بالبغى والطغيان . ويشترك معه فى المسئولية
قائد جيشه الذى قبل أن يقوم بهذه المهمة الدنيئة ، وهو
عمر بن سعد بن أبى وقاص . وبئس الخلف للسلف أو الابن

لأبيه . ثم الجنود الذين نفذوا أوامرهم في غير ما رحمة ،
وكان لهم مندوحة أن يناووا عن ذلك ، أو ينضموا إلى جانب
الحسين ، كما فعل الحر بن يزيد التميمي القائد الأول الذي
أرسله ابن زياد ، ثم رأى أن ابن زياد وصحبه قد اعتدوا
وطغوا حين رفضوا عروض الحسين المنصفة ، فتحول إلى
معسكر الحسين، وقاتل معه حتى قتل شهيدا — رحمه الله
وكان على رأس الجنود المذكورين الذين باءوا بالاثم من
يدعى : « شمر بن ذي الجوشن » و « سنان بن أنس
النخعي » وغيرهما من جفاة الأعراب القساة ، غلاظ الأكباد.
أما مسئولية يزيد فما هي وما قدرها ؟ . لو ثبت أنه كان
أصدر أمره بقتل الحسين أو برفض العروض التي قدمها ،
لكان هو المسئول الأول قبل أي شخص ، لأنه هو رئيس
الدولة ، وال خليفة . ولكن ليس لدينا ما يثبت ذلك . والمراجع
التاريخية لا تذكر ما يدل على ذلك . بل الذي تذكره أنه
حين علم بوقوع الحادث عبر عن عدم رضاه ثم تعددت
تصريحاته باستنكار ما حدث ، ولوم ابن زياد على ما فعل .
فقد روى الطبري وابن الأثير أنه لما جاء رسول ابن زياد
إلى يزيد يبشره بالخبر — روى حينئذ ما يلي : « قدممت
عينا يزيد ، وقال : قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل

الحسين . لعن الله ابن سمية ! أما والله لو أنى صاحبه لغفوت عنه . فرحم الله الحسين » — قالوا : « ولم يصله » — أى الرسول الذى جاء بالخبر — « بشيء » ! . وهذا التصريح يعبر عن حقيقة شعور يزيد . وكل تصريحاته أيدت ذلك . وقد أحسن استقبال بيت الحسين ، فلما رأهم قال : « قبح الله ابن مرجانة ! لو كانت بينه وبينكم رحم أو قرابة ما فعل هذا » . ولما أدخل النساء دار يزيد « لم تبق من آل معاوية وآل يزيد امرأة الا استقبلتهن تبكى وتنوح على الحسين . فأقاموا عليه المناحة ثلاثا . وكان يزيد لا يتغدى ولا يتعشى الا دعا على بن الحسين اليه » . ثم أمر بأن يوصل أهل البيت بكل اكرام الى المدينة ، وظل يكرمهم ويبرهم بعد ذلك . نعم ، فهذه الأقوال والأفعال تدل على أن يزيد لم يأمر بقتل الحسين ، ولم يعلم بكل ما حدث الا بعد وقوعه . والمعقول أن ابن زياد فعل كل ذلك عن تصرفه وبرأيه ، لأن الأمور جرت فى بضعة أيام ، ولم يكن هناك وقت لبعث الرسل الى الشام وعودتهم ، للاستشارة . والمتبع أن الوالى فى العراق أو الأقاليم النائية كان مفوضا ، وكان يتصرف مستقلا لبعد المسافة . فكان ابن زياد بالكوفة ويزيد فى دمشق . والذى يستنتج أن ابن زياد أراد أن يبرهن ليزيد

على شديد طاعته ، ويقدم له الدليل على تفانيه في خدمته ،
وبراعته في حسم الموقف . ولكن خاب فأله ! فما كان يظن أنه
في الحقيقة انما يقضى على يزيد بهذا ، ويهدم دولته .
على أن كل هذا لا يرىء يزيد من المسؤولية . فما جدوى
الندم واظهار الأسف بعد حدوث الكارثة ؟ انه كان يجب
على يزيد أن يصدر تعليمات واضحة الى نائبه ابن زياد
ويحذره من أن يقدم في تصرفه الى حد قتل الحسين . كان
يجب أن يكون بعيد النظر ويتوقع هذا ويقدر العواقب ،
لكنه لم يفعل وترك الأمور تسير الى أن انتهت بهذه
الفاجعة . فهو يتحمل المسؤولية على كل حال مع ابن زياد —
باعتباره — أى الأول — هو رئيس الدولة المسئول عن كل
شئ وعما يقع من نوابه . ولكنها ليست مسؤولية الاشتراك
في الفعل أو الإيعاز به ، ولكن مسؤولية ضعف الرأى
وقصر النظر وسوء السياسة . وهذا هو الذى عناه عبد الملك
بن مروان ، حين تحدث — فى وقت بعد هذا — ووصف
يزيد بأنه « الخليفة المأفون » : والأفنى هو ضعف الرأى
وخطئه . ولا يظن بيزيد غير هذا فانه كان بينه وبين الحسين
رحم ، وكان أبوه معاوية قد أوصاه عند موته ، فقال له :
« وأما الحسين بن على فان له رحما ماسة وحقا عظيما ،

وقرابة من محمد صلى الله عليه وسلم . ولا أظن أهل العراق
تاركيه حتى يخرجوه ، فان قدرت عليه فاصفح عنه . فاني
لو أني صاحبه عفوت عنه .

وقد أخذ يزيد يتبين سوء عواقب ما حدث . فروى أنه
كان يقول ، وهو يذكر الحادث آسفاً : « وما كان عليّ
لو احتملت الأذى ، وأنزلته معي في داري وحكمته فيما يريد ،
وان كان عليّ في ذلك وكف ووهن في سلطاني — حفظاً
لرسول الله صلى الله عليه وسلم ورعاية لحقه وقرابته . لعن
الله ابن مرجانة . فانه أخرجه واضطره ، وقد كان سأله أن
يخلي سبيله ويرجع فلم يفعل ، أو يضع يده في يدي ،
أو يلحق بشعر من ثغور المسلمين حتى يتوفاه الله عز وجل ،
فلم يفعل . فأبى ذلك ورده عليه وقتله . فبغضني بقتله
الى المسلمين ، وزرع لى في قلوبهم العداوة ! فبغضني البر
والفاجر ، بما استعظم الناس من قتلى حسين . مالى ولا ابن
مرجانة ! لعنه الله ! » . وغضب عليه : أى على ابن زياد .

فهذا هو ملخص الحكم في القضية ، وهو أن المسئول
الأول — المسئولية الحقيقية المباشرة — هو « عبيد الله بن
زياد بن أبيه » الذى كان والى العراق في ذلك الوقت . ولكن
فعله حمل الدولة كلها مسئولية ما حدث ، وقطع ما بينها وبين

الناس من صلة ، وزرع لها في قلوب الناس العداوة والبغضاء
وأثار حزنا لاعجا وثورة ملتهبة ، وحنقا على الدولة في
قلوب الشيعة خاصة .

الثورة الأولى

« حركة التوابين »

فصلنا القول عن هذه المأساة لأنها ظلت الحقيقة الكبرى
التي تسيطر على الموقف السياسي في العراق ، لعدة سنوات
بعد ذلك . وكان لها صداها الداوي في الحجاز أيضا ،
وسائر أنحاء العالم الاسلامي . لكن أثرها الأكبر والمباشر
كان عند الشيعة .

وقد بينا من قبل أنه — فوق شعورهم بالحزن العميق
لقتل امامهم ومن معه من آل بيت علي — كان هناك شعور
بالحسرة والندم ، لأنهم تخاذلوا وقعدوا عن نصره الحسين ،
بعدهما دعوه اليهم وأخرجوه ، فكأنهم أسلموه الى أعدائه ،
وكانوا السبب في قتله . فشعروا بفداحة خطيئتهم ، ورأوا
أنه لا يكفر عن سيئتهم ولا يحقق توبتهم الا أن يهبوا للطلب
بدم الحسين والأخذ بثأره ، حتى يقتلوا من قتله أو يقتلوا هم
في سبيل ذلك . فاجتمع الشيعة ونظموا صفوفهم . وكان

شعارهم الذى يتنادون به : « يالشارت الحسين ! » .
فهؤلاء هم « التوابون » — كما عرفهم التاريخ — وهذه
هى حركتهم . وقد اتخبوا لهم زعيما وقائدا يحاربون تحت
لوائه سيذا جليلا من أبطال العرب كان من أنصار
على ، هو « سليمان بن صرد الخزاعى » ، كما كان بجانبه
بطل آخر من أشراف مضر هو « المسيب بن نجبة الفزارى » ،
وآخرون من أمثالهما .

كان بعض هؤلاء الشيعة يرون أن الواجب أن يستولوا
أولا على « الكوفة » ، ويأخذوا بثأر الحسين من قاتليه فى
المصر نفسه . لكن سليمان لم يكن يرى هذا الرأى ،
وأخبرهم بأن هذا انما يؤدى الى حرب أهلية ، فيجدون
أنفسهم يحاربون أهليهم واخوانهم . وانما عدوهم الأول
هو الذى قرر الحرب ، وعبأ الجيش وأرسله لقتال الحسين
— وهو عبد الله بن زياد — ثم دولة بنى أمية بالشام ، التى
كان ابن زياد يمثلها . فاذن يجب أن يوجهوا حربهم الى
هؤلاء . وكان من نص كلام سليمان أن قال لهم : « لكن
أنا ما أرى ذلك لكم . ان الذى قتل صاحبكم وعبأ الجنود
اليه ، وقال لا أمان له عندى دون أن يستسلم ، فأمضى فيه
حكى — هذا الفاسق ابن الفاسق : ابن مرجانة : عبيد الله

ابن زياد . فسيروا الى عدوكم على اسم الله . فان يظهركم الله عليه رجونا أن يكون من بعده أهون شوكة منه ، ورجونا أن يدين لكم من وراءكم من أهل مصركم في عافية ، فتنتظرون الى كل من شرك في دم الحسين فتقاتلونه . وان تستشهدوا . فانما قاتلتهم المحليين . وما عند الله خير للأبرار والصادقين » . فوافقوه جميعا على هذا الرأي . واتفقوا على أن يسيروا بجيشهم لقتال ابن زياد ومن معه من أهل الشام .

* * *

كان بعيد الله بن زياد قد وصل الى الشام — كما أوضحنا من قبل — واشترك في المداولات السياسية ، وسعى جهده حتى قامت دولة بنى أمية ، ثانية، في الشام . ولما كان أول آماله — أى ابن زياد — أو أعظم ما يهمله ، هو أن يتمكن من العودة الى العراق ليسترد ملكه ، فقد أعد هو ومروان جيشا كبيرا ليسيروا به لفتح العراق . وجه مروان هذا الجيش في ربيع الآخر سنة ٦٥ هـ . وعين عليه قائدا ابن زياد ، وأمره أن يسير أولا لاختضاع الجزيرة ، ثم بعد ذلك يتوجه جنوبا لفتح العراق . فسار الجيش ، ومعه نخبة أبطال أهل الشام وقوادهم . ورأى مروان — بعد أن انتهى من ذلك — أن يسير بجيش آخر أقل من الأول ، لأخذ مصر

حيث كاتبه أهلها . وترك وراءه في دمشق ابنه عبد الملك ،
نائبا عنه ليصرف شئون الخلافة .

بذا أصبحت الحرب مقررة بين أهل العراق وأهل
الشام : بين قوة شعية ليست دولة ، لا يخضعون لأمر
أو خليفة ، ولكن ينادون باسم آل البيت عامة ، وبين دولة
بنى أمية في عهدها الجديد في عهد مروان وعبد الملك .
وهكذا — كما تحدثنا من قبل — كانت أول عاصفة هبت
على دولة آل مروان ليست آتية من جهة آل الزبير ، أو من
قبل الخوارج ، ولكن قادمة من جهة الشيعة . وستظل
العاصفة في هبوبها عامين آخرين .

* * *

هذه العاصفة أو الثورة كانت — كما شرحنا — بسبب
مقتل الحسين . لكن مروان وابن عبد الملك وآل بيتهم
كانوا في الحقيقة أبرياء من دم الحسين ، ولم تكن لهم أية
علاقة بمسأله — كما أوضحنا ذلك قبلا — فقد كانوا
بغيدين عنها ، معزولين عن الحكم مقيمين في المدينة . وروى
عنهم من الأقوال ما يدل على استنكارهم للحادث . وكانت
علاقاتهم بعلى والحسن والحسين وعلى بن الحسين ودية
وطيبة ، أو على الأقل محايدة . ولكن هكذا قدر لهم أن

يتحملوا ، من الوجهة السياسية ، تبعة النتائج التي ترتبت على الحادث . ذلك لأنهم ورثوا دولة بنى أمية في عهد السابق ، وورثوا معها أخطاءها ونتائج أعمالها . وكان مما ورثوا كراهية الناس للدولة ، بل حنقهم عليها — ولا سيما من الشيعة . قدولتهم كانت استمرارا للدولة الأموية ، ومقرها واحد ، وجيشها واحد بالشام . وكانت أقوى علاقة وأوضح مظهر يربط الدولة الجديدة بالدولة السابقة ، هو عبيد الله ابن زياد نفسه ، ووجوده في دولة الشام وهو لا يزال من أكبر عمدتها وأظهر أقطابها . فما دام موجودا ، فهو يثير الغضب ضد الدولة في نفوس أهل العراق .

موقعة « عين الوردة »

وفي الموعد الذي حدده سليمان (وهو أول ربيع الثاني ٦٥ هـ) تجمع الشيعة وعسكروا بالنخيلة ظاهر الكوفة . ولما تهيأوا للمسير ، قام فيهم سليمان خطيبا فقال لهم : « أيها الناس : من كان انما أخرجته ارادة وجه الله وثواب الآخرة ، فذلك منا ونحن منه . ومن كان انما يريد الدنيا وحرثها ، فوالله ما نأتى فينا نستفيئ ولا غنيمة نغنمها . وما معنا من ذهب ولا فضة ، وما هو الا سيوفنا في عواتقنا ورماحنا في أكفنا .. » .

فتنادى أصحابه من كل جانب : « انا لا نطلب الدنيا
وليس لها خرجنا . انما خرجنا نطلب التوبة والطلب بدم
ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم » .
وفي اليوم الخامس من الشهر سار سليمان بجيشه
متوجها الى الجزيرة . وبدأوا أولا بالذهاب الى قبر الحسين ،
فلما انتهوا اليه صاحوا صيحة واحدة وبكوا ، فما رأى يوم
كان أكثر باكيا منه . وظلوا يقولون : « اللهم ارحم حسيننا :
الشهيد بن الشهيد ، المهدي بن المهدي . اللهم انا نشهدك
أنا على دينهم وسبيلهم ، وأعداء قاتليهم وأولياء محبيهم » .
وأقاموا عنده يوما وليلة ، ثم ودعوه واتجهوا الى غايتهم
قاصدين الموصل والجزيرة . وساروا حتى أتوا « قرقيسيا »
وهم على تعبئة . فلما علم بهم « زفر » خرج اليهم وأكرمهم ،
وقدم اليهم كل ما يحتاجون اليه من مؤن . ثم أخبرهم بقدم
جيش الشام ، عليه عبيد الله بن زياد ، وفيه الحصين بن نمير
وقواد الشام ، وقد جاءوا في عدد كثير « مثل الشوك
والشجر » . وعرض عليهم أن ينضموا اليه ليقاتلوا معا
جيش الشام حينما يقدم عليهم . لكن سليمان أبى ذلك
وخرج بجيشه حتى انتهى الى موقع يقال له : « عين
الوردة » .

وفي ذلك المكان التقى الجيشان ، ودارت موقعة « عين
الوردة » . وذلك في الأسبوع الأخير من جمادى الأولى
سنة ٦٥ هـ . وكان التوابون فدائيين — كما عرفنا — قد
نذروا أنفسهم لله ، وخرجوا لا يرجون شيئا أفضل من
الشهادة في سبيل قضيتهم ، أو يأخذوا بثأر الحسين من
قاتليه . وكانوا كلهم فرسانا أبطالاً . فمع قلة عددهم وعدتهم
ظلوا يقاتلون قتال الأبطال كأنهم في ملحمة ، واستطاعوا أن
يحققوا في أول المعركة نصرا كبيرا . ولكن أهل الشام تكاثروا
عليهم ، واستمر القتل في الجانبين .. واستمرت المعركة عدة
أيام استشهد فيها « سليمان بن صرد » و « المسيب بن
نجة » ، وأكثر التوابين . وفي اليوم الأخير استطاع أحد
قوادهم — وهو رفاعة بن شداد البجلي — أن ينسحب
تحت ستار الظلام بمن بقي ، عائدا الى الكوفة .
انتصر جيش الشام ، ولكن بعد أن أثخن بالقتل
والجراح ، وأصيب بخسارة عاقته عن التقدم لفتح العراق .
لكن بقي ابن زياد حيا . ووردت أخبار الانتصار على
« عبد الملك » في دمشق — وكان نائب الخليفة ، وممثل
الدولة التي كان جيشها يحارب — فقام ييثر الناس بالخبر
وخطب خطبة سياسية ، ذكر فيها من قتل من زعماء الشيعة

ووصفهم بأنهم كانوا « دعاة فتنة ورءوس ضلالة » . وهذا طبعى ، فهم كانوا خصومه السياسيين وكانوا يريدون هدم دولته .

والناظر الى أمر التوابين لا يملك الا أن يلاحظ أنه — مع الاعجاب ببطولتهم وفدائيتهم فى الآخر ، والنعى عليهم لتقاعدهم عن نصره الحسين فى الأول — أنه من المستغرب أن يتركوا قتلة الحسين الحقيقيين — وهم أهل العراق — وراء ظهورهم فى الكوفة ، ويذهبوا لمقاتلة أهل الشام ، وهم أبرياء من دم الحسين — ما عدا رأس الضلال عبيد الله بن زياد — على أنه كان عندهم من قبل ، فلم يقتلوه . لكن وجهة النظر التى أخذوا بها أنهم اعتبروا الدولة نفسها هى المسئولة ، فيجب محاربتها — وبخاصة ما دام فيها عبيد الله بن زياد .

الثورة الثانية

« حركة المختار »

ولما عاد رفاة الى الكوفة بالفيل الذى بقى منه من التوابين ، وصلته رسالة من زعيم شيعى آخر كان فى السجن اذ ذاك ، يقول فيها : « أما بعد ، فمرحبا بالعصبة الذين

عظم الله لهم الأجر حين انصرفوا ، ورضى فعلهم حين قفلوا .
أما ورب البيت ما خطا خاط منكم خطوة ولا رقى ربوة
الا كان ثواب الله له أعظم من ملك الدنيا . ان « سليمان »
قد قضى ما عليه ، وتوفاه الله فجعل روحه مع أرواح الأنبياء
والصديقين والشهداء . ولم يكن بصاحبكم الذى به
تنصرون . انى أنا الأمير المأمور ، والأمين المأمون ، وأمير
الجيش وقاتل الجبارين ، والمنتقم من أعداء الدين ، والمقيد
من الأوتار . فأعدوا واستعدوا ، وأبشروا واستبشروا .
أدعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه ، والى الطلب
بدماء أهل البيت ، والدفع عن الضعفاء ، وجهاد المحلين .
والسلام » . فمن هو هذا الزعيم ؟

هذا هو « المختار بن أبى عبيد الثقفى » . وهو ابن
أبى عبيد أحد قواد المسلمين فى عهد عمر فى فتح بلاد الفرس .
وكان المختار من زعماء الشيعة بالكوفة واشترك فى دعوة
الحسين ، فقبض عليه ابن زياد وزج به فى السجن . ثم أطلق
سراحه على أن يرحل من الكوفة ، فقدم الى مكة وبقي حتى
اشترك مع عبد الله بن الزبير فى الدفاع عنها وقتال جيش
الشام . وقد سجل بطولة فى هذه المعارك . وكان فى أثناء
مقامه بمكة على اتصال بمحمد بن على (وهو المعروف بابن

الحنفية) — وكان هذا قد صار امام الشيعة بعد مقتل أخيه الحسين . وعزم المختار على أن يقوم بالدعوة الى محمد هذا وآل البيت ، ويخرج ليطالب بدم الحسين . وأراد أن يتحالف مع ابن الزبير ليستعين بقوته وثقوته في العراق ، ولكن ابن الزبير كان لا يريد أن يخدم قضية غيره .

فبعد موت يزيد وهرب ابن زياد ، عزم المختار على العودة الى الكوفة . وكان يسأل الناس عن أحوال أهل العراق ، فسأل أحد القادمين : كيف حالهم ؟ فقال له : « هم كغنم ضل راعيها » ! فقال المختار : « أنا الذي أحسن رعايتها وأبلغ نهايتها » . فقدم المختار الى الكوفة في منتصف رمضان عام ٦٤ هـ . وخطب الناس فقال لهم : « ان المهدي ابن الوصي — محمد بن علي — بعثني اليكم أمينا ووزيرا ، ومنتخبا وأميرا . وأمرني بقتال الملحدين والطلب بدماء أهل بيته ، والدفع عن الضعفاء » . فانضم اليه عدد كبير من الشيعة وهم الذين كانوا تخلفوا عن سليمان . وبعد أن خرج سليمان بجيشه في وجهته التي ذكرناها الى الجزيرة في خلال عام ٦٥ ، خلا الجو للمختار ففكر في بدء اعلان الثورة بالكوفة . ولكن علم بأمره الوالي من قبل ابن الزبير ، فسجنه . وكان الناس يزورونه في السجن فيقول لهم :

« أما ورب البحار ، والنخيل والأشجار والمهامه والقفار ،
والملائكة الأبرار والمصطفين الأخيار ، لأقتلن كل جبار ، بكل
لدن خطر ومهند بتار ، في جموع من الأنصار .. حتى اذا
أقمت عمود الدين ورأيت شعب صدع المسلمين ، وشفيت
غليل صدور المؤمنين ، وأدركت بثأر النبيين ، لم يكبر على
زوال الدنيا ، ولم أحفل بالموت اذا أتى ! » . ثم شفع فيه
صهره عبد الله بن عمر فأفرج عنه .

بعد خروج المختار من السجن وعودة « التوابين » ،
اجتمعت اليه كل الشيعة . وجد هو في اعداد الجند والسلاح
ليبدأ ثورته في الكوفة . وكان أهم ما قوى مركزه أنه نجح
في ضم أحد الزعماء الى صفه وهو « ابراهيم بن الأشتر »
— وهو رئيس عشيرة ذات عز وعدد، وبطل مغوار في ميادين
الوغي — وهو ابن مالك الأشتر الذي كان في مقدمة أصحاب
علي . لكن ابراهيم لم يبايعه الا بعد أن سلم اليه المختار
كتابا على لسان محمد بن علي يدعوه فيه الى اجابة المختار ،
ويعده اذا نصر الدعوة بأن « تكون له أعنة الخيل وكل
جيش غاز ، وكل مصر ومنبر وثمر ظهر عليه ، فيما بين الكوفة
وأقصى بلاد الشام » .

وأخيرا ، اجتمع رأيهم على أن يخرجوا ويبدأ ثورتهم في

ليلة الخميس الرابع عشر من ربيع الأول وذلك سنة ٦٦ هـ :
(أى فى عهد خلافة عبد الملك بن مروان) . ففى تلك الليلة
خرجوا . وبعد موقعة عنيفة ذات تقلبات ومفاجآت — وكان
جنده ينادون بشعارهم : « يالثرات الحسين ! » — تم
النصر للمختار على عامل ابن الزبير الذى تفى بعد ذلك ،
واستولى المختار على الكوفة . فبذلك أقام دولة للشيعة .
وكانت دولة جديدة ، تضم الى الدول الأخرى المتنازعة
فى العالم العربى الاسلامى . ودعا المختار الناس الى البيعة ،
فأقبلوا يبايعونه . وكانت صيغة البيعة : « تباعك على
كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والطلب
بدماء أهل البيت ، وجهاد المحلين والدفع عن الضعفاء ، وقتال
من قاتلنا وسلم من سالمنا ! » . ولما كانت الكوفة عاصمة
العراق فكان معنى ذلك أن المختار والشيعة قد استولوا
على العراق — ما عدا البصرة — فأرسل عماله اذن على
النواحي : على الموصل وأرمينية وأذربيجان والمدائن ،
وجهات السواد ، أى : العراق .

مصرع قتلة الحسين

نجح المختار فى اقامة الدولة ، وبقي تحقيق غايته . وما
غايته الا أن يأخذ بثأر الحسين وينتقم من قاتليه ، ويشفى

صدور شيعة أهل البيت . وكبير قاتلى الحسين وآله هو عبيد الله بن زياد . ثم يليه من نفذ أوامره واشترك فى قتل الحسين ، وهم كثير من أهل الكوفة . فما ان استقر له الأمر ، حتى شرع يعد الجيش ليرسله لمقاتلة ابن زياد وأهل الشام . وفى هذه الأثناء يتحين الفرصة أو الوقت المناسب ، لينقض على قتلة الحسين بالكوفة .

وكان عبد الملك ، وهو الخليفة فى دمشق — — ومعه ابن زياد يشير عليه ويحرضه — قد عزم على فتح العراق فى ذلك الوقت .

فأرسل عبد الملك جيشا كبيرا تحت قيادة عبيد الله بن زياد ، لهذا الغرض . وكم كان ابن زياد يتوق ويتحرق شوقا للعودة الى العراق . كذلك كانت دولة الشام تعلق أهمية كبيرة على المعركة القادمة ، وتنظر اليها على أنها ستكون موقعة حاسمة . فوصل الجيش — وعلى رأسه ابن زياد — الى أرض الموصل . فتخلى له عامل المختار على الموصل عن المدينة ، وانسحب الى تكريت . فاحتل ابن زياد الموصل ، وأخذ يستعد للزحف جنوبا .

فلما بلغت الأنباء المختار ، انتدب أحد كبار قواده وهو يزيد بن أنس الأسدى — واتخبوا ثلاثة آلاف من خيار

الفرسان ، وتوجه الجيش لمقاتلة ابن زياد . فلما وصل الخبر ابن زياد ، قال : لأبعثن الى كل ألف ألفين . فأرسل قائدين كبيرين من قواده ، مع كل منهما ثلاثة آلاف . ودارت الموقعة قرب الموصل ، في يوم عرفه سنة ٦٦ هـ والأضحى بعده ، واشتد القتال . وانجلى المعركة عن قتل قائد ابن زياد ، وانهزام أهل الشام ، وحوى جنود المختار من الشيعة عسكرهم ، وقتلوا في أهل الشام قتلا ذريعا .

فبعد أن استقر الأمر للمختار في العراق نادى مناديه : « من أغلق بابه فهو آمن ، الا من شرك في دماء آل محمد صلى الله عليه وسلم » . وأحضر اليه بعض الأسرى ، فقال : انظروا من شهد منهم قتل الحسين فأعلموني . فقتل كل من شهد قتل الحسين . وتجرد المختار لكل من شرك في دم آل البيت ، وقال : « ما من ديننا ترك قتلة الحسين أحياء في الدنيا آمنين . بثس ناصر محمد أنا اذن في الدنيا . أنا اذن الكذاب — كما أسموني . واني أستعين بالله عليهم . فسموهم لي ثم اتبعوهم حتى تفنؤهم . فاني لا يسوغ لي الطعام ولا الشراب حتى أطهر الأرض منهم » !

وهكذا أخذوا يتتبعون قتلة الحسين . وكان لكل منهم

قصة :

فأما عمرو بن الحجاج الزبيدي — وكان ممن شهد قتل
الحسين — فركب راحلته، وذهب في طريق الصحراء ،
فلم يسمع عنه خبر بعد ذلك .

وأما شمر بن ذي الجوشن — وكان أول من حمل على
الحسين وحرّض الناس عليه حتى قتل — فهرب . فأتبعه
المختار غلاما له ، فاستدرجه شمر وقتله . فطارده رجال
المختار بالخيول ، حتى أدركوه مختبئا في قرية ، فقاتلهم
فقتلوه . ثم رموا جثته للكلاب .

وبعث المختار فأحضر رجلين من قتلة الحسين كانا مختفين
في القادسية — هما مالك بن نسير البدي وعبد الله بن
أسيد الجهني — فلما رآهما قال : يا أعداء الله ورسوله ،
أين الحسين بن علي ؟ أدوا إلى الحسين . قتلتم من أمرتم
بالصلاة عليهم . فقالوا : رحمك الله بعثنا كارهين ، فامنن علينا
واستبقنا . فقال لهم : هلا منتتم على الحسين : ابن بنت
نبيكم ، فاستبقيتموه وسقيتموه . فأمر بهم فقتلوا . وجيء
بشفر غيرهم ، فلما رآهم قال : يا قتلة الصالحين ، وقتلة
سيد شباب أهل الجنة ، قد أقاد الله منكم اليوم . لقد
جاءكم الورس في يوم نحس (وكانوا نهبوا من ورس كان مع
الحسين) . وأمر بهم فأخرجوا إلى السوق وضربت رقابهم .

وهكذا ظل المختار يتتبع قتلة الحسين حتى استأصل أكثرهم — وكان على رأس من قتل عمر بن سعد الذى كان قائد الجيش الذى أرسله ابن زياد لقتال الحسين — وبعد أن أتم مهمته كتب الى محمد بن على بمكة يهنئه ، ويقول له : « الحمد لله الذى قتل قاتليكم ونصر مؤازريكم » . وكان المختار كأنما أرسله الله ليأخذ بثأر الحسين ، ومن قتل معه . وكان هو يشعر كأنه ملهم أن يفعل ذلك ، وتنبأ به . ومكنه الله من ذلك حتى نفذ غايته ، وجاءت الأحداث مصدقة لما تنبأ به .

لكن بقى رأس الاثم كله ، وهو كبير قاتلى الحسين — وهو عبيد الله بن زياد — فماذا سيكون شأنه ؟ . هذا ما سيتبين الآن .

معركة فاصلة ومصرع ابن زياد

ما كاد المختار يفرغ من أمر ثورة الكوفة ، حتى أرسل قائده ابراهيم بن الأشتر — ثانية — مع جيشه الى الشمال ، لملاقاة ابن زياد الذى وصل الى أرض الموصل ، ومقاتلته . فخرج ابراهيم بسبعة آلاف . وفى الطريق ضم اليه الجيش الذى كان مع يزيد الأسدى ، فأصبح جيشه حوالى عشرة

آلاف . وكان عدد جيش ابن زياد أكبر من ذلك بكثير .
وأُسرع إبراهيم السير ، وخلف وراءه أرض العراق وأوغل
في أرض الموصل ، حتى بلغ نهر « الخازر » من فروع دجلة .
وأقبل ابن زياد ، حتى نزل قريبا منهم على شاطئ هذا
النهر . ولم يضع إبراهيم وقتا في المطاولة ، فعزم على المبادرة
إلى الهجوم .

وفي يوم الموقعة ، عبأ إبراهيم جيشه منذ الفجر ، ووضع
الأمرأ في مواضعهم ، ودعا بفرس له فركبه ، ثم مر على
أصحاب الرايات كلها ، فكلما مر على راية وقف عليها ،
ثم قال :

« يا أنصار الدين ، وشيعة الحق ، وشرطة الله . هذا
عبيد الله بن مرجانة : قاتل الحسين بن علي ، ابن فاطمة بنت
رسول الله — الذي حال بينه وبين بناته ونسائه وشيعته وبين
ماء الفرات أن يشربوا منه ، وهم ينظرون إليه ، ومنعه أن
يأتي ابن عمه فيصالحه ، ومنعه أن ينصرف إلى رحله وأهله ،
ومنعه الذهاب في الأرض العريضة ، حتى قتله وقتل أهل
بيته . فوالله ما عمل فرعون بنجباء بنى إسرائيل ما عمل ابن
مرجانة بأهل بيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا — قد جاءكم

الله به وجاءه بكم . فوالله انى لأرجو أن لا يكون الله جمع بينكم فى هذا الوطن وبينه الا ليشفى صدوركم بسفك دمه على أيديكم . فقد علم الله أنكم خرجتم غضبا لأهل بيت نبيكم » . وهكذا سار فى الناس كلهم فى الميمنة والميسرة ، فرغبهم فى الجهاد وحرصهم على القتال . ثم رجع حتى نزل تحت رايته . وأمر الناس بالزحف .

فتقدم اليهم جيش ابن زياد ، وكان معه من كبار القواد الحصين بن نمير السكونى وقد جعله على ميمنته ، وعمير بن الحباب السلمى وقد جعله على ميسرته ، وشرحبيل بن ذى الكلاع الحميرى وقد جعله قائد الخيل . والتحم الجيشان . ودارت الموقعة بالقرب من نهر الخازر وهى من المواقع الهامة الحاسمة فى التاريخ . ففى بدء القتال انتصر الحصين ، وهزم ميسرة ابراهيم . فأخذ الراية أحد أبطال جيش العراق ، واستقبل المنهزمين وقال لهم : الىّ يا شرطة الله . فأقبل اليه أكثرهم . فقال : هذا أميركم — يعنى ابن الأشر — يقاتل ابن زياد ارجعوا بنا اليه . فرجعوا ؛ واذا ابراهيم كاشف رأسه ينادى : الىّ شرطة الله ، أنا ابن الأشر . ان خير فراركم كراركم ؛ ليس مسيئا من أعتب . فرجع اليه أصحابه . ثم حملت ميمنة ابراهيم على ميسرة

ابن زياد ، فلم تستطع التقدم . فحمل ابراهيم على القلب وقال اقصدوا هذا السواد الأعظم ، فوالله لئن هزمناه لانجفل من ترون — يمنية ويسرة — انجفال طير ذعرت . فحملوا عليهم وحمى القتال ، وثار الرهج فلا تسمع الا وقع الحديد . وكان صوت الضرب به كصوت القصّارين . وكان ابراهيم يقول لصاحب رايته : تقدم وانغمس برايتك فيهم . فاذا تقدم شد ابراهيم بسيفه فلا يضرب رجلا الا صرعه . وكرد ابراهيم الرجال بين يديه كأنهم الحملان .

وهكذا اشتد القتال . فانهزم أصحاب ابن زياد واختلت صفوفهم وعمدوا الى الفرار . فتبعهم أصحاب ابراهيم بن الأشتر . فكان من غرق في نهر الخازر ودجلة أكثر ممن قتلوا . واستولوا على معسكرهم وفيه من كل شيء . وهكذا تم النصر الكامل لجيش العراق : جيش الشيعة والمختار . وقيل انه كان من أسباب النصر أن عمير بن الحباب السلمي — صاحب ميسرة ابن زياد — انهزم بالناس ، على اتفاق بينه وبين ابن الأشتر — وذلك انتقاما لقتلى قيس ، الذين قتلوا في موقعة مرج راهط . ونادى : يا ثارات قيس . وكان عمير قيسيا .

وعندما انجلت الموقعة وأخذوا يتفقدون القتلى ، قال

ابراهيم : يا قوم ، قتل رجلًا وجدت منه رائحة المسك ،
شرقت يدها وغربت رجلاه ، تحت راية منفردة على شاطئ
نهر خازر . فبحثوا عنه فاذا هو عبيد الله بن زياد ، قتيلا .
ضربه فقدم بنصفين : فذهبت رجلاه في المشرق ، ويداه في
المغرب . فأخذوا رأسه . وأحرقت جثته بالنار . ووجد أنه
قتل في هذه الموقعة الحصين بن نمير ، وشرحيل بن
ذى الكلاع ، وغيرهم : من كبار قواد جيش الشام .

أقام ابراهيم بالموصل ؛ وبعث برأس عبيد الله بن زياد
الى المختار ، ومعه رؤوس قواده . فألقيت في القصر .
فرؤى أن جاءت حية دقيقة ، تخطت الرؤوس ، حتى دخلت
في فم عبيد الله بن زياد ثم خرجت من منخره ، ودخلت في
منخره وخرجت من فيه — فعلت هذا مرارا . وبعث المختار
برأس ابن زياد الى المهدي محمد بن الحنفية ، وعلى بن
الحسين ، وسائر بنى هاشم . فلما رأى على بن الحسين
— وكان بالمدينة — رأس عبيد الله هذا ترحم على الحسين ،
وقال : سبحان الله . ما اغتر بالله الا من لم يعرف نعمته !
أتى عبيد الله برأس الحسين وهو يتغدى ، وأتىنا برأس
عبيد الله بن زياد ونحن نتغدى ! . ولم يبق من بنى هاشم
أحد الا قام بخطبة في الثناء على المختار والدعاء له ، وجميل

القول فيه . وكان ابن عباس يقول : أصاب بئارنا ، وأدرك
وغنمنا ، وآثرنا ووصلنا . فكان يظهر الجميل فيه للناس .
وقد حدثت موقعة الخازر في يوم عاشوراء من المحرم
سنة ٦٧ هـ ، في يوم ذكرى مقتل الحسين . فقتل ابن زياد
في نفس اليوم . فسبحان المنتقم الجبار .
فالآن ، وقد حقق الشيعة هذا النصر الباهر ، وهزموا
ابن زياد وقتلوه ، كما قتلوا أو شردوا كل من اشترك في دم
الحسين ، فقد أخذوا اذن بئار آل البيت كاملا وثأرهم ،
وبذلك يكونون قد أدركوا غايتهم وشفيت صدورهم ، وحن
الوقت لكى تهدأ ثأرتهم . فمقتل ابن زياد وهزيمة جيشه
يعد نهاية المأساة التى بدأت منذ حدث مقتل الحسين . وقد
ظل العراق مضطربا طوال هذه المدة ، وكم جرت أحداث
ووقعت حروب .

هزيمة أم نصير؟

أما هزيمة: «يوم الخازر» من وجهة نظر بنى أمية
وعبد الملك ، فقد كانت كارثة بالنسبة لهم ! لقد تبدد جيش
الشام ومزق شذر مذر ، وقتل كثير من كبار قواده . فلا بد
أن الخبر حين وصل الى عبد الملك بالشام كان وقعه أليما

أشد الألم ، وشعر هو بالأسى أعمق الشعور . لكن الرواة أخبرونا أن عبد الملك كان يتمتع بصفة الجلد والصبر ، وكان من النوع الذى لا تزغزعه الشدائد . على أنه فى الحق لم يكن هو ولا أهل الشام يستحقون هذه الهزيمة ، اذ لم تكن لهم علاقة بمقتل الحسين الذى قتله أهل العراق . ولكن وجود ابن زياد بينهم وقائدا لجيشهم كان هو سبب هذه الكارثة التى حلت بهم . وكان من أهم نتائج موقعة الخازر أن عبد الملك عرف أنه لا يستطيع أن يستولى على العراق . لعهد غير قصير بعد ذلك . وفعلا تأخر فتح العراق خمس سنوات كاملة ، ولم يقم عبد الملك بمحاولته التالية الا بعد مضى هذه المدة ، وبعد أن تغيرت الأحوال ، واتخذ هو اجراءات جديدة .

ومن جهة أخرى : كان ينبغى لعبد الملك أن يحمى نتيجة المعركة التى قتل فيها ابن زياد . فقد كانت قمة ، لكنها فى الحقيقة تنطوى على نعمة . اذ أنه كان من صالحه وخيرا له أن يتخلص من ابن زياد — ذلك الرجل المكروه — ومن تاريخه البغيض . ولا شك أن عبد الملك ودولته بدأ عهدا جديدا بعد نهاية هذا الرجل . ولا بد أن الناس بدأوا ينظرون اليه والى دولته نظرة جديدة ، خالية من شعور الضغن . لقد

كان ظل ابن زياد الأسود يغطي شخصية عبد الملك . فحيث زال هذا الظل ، أخذت الصورة تبدو وهي صورة الرجل العاقل الرشيد الحاكم القدير ، وعابد الأُمس العارف بدين الله ، والبريء من أوشاب العهد السابق . فكانت صورة لا تخلو من جاذبية . ويمكن أن تبعث الأمل لتحقيق وحدة الدولة المرجوة .

لكن هذه الوحدة ما كانت لتتم الا بعد أحداث ومعارك وأهوال . فلتنتجها الآن لشهد هذه المعارك .

الفصل السادس

صراع بين القوي

هل كان يمكن أن تعيش الدولة العربية الاسلامية وهي متفرقة منقسمة الأجزاء ، وموزعة بين قوى مختلفة ينازع بعضها بعضا ؟ . لقد خلقت هذه الدولة واحدة . وصنعت تاريخها وهي واحدة ، ورسالتها واحدة ، وعدوها واحد فاذن يجب أن تعود واحدة ، ولا يمكن أن تعيش على غير ذلك . لم يكن أحد في ذلك العصر — وهو العصر الذي نشب فيه النزاع بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير على الخلافة ، وحدث الخلاف بين الفرق المتباينة — لم يكن أحد يعتقد غير هذا ، أو يتصور أنه يمكن غير هذا .

بيد أنه ما كان أحد ليستطيع أن يتنبأ كيف أو متى تتم هذه الوحدة ، وعلى يد من سيكون تحققها . ان كل شيء كان يتوقف على نتيجة المعارك ، التي كانت تدور رحاها في أنحاء الدولة . ولم يكن هناك سبيل الى الوحدة غير

النضال في ميدان الحرب . فقد اختلفت وتباعدت المذاهب السياسية ، التي كان يظن أنها تتفرع عن الدين . وكانت الحرب تدور في جبهات متعددة . فهناك الحرب أو الخروب بين الشام والحجاز ، وهناك الحرب بين الشام والعراق ، وهناك الحرب بين الحجاز والعراق ، وهناك الصراع في داخل العراق نفسه بين أحزابه المتعارضة ، وهناك النضال بينه وبين قوى منه خرجت عليه ووشنت عليه أعنف الهجمات ، وهكذا . فلكي تكون الصورة كاملة عن العصر وأحداثه السياسية ، ينبغي أن نلقى نظرة على كل من هذه الجبهات ، لنرى سير المعارك ، وكيف دار الصراع بين القوى المتباينة .

بين الشام والحجاز

فأما بين الشام والحجاز : فانه في نفس الوقت الذي كانت تدور فيه الحرب بين الشام والعراق — التي بينا أمرها في الفصل السابق ، وذكرنا أنه حدثت فيها موقعتان هامتان ، هما : موقعة عين الوردة . (جمادى الأولى ٦٥ هـ) ، ثم موقعة نهر الخازر (أوائل المحرم سنة ٦٧ هـ) ، وقد انتصر جيش الشام في الموقعة الأولى ، وإن كان أصيب بخسارة

كبيرة ، لكنه دحر وتبدد في الموقعة الثانية وقتل قائده عبيد الله ابن زياد — وكان هو المشرف على هذه الحملات كلها في هذه المرحلة — تقول : في نفس الوقت الذي كانت فيه هذه الحروب تجرى — وكانت في الأكثر حربا بين الدولة الأموية والشيعة من أهل العراق — في نفس هذا الوقت ، كانت الحرب تدور رحاها أيضا بين الشام والحجاز ، وهي المعركة المباشرة بين عبد الملك ومنافسه على الخلافة ، وهو « عبد الله بن الزبير » : خصمه الرئيسي

* * *

وكان عبد الله بن الزبير هو الذي بدأ المناوشة . فقبل تولية عبد الملك — وكان أميرا على فلسطين في ذلك الوقت — وجه ابن الزبير جيشا على رأسه أخوه « مصعب » — كما أشرنا الى ذلك من قبل — لغزو الشام من جهة فلسطين ، فخرج عبد الملك ومعه عمرو بن سعيد بجيشهما ، فصداه وقاتلاه قبل أن يدخل فلسطين ، فعاد أدراجه الى الحجاز .

وعلى الفور ، جهز مروان جيشا — أو كان هو أعده من قبل — عدده سبعة آلاف ، وولى قائدا عليه « حبيش ابن دلجة القينى » ، ووجهه الى الحجاز للاستيلاء على

المدينة ثم مكة . لكن مروان توفي قبل أن يصل « جيش »
الى مقصده . فحصلت الحرب بين قوات ابن الزبير
في عهد عبد الملك ، في أول خلافته .

وقعة عند المدينة

سار الجيش دون أن يلقي مقاومة ، حتى صار على مقربة
من المدينة . وكان ابن الزبير — حين علم بقدومه — أرسل
الى عامله على البصرة وهو « الحارث بن أبي ربيعة »
يستنجده ، فوجه اليه جيشا نحو ثلاثة آلاف . وفي نفس
الوقت ، أرسل جيشا من عنده ليشتبك مع العدو ، حتى
تصل الجيوش الأخرى . لكن هذا الجيش هزم وبدد ،
ودخل جيش بن دليجة « المدينة » — وكان ذلك في رمضان
سنة ٦٥ هـ — فنزل دار مروان . وخطب على منبر رسول
الله صلى الله عليه وسلم قدم أهل المدينة ، لأنهم — كما
قال — خذلوا أمير المؤمنين عثمان ، وبالجملة أظهر الشدة
نحوهم .

ثم بلغه خبر مقدم جيش البصرة ، وعلى رأسه « الحنظل
ابن السجف التميمي » . فأشار على « جيش » أصحابه
أن لا ينتظروا ليقاتله في المدينة ، لأن أهلها سيثورون عليه

وأن الأولى أن يخرج ليقابله قبل أن يدخل المدينة . فخرج
بأكثر جيشه ، والتقى الجيشان في مكان اسمه « الرَبْدَة »
من ضواحي المدينة . فهذه الموقعة تسمى اذن : موقعة
« الربذة » . وفي أول الموقعة ، كان النصر من نصيب
الشاميين على أهل البصرة . لكن « الحننف » كان قد أعد
كمينا نحو ألف فارس ، في منخفض من الأرض . ففي أثناء
القتال فاجأوا أهل الشام ، فلم يشعر أولاء الا والقوم من
ورائهم ، وقد أحيط بهم . فانهزم أصحاب جيش في كل
وجه ، وقتل جيش بن دلجة عند حوافر الخيل ، وتفرق
أصحابه هارين الى الشام . وفي رواية أن سبب قتل
جيش بن دلجة يوم « الربذة » أن يزيد بن سياه الأسواري
« رماه بسهم » فقتله . فلما دخل المنتصرون المدينة — وكان على
يزيد هذا ثياب بيض — اسودت ثيابه ، من كثرة ما مسح
الناس به وصبوا عليه من الطيب !

واستقبل أهل المدينة قائد جيش البصرة عند دخوله
المدينة بالأسارى أكبر استقبال ، وفرحوا به ، وجعل قوم
يقولون : ليس هو الحننف ، انما هو الحنف . ذلك لأن
أهل المدينة اعتبروا هذه الموقعة أخذا بثأرهم مما جرى لهم
في « موقعة الحر » ، التي حدثت قبل نحو عامين .

ومما ذكره الرواة هنا أنه كان بين الهارين العائدين
الى الشام يوسف بن الحكم الثقفى : أبو الحجاج ، وابنه
الحجاج — وكان هذا فى شبابه — فأردف يوسف ابنه خلفه
على فرسه . وكان الحجاج — فيما بعد — يقول : ما أقبح
الهزيمة ! لقد كنت ورجل آخر — يعنى أباه — فى جيش
حيش بن دلجة فانهزمتنا ، فركضنا ثلاثين ميلا ، وأنه ليخيل
الينا أن رماح القوم فى أكتافنا !

* * *

وهكذا ، وصل خبر الهزيمة الى عبد الملك — وكان
ذلك فى مطلع خلافته — فلأبد أن شعر بغير قليل من الحزن .
وكان هذا الحادث حريا أن يلقى فى نفسه شعورا من اليأس .
لكن عبد الملك كان فى سن ناضجة ، وكان كبير الثقة فى
نفسه ، وكما عترف — بعد أن اختبرته الحوادث — كان
ثبتا لا تزعزع الشدائد .

وفى العام التالى ، أرسل عبد الملك جيشا آخر وجهته
الحجاز أيضا . وجعل قيادته لابن عمه عبد الملك بن الحارث
ابن الحكم ، فوصل هذا الجيش الى « وادى القرى » :
فى شمال الحجاز . لكن لم تذكر الأخبار كم كان عدد هذا
الجيش ، كما لم يرد أنه تقدم أكثر من ذلك . فالذى يظهر

أن عبد الملك لم يقصد من ارسال هذا الجيش أن يكون غزواً حقيقياً لقلب البلاد ، ولكنه كان أشبه بمناورة حربية ، بقصد الارهاب والتخويف و اظهار القوة .

هذا فيما يتعلق بالحرب بين الشام والحجاز . وكما رأينا ، لم تؤد الى أية نتيجة . وفي نفس الوقت ، كان ابن زياد يقوم بحملاته من الشام ضد العراق . وكان يقابله الشيعة : التوابون أولاً ، ثم المختار . و انتهت هذه المرحلة بقتل ابن زيادة وهزيمة جيشه ، في أوائل سنة ٦٧ — كما فصلنا من قبل .

موقف عبد الملك

ولابد أن عبد الملك استنتج من هذه التجارب — وكانت في الأكثر تجارب مرة — أنه لا يستطيع لوقت ما ، والأحوال كما هي ، أن يفتح العراق أو الحجاز . فلا مناص من أن يكتفى بالدفاع عن نفسه وعن مملكته التي تحت حكمه ، والأمر مستقر له فيها — وهي الشام ، ومصر وما يتبعها من افريقية — ويعتمد في هذه الأثناء على الوقت . لتمهيد الطريق وازالة العراقيل وتهيئة الوسائل ، وذلك بما يوجد فيه من أحداث وما يغير من الأحوال . ولابد أنه انصرف لتدعيم قواعد حكمه في بلاده ، بتقويم مواردها المالية ،

وتنظيم شئونها الداخلية ، واعداد جيش قوى يستطيع به ان
يجالد أعداءه ، وأن يعيد عليهم الكرة — حين يجيء الوقت
المناسب — ضامنا النجاح والظفر هذه المرة .

والواقع أن عبد الملك ، لو عرف ، لتبين أن زوال ابن
زياد من دولته كان بدء الخير والنصر له . فقد كان قتله افناء
لماض بغيض ، كان دائما يلقي ظلا من الريب على عبد الملك
ودولته ، ويشير في نفوس الناس الكراهية له والنفور منه .
أما الآن فقد انقطعت صلة عبد الملك بهذا الماضى البغيض .
ولما ذاق الناس من خصومه ألوانا من الاساءة ، وقاسوا من
عيوب وأخطاء المتغلبين عليهم ، وسئموا من كثرة الصراع
والنزاع ، وبدأوا يبحثون عن الاستقرار — بدا لهم عبد الملك
وكأنه ليس أقل من غيره ، بل ان الاستقرار والنظام في
حكمه ، المتجلى في دولته بالشام ومصر ، يدعو للاعتراف
له — عند المقارنة بغيره — أنه يكون أفضل منهم . وهذا
الميل الطيب نحو عبد الملك سينمو أيضا بمرور الوقت . وكان
أهم ما يخدم عبد الملك من الانتظار أن أعداءه سيتركون
يقاتل بعضهم بعضا ، ويضعف بعضهم بعضا ، ولا يكون
الغالب منهم بأحسن حالا من المهزوم .

فهكذا ظل أعداؤه يتقاتلون : فكان حتما أن ينشب

الصراع بين دولة آل الزبير والمختار ، الذي أقام دولة على
أنقاض دولتهم : في الكوفة والعراق والجزيرة . وكان الصراع
دائرا منذ بدء قيام دولة آل الزبير : بينهم وبين الخوارج الشائرين
الذين أقاموا لهم دولة في الأهواز وبلاد فارس . كما كان
هناك نزاع في داخل هذه الأقطار ، وفي مواضع أخرى . ثم
جاءت المعركة الكبرى بين ابن الزبير والمختار ، حين عين ابن
الزبير أخاه « مصعبا » واليا على البصرة . فجاء مصعب وهو
ينوى أن يدخل في موقعة فاصلة مع المختار والشيعة ،
وساعدته الأحوال في العراق على ذلك .

مصعب في العراق

في أوائل سنة ٦٧ هـ ، عين عبد الله بن الزبير أخاه مصعبا
واليا على العراق كله . فقدم مصعب من مكة في جمع له الى
البصرة ، حتى أناخ على باب المسجد . وكان متلثما ، فكشف
الثام عن وجهه فعرفه الناس ، وقالوا : مصعب بن الزبير :
أمير ، أمير . فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« بسم الله الرحمن الرحيم . طسم . تلك آيات الكتاب المبين .
تتلو عليك من نبي موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . ان
فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة

منهم : يذبح أبناؤهم ويستحيى نساءهم ، انه كان من
المفسدين » — وأشار بيده نحو الشام — « ونريد أن
نمن على الذين استضعفوا في الأرض ، ونجعلهم أئمة
ونجعلهم الوارثين » — وأشار بيده نحو الحجاز — « وثرى
فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » —
وأشار بيده نحو الكوفة — ثم نزل .

بعد أن وصل مصعب ، حضر اليه أشراف الكوفة ،
 واجتمع الرأي على القيام بحملة مشتركة ، لمحاربة المختار
والقضاء عليه وعلى مواليه . فسار مصعب بجيشه ومعه
كبار القواد ، فالتقى الجيشان في « المذار » في جنوب
العراق . فحدثت موقعة شديدة صبر فيها الأبطال من الجانبين
ثم انتهت بقتل قواد المختار وانهزام جيشه ، حيث أيّد رجاله
الجيش جميعهم — وكان أكثرهم من الموالى — ولم ينبج
من ذلك الجيش الا طائفة من أصحاب الخيل . فخرج المختار
وقاد المعركة بنفسه . ولكن أخيرا ، حاقت الهزيمة بجيش
المختار ، وتفرق عنه أصحابه ، فذهب الى القصر في الكوفة .
وكان يخرج في جماعات قليلة ، فيقاتل بكل شجاعة ، وهو
مصمم على الموت ، ولا يقبل أن ينزل على حكم أعدائه
— حتى طال الحصار ومنعوا عنهم المأوى والماء ! وأخيرا

حنط نفسه ، وخرج في تسعة عشر رجلا ، وظل يضارب بسيفه حتى قتل . وذلك في رمضان سنة ٦٧ . بذلك انتهى أمر المختار ودالت دولته : دولة الشيعة التي لم تعمر في الكوفة أكثر من عام ونصف عام — ولكن بعد أن حققت غايتها ، وهي الانتقام من قتلة الحسين ، ورأسهم ابن زياد ، الذي قتل في الخازر — كما بيناه فيما مضى .

* * *

لقد أدى المختار مهمته . وصدق إذ قال : حين قدم الى العراق أنه « اذا أدرك بثأر النبيين ، وشفى صدور المؤمنين ، لم يحفل بالموت اذا أتى » . فهو بعد أن شفى صدور الشيعة وغيرهم ، لم يحفل — حقا — بالموت . ومات كريما ، بطلا شجاعا :

ويسىء بعض الناس تصوير شخصية المختار ، فيعرضه على أنه كان رجلا ظموحا يسعى لتحقيق المجد لنفسه ، منتهزا فرص السياسة ، مستغلا دعوة الشيعة وغيرها ، ويصفه بعضهم بالكذاب . ولا غرو ، فالمختار كان له أعداء كثيرون في حياته ، فهم يحملون عليه ويذمونه . ويتبع الناس في ذكر سيرته ما قال أعداؤه فيه . لكن دراسة تاريخ المختار وأعماله — على النحو الذي فعلنا — تبين تماما صدق

عقيدته ، وقوة شخصيته ، وسلامة هدفه . فهو كان مخلصا لمبدئه الذى عاش ومات من أجله — وهو نصرة آل البيت والأخذ بثأرهم . وهو شخصية عربية مليئة بالحيوية ، تثير الإعجاب . وقد سئل عنه الحجاج مرة ، فقال : « لله دره ! . أى رجل — ديناً ، ومسعر حرب ، ومقارع أعداء — كان » . وروى أن ابن عباس ذكر عنده المختار ، فقال : صلى عليه الكرام الكاتبون . ولما قتل المختار ، قال ابن الزبير لعبد الله بن عباس : ألم يبلغك قتل الكذاب ؟ قال : ومن الكذاب ؟ قال : ابن أبى عبيد . قال : قد بلغنى قتل المختار . قال : كأنك أنكرت تسميته كذابا ، ومتوجع له . قال : ذاك رجل قتل قتلنا ، وطلب ثأرنا ، وشفى غليل صدورنا . فما يكون جزاؤه منا الشتم والشماتة . وقال عروة بن الزبير لابن عباس : قد قتل الكذاب المختار ، وهذا رأسه . فقال ابن عباس : قد بقيت لكم عقبة كثود ، فإن صعدتموها فأنتم أنتم ، والا فلا (يعنى : عبد الملك بن مروان) . وبعد قتل المختار ، ارتكب مصعب ابن الزبير أخطاء جسيمة ، كانت لها فيما بعد نتائج سياسية ضارة ، وأساءت الى سمعته . فقد أخذ الأسارى الذين وقعوا فى يده من جند المختار ، وكانوا قد طلبوا الأمان ونزلوا على حكمه ، وبعد أن

استعطفوه وكاد أن يرق لهم ، عاد فاستمع الى قول أشراف الكوفة ، الذين كانوا أعداءهم وكانوا يحملون الضغن على أصحاب المختار ، فأمر بقتل الأسارى .

ومن الأخطاء أنه دعا أم ثابت بنت سمرة زوجة المختار ، فسألها ماذا تقول في زوجها ، فقالت : تقول فيه بقولك أنت . فأطلق سراحها . ثم دعا بعمره بنت النعمان بن بشير الأنصارى — زوجته الأخرى — فسألها ، فقالت : رحمه الله ، كان عبدا لله صالحا . فأرسلها الى السجن . ثم كتب الى أخيه يقول : انها تزعم أن زوجها نبي . فكتب اليه بقتلها فقتلت . وفي ذلك قال الشاعر عمر بن أبي ربيعة :

ان من أعجب العجائب عندي

قتل يضاء حرة عطبول

قتلت هكذا على غير جرم

ان لله ذرها من قتييل

كتب القتل والقتال علينا

وعلى المحصنات جر الذبول

فهذه الأخطاء تلقى ضوئا على شخصية « مصعب » ، الذي سيكون خصما لعبد الملك . وهي تدل على أنه شخص يفقد صفة السياسة ، ولا يحسن تقدير العواقب .

الخوارج : أو الثائرون المتطرفون

هذا هو الحزب الثالث في العراق .

فالحزب الأول هو حزب آل الزبير ، والحزب الثاني هو الشيعة ، والحزب الثالث هو هؤلاء : الخوارج . وهو أشد الأحزاب عنفا ، وأكثرها تطرفا .

وقد ظل الخوارج حربا على اخوانهم أهل العراق ، وكانوا خطرا دائما يهدد دولة آل الزبير ، وسيكون أولى المشاكل لدى عبد الملك ، حين يستولى على العراق ويحل محل آل الزبير : فمن هم ؟ وكيف بدأوا ثورتهم ؟
بدأ الخوارج ثورتهم الأخيرة ضد الدولة الأموية في أول عهد يزيد ، وذلك بسبب سياسة « ابن زياد » أيضا — الذي كان والى البصرة .

فقد اشتد عليهم ابن زياد ، وملا بهم السجن ، وقتل كثيرا منهم صبورا . وكان ممن قتل « عروة بن أدية التميمي » من خيار رجالهم . فخرج على ابن زياد أخوه « أبو بلال » مرداس — وكان من أجل الناس قدرا بين الخوارج لعبادته واجتهاده . ولم يكن مع أبي بلال غير أربعين رجلا ، فأرسل اليهم ابن زياد جيشا عدته ألفان ، فهزم أبو بلال ذلك الجيش

في موقع اسمه (آسك) بالأهواز . وفي ذلك قال شاعر
الخوارج :

أألفا مؤمن فيما زعمتم ويقتلهم بأسك أربعونا
كذبتهم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
فجرد لهم ابن زياد جيشا آخر — عدده ثلاثة آلاف —
عليه عباد بن الأخضر التميمي ، فقتل أبو بلال . وذلك سنة
احدى وستين . غير أن أحد الخوارج ترصد لعباد هذا واغتاله
في أحد طرق البصرة .

فعلا ابن زياد في اضطهادهم ، وأكثر قتلهم وكأنه أراد أن
يستأصلهم . فما زال الخوارج في هذه الحال — وهم اذا
اجتمعوا تذكروا فضيلة أبي بلال وجهاده — حتى رأوا أن
ابن الزبير ثار بمكة ، وأن يزيدا قد أرسل اليه جيشا من
الشام ، فأرادوا الخروج للجهاد معه ، فاجتمعوا وقال لهم
رئيسهم « نافع بن الأزرق » : « ان الله قد أنزل عليكم
الكتاب ، وفرض عليكم الجهاد ، واحتج عليكم بالبيان ، وقد
جرد أهل الظلم فيكم السيوف . فأخرجوا بنا الى هذا الذي
ثار بمكة . فإن كان على رأينا جاهدنا معه ، وان يكن على غير
رأينا دافعنا عن البيت . ثم نظرنا بعد ذلك في أمورنا .
فساروا الى مكة — وذلك في أوائل سنة ٦٤ — وقاتلوا مع

ابن الزبير ضد جيش الشام ، حتى جاء الخبر بنعي يزيد
وانصرف ذلك الجيش عائدا الى بلاده . فحينئذ وقع الخلاف
بينهم وبين ابن الزبير ، واشتبكوا معه في مناظرات ، وتبين
للفريقين تباينهما في الرأي . فتبرأ أحدهما من الآخر وثار
النفوس .

وهكذا تفرق القوم ، وغادر الخوارج مكة (في ربيع
الآخر ٦٤ هـ) . فتوجه نافع بن الأزرق — ومعه أكثر
الخوارج — الى البصرة . وتوجه فريق آخر — على رأسه
أبو طالوت — الى اليمامة . وبعد مقدم الأولين الى البصرة
بقليل ، حدثت الأحداث التي ييناها فيما مضى ، الى أن وثب
الناس على ابن زياد ، واختفى . فقام الخوارج وكسروا أبواب
السجون ، وأخرجوا اخوانهم ، واتهزوا فرصة اشتغال الناس
بالحرب بين الأزد وتميم ، بسبب مقتل مسعود سيد الأزد ،
فاجتمعوا وخرجوا تحت قيادة زعيمهم : نافع بن الأزرق ، الى
ناحية الأهواز — غير بعيد من البصرة . ولما كان الخوارج
قد أعلنوا الجهاد ضد مخالفيهم ، واتبعوا مذهباً شاذاً ، فقد
خاف أهل البصرة على أنفسهم ، واثتهوا الى الصلح فيما
بينهم ، وانتخبوا لهم أميراً هو : « عبد الله بن الحارث » —
كما أشرنا اليه سابقاً — وأخذوا يستعدون للدفاع عن أنفسهم
وتجهيز جيش لمقاتلة الخوارج .

ما مذهب هؤلاء الخوارج اذن ، وماذا يريدون ؟
كان هؤلاء قوما متطرفين تغلب عليهم طبيعة البداوة ،
تشددوا في الدين وفهموه فهما حرفيا ، وأخذوا الكتاب
بظاهره . خرجوا على عثمان بسبب مسائل غير أساسية ، ثم
خرجوا على علي بعد التحكيم ، واعتدوا على المسلمين
فاضطر عليّ الى منازبتهم . وكان أحدهم الذي قتله .
وخرجوا على معاوية والدولة كلها . كان عماد مذهبهم
أن ارتكاب المعصية كفر ، وكانوا يرون — من الناحية
السياسية — أن الخلافة يجب أن تكون شورى ، ولا يلزم
أن تكون في قريش . ولما خرجوا في ثورتهم الأخيرة في عهد
ابن زياد ، ظهر نافع بن الأزرق وغلا في مذهبه غلوا خرج به
عن كل حد ، وتبعه كثير من الخوارج فهم الذين سمو
بـ « الأزارقة » . قال ابن الأزرق : ان دار مخالفيهم — أي
بقية المسلمين — دار شرك ، فهم مشركون ككفار العرب ،
فلا يقبل منهم الا الاسلام أو السيف . فمعنى ذلك أن هؤلاء
خرجوا على الجماعة كلها ، وأصبحوا خطرا يهدد المسلمين في
حياتهم وأموالهم ، هذا على أنهم كانوا يغالون في أداء
واجبات العبادة ، وخالف بعض زعماء الخوارج ابن الأزرق —
في درجات من تخفيف مذهبه — وكونوا شيعة خاصة ، ومنهم

نجدة بن عطية الذي ذهب الى اليمامة ، حيث خلع الناس
هناك أبا طالوت وولوه عليهم مكانه ، فكون دولة أخرى .
خرج نافع بن الأزرق وأتباعه الى جهة الأهواز ، وأقاموا
بها وكثر جمعهم وقويت شوكتهم ، ثم أقبلوا حتى دنوا من
جسر البصرة ، ففزع أهل البصرة واجتمعوا الى « الأحنف بن
قيس » فدعا الناس الى الجهاد ، وحدثت عدة مواقع .

* * *

وأخيرا رأى « الأحنف بن قيس » أن خير من يتولى
حرب الخوارج هو « المهلب بن أبي صفرة الأزدي » ، لما علم
فيه من الشجاعة والرأى والمعرفة بالحرب ، فولاه ذلك .
وعقد له اللواء . وذلك سنة ٦٦ هـ . وقد برهن المهلب حقيقة
على أنه قائد قدير ، يتقن فن الحرب وآساليه . فما زال يقاتل
الخوارج ، ويزيحهم من مرحلة الى مرحلة . وغلى الرغم من
أنهم كانوا أشد الناس فى القتال ، استطاع أخيرا بفضل
براعته فى القيادة ، وثباته وثبات أبنائه — وكانوا أبطالاً —
استطاع أن يتغلب على الخوارج ويهزمهم ، وذلك فى موقعة
« سلى وسلبرى » فى فارس سنة ٦٦ هـ ، وقتل قائدهم —
فرجعوا مهزومين ، وابتعدوا عن فارس الى جهة كرمان .

الخوارج وآل الزبير

وظل المهلب يجاهددهم ، حتى جاء « مصعب » أميراً على البصرة . — سنة ٦٧ — فرأى مصعب أن يسحب المهلب من هذه الجبهة ، ويعينه أميراً على الموصل والجزيرة ، ليكون بينه وبين عبد الملك بن مروان . فتولى حرب الخوارج قواد آخرون ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يصلوا الى نتيجة حاسمة . فلما سئم الناس حرب الخوارج ، كلموا مصعباً في أنه ينبغي أن يعيد « المهلب بن أبي صفرة » لحربهم ، لأنه أعرف الناس بهم ، وهم لا يهابون أحداً مثله ، كما أن الجند لا يطيعون أحداً غيره . فأعاده مصعب الى الجبهة ، وتولى المهلب حرب الخوارج مرة أخرى ، منذئذ .

فما زال في هذا الميدان ، حتى تغيرت الأحوال وقتل مصعب ، وجاء عبد الملك الى العراق . فأصبح الواجب على عبد الملك أن ينهض هو للدفاع عن العراق والدولة ، وينصب لحرب الخوارج . فاعترف به المهلب ودخل في طاعته ، وأصبح جيشه جيش عبد الملك . وسرى فيما بعد كيف ستسير الأحوال ، وماذا سيكون مصير الخوارج في عهد عبد الملك . وسيكون مجيء عبد الملك الى العراق في عام ٧٢ هـ .

فترى من ذلك كله أن الخوارج ظلوا شوكة حادة ،

أو جرحا داميا ، في جنب عبد الله الزبير ودولته . وأنهم بقوا
يستنزفون منه الجهود والأموال ، ويكبدونه وأهل العراق
خسائر في الرجال ، ويشغلون الأبطال . فكان هذا — في
الواقع — من أسباب ضعف دولة آل الزبير . ولم يكن عند
عبد الملك ودولته ما يشغلهم ، مثل هذا . وكان ابن الزبير
مهيدا أيضا بالخوارج الآخرين — أتباع نجدة — الذين
أقاموا دولة في قلب جزيرة العرب ، وصاروا على مقربة منه ؛
حتى أنهم أخافوا أهل الطائف ، فجعلوهم يعتبرفون لهم
بالولاء .

أربعة ألوية في الحج

ويسكن أن نرى صورة لتفريق أمر الأمة في ذلك الوقت ،
في موسم الحج عام ٦٨ هـ .

فقد ظهرت صورة غريبة ، وهي أنه وافى الموسم ووقف
بعرفات في تلك السنة أربعة ألوية : محمد بن الحنفية وشيعته
في لواء ، وعبد الله بن الزبير في لواء ، ولواء بنى أمية ، ولواء
نجدة الحروري (البخارجي) . وكادت أن تحدث بينهم الفتنة
وتنشب الحرب ، لولا أن توسط بعض الراشدين من الأمة .
فهذه الألوية كانت تمثل — على التوالي — أحزاب :
الشيعة ، وأتباع ابن الزبير ، وبنى أمية ، ثم الخوارج . وهي
الأحزاب التي كانت الأمة منقسمة إليها في ذلك الوقت .

الفصل السابع

نحو توحيد الدولة

شهدنا المعارك العديدة التي كانت تدور في أنحاء الدولة : بين العراق والشام ، أو بين الشام والحجاز ، أو بين العراق والحجاز ، أو في داخل العراق نفسه ، أو بين العراق وقوات خارجة عليه . فالى متى يظل هذا النزاع داخل الدولة العربية الاسلامية ، ويبقى الانقسام ؟ . وهل يمكن أن تترك الأمور هكذا ، دون بذل جهود لتحقيق وحدة الدولة والأمة ؟

لم يكن عبد الملك أو ابن الزبير ، أو أي أحد في ذلك العصر ، يعتقد أو يتصور أن الدولة يمكن أن تتجزأ ، أو تبقى منقسمة بين شخصين أو أكثر . فالدولة منذ بدء تاريخها كانت واحدة . والجميع يشعر أنها وحدة دينية وثقافية وجغرافية واقتصادية ، أوجدها الاسلام وروجها الاسلام ، وقواها السياسية والحربية كلها من جنس واحد : من العرب .

فلا يمكن اذن أن تنفك عراها أو تنفصل أجزاؤها ، يجب أن تعود دولة واحدة عليها خليفة واحد .

لكن قد مضى عليها الآن — وقد بلغنا عام ٦٨ أو ٦٩ هـ — نحو خمس أو ست سنوات ، أو أكثر ، وهي مسرح لقوى متنافسة متنازعة ، والأقطار أو البلاد متفصلة ، وهناك زعيمان كل منهما قد بايعه قوم وأعلن خلافته ، ويدعى أنه هو الأحق بالخلافة . وهناك امام الشيعة ، يعتقدون أنه لا يوجد من ينازعه في حقه الأقدس الخاص به . وهناك أئمة للخوارج في هذا المكان أو ذاك . فالمشاعر مضطربة ، والولاء موزع ، وجهود الأمة منصرفة الى النزاع الداخلي ، بدل أن توجه — متحدة — للصمود أمام العدو الخارجي ، والتغلب عليه . كانت الدولة في غاية القوة يوم كانت متحدة ، وقوادها مظفرون في الفتوح المتوالية ، وأعلام النصر تسير متقدمة الى كل الجهات . أما الآن فقد ارتدت جيوشها في المغرب ، وفقدت معظم الفتوحات التي لحصل عليها من قبل ، وتجمدت الفتوح في المشرق عند النهر — وكانوا من قبل يعبرون الى ما وراءه — بل ارتدت الجنود عن بعض المناطق ، ووقعت بينهم حرب داخلية عنيفة ، مبعثها الغصبية والطموح الفردي ، وأخذ الروم يتحركون في الشمال ، ويتحرضون

بالدولة . وأغاروا على بعض المناطق ، وأحدثوا أضرارا
جسيمة — منتهزين فرصة الانقسام الداخلى — على
ما سنفصله فيما بعد .

لا يمكن السكوت اذن على هذه الحال ، والا فيعظم
الضرر ، ويتفاقم الخطر . لا بد أن تبذل الجهود لبراء الدولة
من هذا التصدع ، وإزالة الانقسام ، فتجتمع كلمة الأمة —
مرة ثانية — وتنضم تحت لواء واحد ، وتستأنف سيرها قدما
تحت قيادة خليفة واحد . فمن يكون هذا الخليفة ؟ . ومن
ينهض لتحقيق هذه المهمة الكبيرة ؟

لكى نجيب على هذا السؤال ، ينبغي — أولا — أن
نلقى نظرة على الموقف الذى وصلت اليه الدولة ، فى عام
٦٩ هـ .

* * *

كان عبد الملك قد ترك خصومه يتقاتلون ، ولم ير داعيا
لبداء الهجوم حتى يرى نتيجة المعارك الدائرة . فان هذه
المعارك سيكون من شأنها اضعاف الأطراف المشتبكة ، وسيحين
بعدئذ الوقت المناسب ليكون الهجوم مضمون النجاح ،
ويكون هو فى الوقت نفسه قد تمكن من تجديد قواه وتدعيم
قواعد دولته ، واصلاح شئونها الداخلية .

قد كان من نتائج هذه المعارك أن دحرت — فعلا —
أحدى القوى المتنازعة ، واختفت من الميدان كقوة إيجابية
فعالة . وهذه هي قوة الشيعة ، التي قادها المختار ، وحقق
بها بعض الانتصارات الرائعة ، وكاد بها أن يؤسس دولة
دائمة . فبعد مقتل المختار ، لم يعد لهذه القوة وجود ظاهر في
العراق ، وتحولت إلى دعوة أو حركة سرية . وكانت هذه
القوة قد استنفدت أغراضها — على كل حال — حين نجحت
في أخذ ثأر الحسين وآل البيت من قتلهم : من ابن زياد
بالأخص ، ومن شركائه . ففقدت عندئذ الدافع الذي كان
يحركها ، والذي ظل يدفعها نحو ست سنوات . ولم تعد ترى
بعد انتهاء تلك الحركة إلا ذلك الجيش الصغير أو الحرس ،
الذي بدا أن كل مهمته أن يلازم المهدي محمد بن الحنفية
وبحرسه في مكة ، أو أينما توجه ، على الهيئة التي شاهدهاها
به في موسم الحج عام ٦٨ هـ . انحلت عقدة كبيرة اذن من
الموقف ، فأصبحت المعركة مباشرة بين دولة آل الزبير في
الحجاز والعراق ، ودولة عبد الملك في الشام ومصر — دون
أن تتوسط بينهما قوة ثالثة . لكن دولة ابن الزبير — كما
ذكرنا من قبل — كان يجنبها جرح دام يشغلها ويستنزف
قوتها ، وهو حرب البخوارج . وقد استمرت هذه الحرب ،

فأصبحت كالمرض المزمن لا يرجى البرء منه في وقت قريب .
فلم يكن منصعب بن الزبير — وهو نائب أخيه في العراق —
ليستطيع أن يقوم بحرب هجومية على الشام ، قبل أن يتخلص
من هذا الخطر المهدد له على الدوام .

هكذا على أن مركز مصعب ودولته في العراق لم يكن
— في حقيقة الأمر — بالقوة التي قد يوحى بها ظاهره . فان
أهل العراق انما لجأوا اليه ليستخدموه كأداة سياسية ،
ليتخلصوا من المختار الذي أحدث انقلابا في مجتمعهم ،
بأنحيازهم إلى الموالى وإعطائهم حقوق العرب . فبعد نجاح
المهمة وتحقيق غرضهم ، لم يعد هناك رابط قوى يربطهم
به . وماذا كان يربطهم بآل الزبير على كل حال ؟ . لم تكن
هناك العاطفة القوية التي تربط بين الشيعة وأحد زعمائهم ،
ولم يكن هناك الايمان المشترك بعقيدة ثورية ، الذي يربط
بين الخوارج وقادتهم ، ولم يكن هناك الماضي الملىء
بالذكریات والتاريخ المشترك ، الذي يربط بين أنصار
بنى أمية وخلفائهم — ليس فقط في الشام ، ولكن هذا
التاريخ المشترك كان في العراق أيضا ، وبعض جهات
أخرى .

وقد كان في العراق دائما حزب لبنى أمية ، وأنصار لهم .
لكن الذي أضعف الرابطة أو قطعها — الى حين — كانت

هي أحداث البغى والعدوان ، التي أوجدها ابن زياد . فما دام ذلك الرجل البغيض موجودا ، فإن عواطف أهل العراق — سواء الشيعة أو غيرهم — كانت متحولة عن دولة الشام . أما وقد زال ذلك الرجل الكريه ، فقد صفا الجو ، وأخذت الذكريات تعود للخواطر ، والنفوس تحن الى الماضى المشترك ، الذى كان يوفر — على الأقل — الطمأنينة والأمن والاستقرار ، ورخاء المعيشة . ولا سيما أن الشخصية التى ظهرت — وهى شخصية عبد الملك — كانت شخصية تستحق الحب ، وتحمل على الاحترام . يدل على ذلك أن قائد العراق الكبير — « ابراهيم بن الأشتر » — بعد أن حارب جيش الشام واتصر عليه ، صرح — حينما دعاه كل من مصعب وعبد الملك ، لينضم اليه — صرح — كما ذكرت المصادر — بأنه لو ترك الأمر له ، لفضل أن يتبع عبد الملك لكن هذا لم يكن ممكنا ، لما أصاب به رؤساء الشام . وسنرى أن هذا الشعب لم يكن خاصا به ، ولكن سينتشر بين كثير من قواد ورؤساء العراق .

نقول : لم يكن هناك من رابط قوى يربط بين أهل العراق وآل الزبير . فهم انما اختاروا البيعة له ، فى البدء ، لأنهم كانوا فى ألزم الحاجة الى أمير ودولة ، فى الظرف الذى

كانوا مهددين فيه بخروج الخوارج ، وفي ظل الكراهية لابن زياد ، وفي وقت الفوضى الذي اضطربت فيه الأمور ، في كل الجهات . فكانت البيعة لابن الزبير حكم ضرورة ، لأنه كان أكفأ الموجودين في الموقف . ولكن الأمور ظلت في الحقيقة — مع ذلك — بأيدي رؤساء العشائر ، أو أشراف العرب . ولم يستطع ولاة ابن الزبير ضبط الأمور ، فقام ثائرو الشيعة واستولوا على الكوفة والبلاد ، وظهروا كدولة داخل الدولة.

عبد الله بن الزبير

؛ لقد كان عبد الله بن الزبير ، في ذاته ، رجلاً يتمتع بصفات تبعث على الاحترام : ذا شخصية قوية ، وله ماضٍ مجيد . كان من فرسان قریش وأبطالها ، خطيباً بليغاً ، وعابداً لا يبارى في تحمله مشقات العبادة ، ومن الطبقة الأولى من التابعين . ولكنه قيد نفسه بمكة ، وظل ملازماً لها . ولم يخرج أبداً طوال المدة التي ناضل فيها من أجل الخلافة : لم يخرج إلى أى جزء آخر من أجزاء دولته ، وخاصة العراق . فكانت الصلة بينه وبين الناس بعيدة . ولم توجد الرابطة التي تستلزم الولاء بين الجمهور وزعيم له ، أو بين جيش وقائده — وهى رابطة الحب وشعور الإعجاب — تلك التي تنشأ عن الاتصال

الشخصى ، وتأثير القائد أو الزعيم فى أتباعه

وقد لاحظ عبد الملك نفسه هذا المعنى ، فتحدث — فيما بعد — فى خطبة له بالكوفة ، بعد أن قدم العراق ، فقال : « ان عبد الله بن الزبير لو كان خليفة — كما يزعم — لخرج وآسى أنصاره بنفسه ، ولم يغرز ذنبه فى الحرم ! » . ولكن هكذا شاء ابن الزبير « أن يغرز ذنبه فى الحرم » . وترك أنصاره وحدهم بعيدا عنه ، دون أن يضرب لهم القدوة أو الأسوة بنفسه ، وترك الأمور تجري دون أن يحكمها . ولم يكن وكلاؤه — حتى اخوته — بكافين عنه . فكان هذا — ولا شك — من أسباب هزيمته وفشل أمره .

وكان من أكبر عيوب ابن الزبير — أيضا — التى أدت الى نفور الناس منه ، وكانت سببا فى هزيمته ، حرصه وضنه بالأموال — حتى لأتباعه ومناصريه . كما يدل على ذلك هذا الخبر : أن أخاه مصعبا قدم عليه بمكة — ومعه وفد من وجوه أهل العراق — فقال : يا أمير المؤمنين ، قد جئتكم بوجوه أهل العراق ، فأعطهم من المال . فقال عبد الله : « جئتنى بعبيد أهل العراق لأعطيهم من مال الله . والله لافعلت . ولوددت أن لى بكل عشرة منهم رجلا من أهل الشام : صرف الدينار بالدرهم ! » — ذكر رواية الخبر ، قالوا :

« فلما انصرف مصعب ومعه الوفد من أهل العراق ، فسدت قلوبهم ، فراسلوا عبد الملك بن مروان ، حتى خرج الى مصعب فقتله » . كما وردت أنباء أخرى تؤيد هذا الخبر . وقد سجل عبد الملك أيضا عن خصمه هذا المعنى ، فقال في بعض خطبه : « ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر مني . وإن ابن الزبير لطويل الصلاة كثير الصيام . ولكن لبخله ، لا يصلح أن يكون سائسا » . وقال علي بن زيد شيئا شبيها بهذا ، فتحدث عن ابن الزبير : — قائلا : « كان عبد الله طويل الصلاة كثير الصيام . وكانت فيه خلال ميانة لما حاول من الخلافة : بخل وضيق ولجاج » . وهو يعنى بالخله الأخيرة أن عبد الله بن الزبير كان شديدا في خنومته ، وكان خشن الجانب . وربما كان هذا ناتجا عن قوة اعتداده بنفسه . لكن هذه الخصلة — والصفات السابقة — لم تكن من الصفات التي تساعد على اجتذاب الناس اليه ، ولم تكن من الصفات التي تتفق مع مقتضيات السياسة .

وكان عبد الملك بن مروان على خلاف ذلك . — ولو في مجال السياسة — على الأقل — وقبل أن يتم له أمر الخلافة ، وبالنسبة لأهل الشام بصفة خاصة . فكان سخيا مع قواده وجنوده . جزل لهم الأعطيات . وربما كان يقتدي في هذا

بمعاوية . فكان جنده من أهل الشام — وهم الذين كان يعتمد عليهم — يحبونه ويطيعون أمره . وقد كاتب قواد العراق ومناهم ، ووعدتهم ووصلهم — وان كان الحجاج فيما بعد تقض هذه السياسة ، وعامل أهل العراق بعنف . فكانت هذه من أخطائه ، وأدت الى حروب ومتاعب كثيرة . كذلك كان عبد الملك حسن المعاملة ، بصفة عامة ، لقواده وحاشيته . يكرمهم ويحلم عليهم ، ويزورهم اذا مرضوا ، ويحضرهم مجالسه كأصدقاء . أما من ناحية الخروج بنفسه ، ليضرب الأسوة والقذوة لأنصاره ، فان عبد الملك قرر — في هذه المرحلة الثانية من النشاط منذ عام ٦٩ هـ — أن ينهض بنفسه ، ويخرج على رأس قواته فيشارك في الحصار والحرب والمفاوضة . وهكذا فعل ، وهكذا « لم يغرر ذنبه » ! في دمشق أو غيرها . فكان هذا من أكبر عوامل نجاحه وانتصاره . وقد حضر بنفسه الموقعة الفاصلة بينه وبين مصعب — على ما سنرى . فكان وجوده من أهم أسباب النصر — على حين كان عبد الله بن الزبير غائبا . وهذه هي الموقعة التي تم بها لعبد الملك الاستيلاء على العراق .

مصعب أخو عبد الله

أما مصعب : فكان شخصية قوية أيضا ، وكان يمتاز كأخيه بالشجاعة وإباء الضيم ، وكان نموذجا لوسامة العربي القرشي ، ويتصف بالصفات الحميدة . وعلى خلاف أخيه كان جوادا . لكنه كان يعيش كأمر أرسطراطي ، ينفق بسخاء على شئونه الخاصة ، ويتزوج أجمل عقيات قریش ، ويدفع مہرا لآحادہن ألف ألف (أى مليون) درہم . وفى هذا قال شاعر :

مہر الفتاة بألف ألف کامل ویبیت قادات الجیوش جیاعا
وکرمة کان کرما فردیا . ولیس نظاما عاما یشمل الجميع ؛
ویتمثل فى أعطیات ثابتة للأنصار .

وکما بینا من قبل ، لم یکن هناك من روابط قوية طبيعية ، تربط بینہ وبين أهل العراق . فلم یکن من آل البيت ، ولا زعیما لشیعة ، ولا من أبناء الخلفاء السابقین . وإنما کان قائما ، ممثلا لأخیه الذی یعيش فى الحجاز . ولم ینتخب أحدهما انتخابا شرعیا فى مؤتمر یحضره أهل الحل والعقد ، كذلك المؤتمر الذی انعقد فى الجابية — الذی تحدثنا عنه فى فصل سابق — والذی قامت على

أساسه دولة آل مروان . وهذه النقطة — في المقارنة الدستورية بين أساسى دولتى ابن الزبير ومروان — لم يفت المؤرخ « ابن خلدون » أن يلحظها . حقا ، كان عبد الله ومصعب — كلاهما — شخصيتين رائعتين . لكنهما كانا يريدان أن يؤسسا دولة جديدة ، من البدء : من فراغ . وهذا من أشق الأمور . على أن مصعبا ظل ، طوال مدته بالعراق ، مشغولا بحروب الخوارج . ثم انه ارتكب — كما رأينا — أخطاء سياسية جسيمة ، مثل قتل هذا العدد من الأسرى ، فنفّر الناس منه ، وترك له أثرا عند كثير من القبائل . ولما كان غير واثق تماما من تأييد واتباع أهل العراق له — وهم القوم الذين عرف عنهم فى الأحداث السابقة التقلب والتحول عن الزعماء — فقد لبث فى موقف دفاعى ، ولم يحاول القيام بهجوم على الشام ، من أجل تصفية الموقف .

* * *

هذه هى الظروف التى وجد عبد الملك بن مروان فيها نفسه ، حين قرر أن يبدأ مرحلته الثانية من النشاط فى عام ٦٩ هـ ، ويقوم هو بقيادة الجيوش والاشراف على الأمور . وكان هو فى موقف لا يستطيع فيه الانتظار أكثر من ذلك ، لأمد طويل . لأن دولته أكثر تعرضا للأخطار ، والغارات من الخارج ، أكثر من العراق أو الحجاز .

قالروم — العدو التاريخى القومى — بدأوا يتحركون ،
ويعرضون العناصر المخربة الأجنبية ، التابعة لهم فى
الداخل — وهم « الجراجمة » . والأراضى تفقد فى الغرب ،
والسواحل معرضة للهجوم . وموارد الشام محدودة ،
لا تقاس بثروات العراق ، وما وراءه من أقطار ايران . ومصر
تكاد تكون مستقلة ، تحت امرة أخيه عبد العزيز بن مروان ،
وهى تتحمل عبء الدفاع فى الغرب . فاذا كان عبد الله
ابن الزبير — وأخوه — يستطيعان أن يكتفيا بدولتهما فى
الحجاز والعراق ، فان عبد الملك كان لا يستطيع أن يضمن
بقاء دولته وقوتها ، الا اذا تحقق توحيد الدولة . كانت
وحدة الدولة ضرورة لعبد الملك : ألزم له مما كانت بالنسبة
لخصومه . فليست غرضا كماليا ، ولا هدفا من أجل بلوغ
العظمة الشخصية ، أو الوصول لتوسيع حدود الدولة ،
ولكنها كانت أمرا حيويا ، والشرط الجوهري الذى يتوقف
عليه كل شيء .

فالآن نكون قد أجبنا عن السؤال الذى طرحناه من
قبل : وهو من يكون الخليفة الذى تعينه الظروف وتدفعه ،
وتميزه صفاته ، لينهض لتحقيق هذه المهمة الكبيرة وهى
توحيد الدولة ؟ . فالجواب أن هذا انما هو عبد الملك .

خطط سياسية وحرية

ما هي الخطة التي يتبعها اذن لتحقيق توحيد الدولة ؟
لم يختار عبد الملك أن تكون الخطة الآن هي أن يبدأ على الفور ، فيقود جيشا يتوجه به الى العراق أو الحجاز ويخوض مع خصمه موقعة حاسمة . ان هذه الموقعة حتمية ، آتية لا ريب فيها — اذا ظلت الظروف كما هي . ولكن لماذا يجعل الأمر مغامرة ، ولا يكون ضامنا النتيجة ؟ ولماذا يترك الحكم للسيف وحده ، وهؤلاء الذين يريدون أن ينضموا الى دولته مسلمون من أمة واحدة . ثم قد دلت التجارب أن بعض الجيوش ، التي تكون كثيرة العدد حسنة العدة ، قد تهزم على أيدي فئات أقل منها عددا وعدة . فينبغي اذن — وهذه هي الخطة الحكيمة — أن يمهّد للحرب — اذا كان لا بد منها — بالوسائل السياسية . ان السياسة قد تكسب ما لا تستطيع الحروب أن تنيله . وانها كثيرا ما توفر الجهد ، وتجعل أمر الحرب — اذا وقعت — هينا ، وأقل كلفة في التضحية بما يبذل من دماء ، وما يتعرض له من أخطار .

وان عبد الملك — اذا كان قد هداه ذكاؤه وحسن رأيه الى أن يأخذ بهذه الخطة — فانه في الوقت نفسه لا بد أن

يكون قد تمكن من الحكم بأنه لا توجد أسباب قوية ، تمنع أن ينحاز كثير من أهل العراق اليه ، ويتحولون عن مصعب وسلطانه الى تأييده ، ولو بقلوبهم . فانه قد صار واضحا أن التقلب في السياسة أصبح دأب أهل العراق ، وكأنما كانوا يريدون لهم كل يوم أميرا . ثم ان مصعبا وأخاه يريدان أن يؤسسا دولة من العدم ، أما عبد الملك فانه يمثل استمرارا لدولة كانت قائمة ، وكان أهل العراق يدينون لها . وكثيرا ما خدموا تحت لوائها ، ونعموا في ظلها بالأمن والاستقرار والرخاء ، وكانوا راضين عنها في الجملة — لولا اساءات ابن زياد وأبيه — وهذه هي الدولة الأموية . فعبد الملك اذن انما يطالب في الحقيقة بحق تاريخي أو شرعي ، ويريد أن يعيد وحدة الدولة كما كانت ، وأن تعود الأوضاع الى ما كانت عليه .

هذا الى أنه لم يسيء اليهم ، وليس له عندهم ثأر — على حين أن مصعبا قد أساء اليهم بمن قتل منهم في الحروب ومن الأسرى ، وأصبح لكثير عنده ثأر ، ويسىء اليهم بوجوده بما يرتكب من أخطاء أو يمنع عنهم من خير . ثم اذا قارن الناس بينه وبين عبد الملك — من حيث النسب ، ومن وجهة العصبية — وهذه كان لها شأن كبير عند العرب — فان

عبد الملك يرجح مصعبا أو أخاه في النسب . فهذان من
أسد بن عبد العزى . أما عبد الملك فمن عبد مناف بن قصي .
فهو أكثر شرفا ، وأقرب الى نسب الرسول عليه الصلاة
والسلام . وقد رينا أن هذه كانت من الأسباب التي حملت
زعماء بنى هاشم : عبد الله بن العباس ، ومحمد بن علي
(ابن الحنفية) على رفض المبايعة لعبد الله بن الزبير ، وكانوا
يفضلون عليه عبد الملك ، ثم بايعوه بعد ذلك . وكذلك كان
سائر العرب ينظرون الى الأمر على هذا الوجه . فأمية
وعبد شمس وعبد مناف كانوا أعلى درجة في الشرف ، وأقوى
عصية ، من أسد بن عبد العزى .

ثم ان أهل العراق — ولا سيما الأشراف ورؤساء
القبائل — وهم الذين يعول عليهم في تقرير مصائر الحروب
والدول — كان منطقتهم عمليا ، كانوا يريدون أن يحققوا
مصالحهم . واعتبار مصالحهم هو الذى كان يوجه مشاعرهم
وسياساتهم . فهم اذا وازنوا ، يجدون أن مصالحهم ستكون
أكثر تحققا في ظل عبد الملك ، عنها في ظل مصعب . وعبد الله .
وأخيرا ، فان رأى العام لا بد أن يكون — بعد مرور هذه
السنوات — قد سئم كثرة النزاع ، والحروب التي تنشب
بين المسلمين ، وأدرك أن مصالح الاسلام والعروبة قد

أصبحت معرضة للخطر . فهم يتمنون أن تعود الوحدة .
وإذا لم يمكن إخضاع الشام ، فالبديل أن ينضم العراق
— مختاراً — الى الشام ، فيتقوى كل منهما بالآخر .
وإذا لم يكن بد من الاختيار ، فعبد الملك هو الذى يبدو أنه
أرجح الشخصيات ، لما عرف من كمال عقله ، وبراعته — مثل
أكثر بنى أمية — فى السياسة ، ومقدرته على ضبط الأمور ،
ولحسن سيرته أيضا ، فى نفس الوقت .

تتأج هذه الأمور كلها ستظهر ، عندما يخرج عبد الملك
للقاء مصعب ، فى الموقعة الفاصلة — التى سيتوقف عليها
مصير العراق والدولة ، والتى ستحدث بعد ثلاث سنوات .
وستكلم عنها فيما بعد .

الخروج إلى قرقيسيا

أما الآن ، فإن عبد الملك كان عليه أن يسير الى تنفيذ
أغراضه ، خطوة خطوة .

فأولا ، يجب أن يزيل من طريقه تلك العقبة التى بقيت
طويلا ، وهى عقبة حصن قرقيسيا ، الذى ظل زفر بن
الحارث الموالى لابن الزبير ممتنعا به ، وحوله قومه قبائل
قيس المتعصبة له — فيزيل هذه العقبة من طريقه ، حتى

يكون الطريق الى العراق مفتوحا آمنا . وقد حان الوقت للوصول الى حل لهذه المسألة ، فان قبائل قيس اتخذت من هذا الحصن قاعدة لتشن الغارات والهجوم على قبائل كلب واليمن ثم تغلب — المؤيدة كلها لدولة الشام ، مما أدى الى وقوع « أيام » من الحرب والتدمير ، مثل « أيام » الجاهلية الأولى .

ثم ان عبد الملك قرر أن يتخذ من مكان في شمال الشام — على الحدود بينه وبين العراق — بالقرب من « قنسرين » ، ويسمى « بطنان حبيب » — يتخذ منه مركزا لمعسكره مع جيشه كل عام . فيكون أولا قاعدة للهجوم ، ويكون وجوده به مظاهرة لاعلان قوته ، فيخيف أعداءه الروم ، وخصومه في قرقيسيا والعراق . ثم الى جانب ذلك — أو فوق ذلك — تكون هناك الفرصة متوفرة له ولممثليه وجيشه ، أن يتصلوا بأهل العراق وجيشهم ، لتبادل وجهات النظر وتقديم العروض السياسية ، والوصول الى اتفاقات . وكان كثير من العرب ، في العراق والشام ، اخوة في النسب ، ينتمون الى عشائر واحدة . وسيخرج عبد الملك الى هذا المكان ، عدة مرات في السنوات القادمة . وفي نفس الوقت ، يخرج مصعب بقواته الى نقطة مقابلة على الحدود ، في شمال

العراق — تسمى « باجميرا » . فيمكن أن هناك مدة ، ثم
عندما يهجم الشتاء يعودان . وفي هذا المكان قال شاعر في
جيش مصعب :

أكل عام لك باجميرا تغزو بنا ولا تفيد خيرا !

مؤامرة لقلب الدولة !

وفي صيف عام ٦٩ — ٧٠ هـ ، خرج عبد الملك على
رأس جيشه من دمشق ، متوجها الى هذا المكان ، يقصد
أن يسير ليواصل الحرب ضد قرقيسيا ، ثم بعدها يسير
الى حدود العراق . لكنه — وقد صار قريبا من هذا المكان —
فوجيء وهو في طريقه بخبر أفزعه : خبر مؤامرة دبرت
ضده ، وممن ؟ : من أحد أفراد أسرته من بنى أمية ، من
أحد زعمائها ، وهي طعنة من الخلف توجه الى ظهره ، في
الوقت الذي خرج فيه للملاقاة أعدائه .

وخلاصة هذا الحادث أن عمرو بن سعيد بن العاص —
وهو من بنى أمية بن عبد شمس ، فهو بمثابة ابن عم لعبد
الملك ، وكان ابن عمته أيضا — كان ما زال يحمل في نفسه
الضغن منذ أن غير مروان بن الحكم نظام ولاية العهد ، فبعد
أن كان العهد لخالد بن يزيد ثم لعمر بن سعيد هذا — كما

كان اتفق عليه في مؤتمر الجابية — جعله لابنيه : عبد الملك ، ثم عبد العزيز بن مروان . فلم يزل عمرو يضمّر الشر ويتربص الفرصة ، حتى جاء هذا الوقت الذي خرج فيه عبد الملك بجيشه ، متوجها الى قرقيسيا فالعراق . فنفذ هذه المؤامرة التي لا بد أنها دبّرت من قبل ، وأراد أن يقلب الدولة ويخلع عبد الملك ، ويحل نفسه محله في الخلافة .

والروايات هنا تختلف : فهل كان عمرو مع عبد الملك في جيشه ، ثم أسرع فرجع فجأة من الطريق ، ودخل دمشق فاستولى عليها وتحصن بها ؟ أم كان عبد الملك قد خلفه وراءه على ولاية دمشق ، أو لعمل آخر ، فكان اذن في دمشق ، وقام بحركته الغادرة وهو فيها ؟ لكن الذي حدث على كل حال — بعد ذلك — أن عبد الملك عاد بقوته على الفور ، وضرب الحصار على دمشق . وحدثت بعض الاشتباكات ، ثم بعد نحو نصف شهر تمكن من دخولها ، بعد أن كتب صلحا بينه وبين عمرو ، وأعطاه الأمان .

ماذا يعمل عبد الملك اذن ازاء هذا الغدر ، والخطر الجاثم في بيته وعاصمته ؟ وهل يأمن أن يخرج بعد ذلك بجيشه للحروب ، ويترك دمشق وفيها عمرو وأمثاله — وكان مشتركا مع عمرو في حركته اخوته وأبناءؤه ، وبعض كبار

القواد . فكانت اذن مؤامرة خطيرة ، هددت بضياح دولة عبد الملك والقضاء عليه ، واحباط كل جهوده التي يبذلها ، أو كان ينوى أن يقوم بها . ثم تؤدي الى احداث الفتن والاضطرابات في الشام ، والى ما لا يمكن أن يتصور من أوخم العواقب .

فالذي حدث أن عبد الملك — بعد أن استقر في دمشق ووضبط الأمور — أرسل الى عمرو بن سعيد ، فدعاه الى القصر . فخرج عمرو — وهو لا بس درعه تحت القباء ، ومتقلد سيفه ، وبصحبه مائة من مواليه — ودخل القصر ، فاجتمع مع عبد الملك وبنى مروان ورجال الدولة . ما الذي جرى في القصر بالضبط بعد ذلك ؟ . هل كان الأمر قد رتب لقتله ، أم حدث اشتباك ، أو اعتداء في القصر أدى الى قتله ؟ ومن الذي قتله ؟ . هل هو عبد الملك بيده ، أم أحد أقاربه أو مواليه ، أو مولاه : « أبو الزعيزعة » ، المتولى كتابة رسائله . هنا تختلف الروايات وتضطرب . لكن المؤكد أن ثورة حصلت خارج القصر ، في أثناء وجود عمرو به ، كان على رأسها أخوه يحيى بن سعيد وسائر أسرته ، وبعض القواد الذين اشتركوا في المؤامرة . وحاولوا اقتحام القصر ، فحدثت معركة جرح فيها الوليد بن عبد الملك ، وكاد أن يقتل . وأخيرا — تغلب الحراس عليهم ، وألقيت رأس عمرو

اليهم ، ونشرت على الناس بدر النقود ، فانقضوا وانتهى الأمر . ثم بعد أن حبس عبد الملك اخوة عمرو وأبناءه ، عفا عنهم وسيرهم جميعا الى العراق . فوفدوا على مصعب . وقابلوه بعد ذلك — بعد انتصاره ودخوله العراق — فبعد شيء من العتب ، عفا عنهم ووصلهم .

هذا هو الحادث . وأكثر الرواة يقولون هنا أن عبد الملك غدر بعمرو بن سعيد ، وأن هذا أول غدر في الاسلام ، ويسجلونه على عبد الملك . لكن ألا يذكرون أن عمرو بن سعيد هو الذى غدر بعبد الملك ، وأنه هو الذى بدأ بالغدر ؟! . وأى غدر كان ذاك ؟ انه كان غدرا بالدولة كلها ، وبأمنها ونظامها ومستقبلها ؟ فماذا كان يصنع عبد الملك أو غيره ، ازاء ذلك ؟ وأليس هذا ما نسميه في الدول الحديثة بأنه التآمر لقلب نظام الحكم ، أو الدولة ، واحداث الفتن ومحاولة القضاء على الدولة ، وأليس هذا هو ما نقول عنه : انه الخيانة العظمى ، وجزاؤه — عادة — الاعدام ؟ وهل كان يمكن أن يضحي بالدولة ومستقبلها ، من أجل تحقيق طموح شخصى ، وارضاء كبرياء فرد لا غاية له الا أن يحصل على المجد لنفسه ؟ ! .

انتهى هذا الحادث على كل حال ، وسارت الدولة فى طريقها .

غارة على العراق

وخرج عبد الملك كعادته—وذلك في صيف سنة ٧٠هـ—
الى حدود العراق . وعرض عليه أحد رجال بنى أمية — وهو
خالد بن عبد الله — أن يوجهه على رأس جماعة من الفرسان
فيدخلوا البصرة ، ويحتلوها . فوجهه عبد الملك . وكانت
هذه غارة جريئة ، أو هجوما على خطوط العدو في قلب
بلاده . وقد قدم خالد بالفعل ، فلم يلق مقاومة . وانما وجد
من أجاره ، من قبائل بكر والأزد وتميم . . ثم تصالحوا ،
على أن يخرج خالد من البصرة وهو آمن . فخرج خالد
ورجع الى الشام ، دون أن يمس بسوء .

فهذا الحادث يدل دلالة واضحة على أثر نجاح الوسائل
السياسية ، وعلى أنه لا بد أن كان هناك اتصال واتفاق بين
أهل البصرة ومعسكر عبد الملك ، وعلى تحول كثير من
الرؤساء والناس ، من الولاء لمصعب وآل الزبير الى
عبد الملك ودولة الشام ، وبين ضعف موقف مصعب في
العراق . والحقيقة أنه وجد حزب قوى لبنى أمية في البصرة،
وغيرها من بلاد العراق . وكان ممن انضم الى خالد مالك بن
مسمع رئيس قبيلة بكر ، والمغيرة بن المهلب من رؤساء

الأزد ، وعبيد الله بن أبي بكر ، من زعماء ثقيف . وغيرهم .
فبعد أن عاد عبد الملك الى دمشق ، لم يكن لمصعب هم
الا أن يقدم الى البصرة . فأحضر الذين اشتركوا في هذا
الحادث ، فصب عليهم غضبه ، وسبهم جميعا سبا قبيحا .
وضربهم مائة مائة ، وحلق رءوسهم ولجأهم ؛ وصهرهم في
الشمس ، وهدم دورهم . وهرب منه من هرب . فما زادهم
هذا الا حنقا عليه . وما كان هذا ليغنيه عما وصلت اليه الحال
في جبهته ، من تخاذل وتفكك . وسيزداد هذا التفكك ، كلما
مر الوقت .

الاستيلاء على الجزيرة

نجحت الوسائل السياسية اذن ، وأصبح الجو في العراق
ملائما للدخول في المعركة الأخيرة . لكن عقبة قرقيسيا
(شمال الجزيرة) لا بد أن تزال نهائيا من الطريق ، حتى
يكون ظهر الجيش آمنا عند الزحف .

خرج عبد الملك اذن بجيش كبير في صيف عام ٧١ هـ ،
وهو مصمم على الوصول الى الحل النهائي لهذه المسألة .
فلا بد من دك الحصن ، واخضاع زفر . فأخذ معه عدة
الحصار والمجانيق . ولما وصل ضرب الحصار حول المدينة ،

وصوب المجانيق على الأبراج . فأمر زفر أن ينادى أهل
عسكر عبد الملك ، فيقال لهم : لم وضعت المجانيق علينا ؟
ف فعلوا . فقالوا : لنسلم ثلثة نقاتلكم عليها . فقال زفر : قولوا
لهم انا لا نقاتلكم من وراء الحيطان والأبواب ، ولكن نخرج
اليكم .

فلما أصبح زفر دعا الهذيل ابنه ، فقال : اخرج اليهم ،
فشد عليهم شدة لا ترجع عنها حتى تضرب فسطاط
عبد الملك . والله لئن رجعت دون أن تطأ أطناب فسطاطه ،
لأقتلنك . فجمع الهذيل خيله وحمل عليهم ، فصبروا قليلا ،
ثم انكشفوا ، وتبعهم الهذيل بخيله حتى وطئوا أطناب
الفسطاط وقطعوا بعضها ، ثم رجعوا . فقبل زفر رأس
الهذيل ، وقال : لا يزال عبد الملك يحبك بعدها أبدا .
وهكذا جرت أعمال فروسية مثل هذه ، تدل على الجرأة
والشجاعة المعروفة عند العرب .

وظل عبد الملك يقاتل زفر ويحاصره ، أربعين يوما .
ورمى المدينة بالمجانيق ، حتى ثلم عامة بروجها . وفي أثناء
ذلك ، كتب عبد الملك الى زفر كتابا يدعو فيه الى الطاعة
ولزوم الجماعة ، ويرغبه ويرهبه . وبعث بالكتاب مع رجاء
ابن حيوة والحجاج بن يوسف — كسفيرين في الصلح —

فقال الهذيل بن زفر لأبيه : لو صالحت هذا الرجل ، فقد
أكلتك وقومك الحرب ، وأنت مذ سنين في هذه المدينة .
وقد أعطى الناس الرجل طاعتهم واجتمعوا عليه ، وهو خير
لك من ابن الزبير . وأمر عبد الملك أخاه محمد بن مروان
أن يعرض على زفر وابنه الهذيل الأمان ، على أنفسهما ومن
معهما ، وأن يعطيا ما أحبا .

فأجاب زفر والهذيل . واتفق الجانبان على الصلح .
وهكذا استقر صلح زفر بن الحارث : على أن آمنه عبد الملك
وابنه وكل من معه ، وعلى العفو عن الدماء والأموال ، وأن
لا يقاتل زفر مع عبد الملك حتى يموت عبد الله بن الزبير ،
ليبعته له ، وأن يعطى مالا يقسمه في أصحابه .

فهكذا تم الصلح ، ونزل زفر فقابل عبد الملك ، فأكرمه
هذا وأجلسه على سريره . ثم توثقت العلاقات بين البيتين
بالمصاهرة . وبذا انتهت مسألة قرقيسيا التي استمرت سبع
سنوات ، وكانت كالشوكة في جنب دولة الشام ، وعقبة
منعت الاستيلاء على الجزيرة : أي شمال العراق ، وأثارت
زوابع من العصبية القبلية كدرت أمن الدولة . فأنتهى
أمرها وأمر زفر . واستولى عبد الملك على المدينة . وأصبح
الطريق مفتوحا أمامه للدخول الى العراق . فلم يضيع وقتا ،

وأخذ يستعد للزحف للالتقاء مع خصمه في الموقعة الفاصلة،
في العام التالي .

الموقعتان الفاصلتان :

١ - الأولى :

الاستيلاء على العراق

عزم عبد الملك اذن على المسير الى العراق لقتال مصعب،
وذلك في خلال عام ٧٢ هـ .

وقبل أن يسير ، كان قد عقد مجلس شورى من بنى
أمية وكبار القواد ، فاختلفت آراؤهم . فأشار عليه عمه
« يحيى بن الحكم » أن يقنع بالشام ، ويترك ابن الزبير
والعراق — وكان عبد الملك يستشير يحيى ، ثم يعمل بعكس
رأيه . وقال خالد بن عبد الله : ان العام جذب ، وقد غزوت
سنتين ونصرك الله ، فأقم عامك هذا . فقال عبد الملك :
الشام بلد قليل المال ، ولا آمن نفاده . وقد كتب كثير من
أشراف العراق يدعوننى اليهم . وقال أخوه محمد بن
مروان : الرأى أن تطلب حقلك وتسير الى العراق ، فانى
أرجو أن ينصرك الله . وقال بعض الرؤساء من أهل الشام :
الرأى أن تقيم وتبعث بعض أهلك ، وتمده بالجنود . وذلك
خشية أن يصاب عبد الملك في الحرب . فقال عبد الملك :

انه لا يقوم بهذا الأمر الا قرشى له رأى . ولعلى أبعث من له شجاعة ولا رأى له . وانى بصير بالحرب شجاع بالسيف ، ان ألجئت اليه . ومصعب شجاع من بيت شجاعة . ولكنه لا علم له بالحرب ، يجب الخفض . ومعه من يخالفه ، ومعنى من ينصح لى . فأجمع رأيه على السير .

ولما عزم على المسير ، ودع زوجته « عاتكة » بنت يزيد — فبكت — وبكى جواريتها لبكائها . فقال : قاتل الله كثير عزة ، لكأنه يشاهدنا حين يقول :

إذا ما أراد الغزو ، لم يثن همه

حصان ، عليها عقد در يزينا

نهته . فلما لم تر النهى عاقه

بكت . فبكى مما عناها قطينها

ثم سار ، قائدا جيشه وعدده خمسون ألفا . حتى وصل الى « مسكن » على مقربة من شاطئ دجلة فى شمال العراق .

فلما بلغ مصعبا مسير عبد الملك أرسل الى المهلب بن أبى صفرة يستدعيه ، وأراد أن يخرج معه . فأبى أهل البصرة وقالوا : لا نسير ، ولا نأمن أن تترك ديارنا وراءنا إلا اذا كان المهلب على جرب الخوارج ، فأمره مصعب أن يبقى

في مهمته . وأرسل الى ابراهيم بن الأشتر — وكان على ولاية الموصل — فأحضره وجعله على مقدمة جيشه . وأطلع ابراهيم مصعبا على ما دار من مكاتبة بين أهل العراق وعبد الملك ، وجاء بالكتاب الذي بعثه اليه عبد الملك مختوما ، فقرأه مصعب ، فوجد عبد الملك يمني ابراهيم بولاية العراق . فنصح ابراهيم مصعبا أن يقتل هؤلاء الذين كاتبوا عبد الملك أو ينفيهم الى المدائن ويحبسهم ، فرأى مصعب أن هذا يثير عليه عشائريهم . وقال حينئذ : « رحم الله أبا بحر (الأحنف بن قيس) ، ان كان ليحذرني غدر أهل العراق ، ويقول : هم كالمومسة تريد كل يوم بعلا ، وهم يريدون كل يوم أميرا » ! وسار مصعب بجيشه — وقد خذله كثير — حتى أصبح قريبا من معسكر عبد الملك بمسكن : ولذا تنسب هذه الموقعة الى ذاك المكان .

ولما تدانى العسكران ، أرسل عبد الملك الى مصعب يعرض عليه أن يدع دعاءه الى أخيه ، ويدع هو دعاءه الى نفسه ، ويجعل الأمر شوري بين المسلمين . فأجابه مصعب : السيف بيننا . ثم بدأ القتال . وكان على مقدمة جيش عبد الملك أخوه محمد بن مروان ، وعلى مقدمة جيش مصعب ابراهيم بن الأشتر . فالتقى الفريقان . فبعد معركة

قتل صاحب لواء محمد ، وجعل مصعب يمد ابراهيم ،
فأزال محمدا عن موقعه . فوجه عبد الملك عبد الله بن يزيد
الى أخيه محمد . فاشتد القتال ، فقتل مسلم بن عمرو
الباهلي — والد قتيبة — وهو من أصحاب مصعب . وأمد
مصعب ابراهيم بعتاب بن ورقاء على الخيل ، فساء ذلك
ابراهيم وقال : قد قلت له لا تمدني بعتاب وضربائه ، وانا لله
وانا اليه راجعون . فانهزم عتاب بالناس — وكان قد كاتب
عبد الملك وبايعه — فلما انهزم ، صبر ابن الأشر ، فقتل .

وتقدم أهل الشام فقاتلهم مصعب . وقال لأحد القواد :
قدم خيلك . فقال : أكره أن تقتل عشيرتي في غير شيء . فقال
لآخر مثل ذلك ، فلم يتقدم . فقال لثالث ، فقال : ما فعل
أحد هذا ، فأفعله ، فعندئذ قال مصعب : « يا ابراهيم ،
ولا ابراهيم لي اليوم ! » . وبدأت الهزيمة في جانبه . فدنا
منه محمد بن مروان ، وناداه : أنا ابن عمك ، فاقبل أمان
أمير المؤمنين . فقال : أمير المؤمنين بمكة . قال له : فان
القوم خاذلوك . فأبى ما عرض عليه . فعرض محمد الأمان
على عيسى بن مصعب فأبى أن يخذل أباه . ولما صار القوم
يتخلون عن مصعب ، صمم على القتال ، وأنشد :

وان الألى بالطف ، من آل هاشم

تأسوا . فسنوا للكرام التأسيا .

يشير الى موقف الحسين السابق ، في موقف كهذا .

وظل يقاتل هو وابنه ، وأبى ابنه أن يترك المعركة كما
أشار عليه أبوه ، الى أن قتل : أي عيسى بن مصعب . وعرض
عبد الملك الأمان على مصعب ، وقال له : انه يعز عليّ أن
تقتل . فاقبل أمانى ، ولك حكمك فى المال والولاية . فأبى .
وجعل يضارب . فقال عبد الملك : هذا كما قال القائل :
ومدجج كره الكماة نزاله

لا ممعن هربا ، ولا مستسلم

وظل مصعب يقاتل الى أن أثخن بالرمى وكثرت
الجراحات فيه ، وتخلّى عنه الناس حتى بقى فى سبعة أنفس ،
ثم قتل . فأسف عبد الملك لمصرعه ، حيث كان يود لو قبل
منه الأمان . وقال — حين وضعت رأسه بين يديه — :
« متى تلد قرشية مثلك ! » . وقال : « كانت والله الحرمة
بيننا قديمة . ولكن هذا الملك عقيم ! » . وتحدث عنه غير
مرة ، مشيا على شجاعته وشدة بأسه ومروءته .

ودعا عبد الملك جند العراق فبايعوه . وسار حتى دخل
الكوفة ، وخطب الناس فوعد المحسن وتوعد المسيئ ، ودعا
الناس الى البيعة فبايعوه . وهكذا تم لعبد الملك النصر ،
واستولى على الكوفة والعراق — وكم كان هذا أملا عزيزا

بعيد التحقيق — فمكنه الله منه . وبذا اتسعت حدود دولته ،
وأصبح قريبا من تحقيق هدفه الأكبر ، وهو توحيد الدولة .
ولكنه وهو في ذروة المجد لم ينس غرور الدنيا وزوالها ،
وظهرت فيه طبيعة العابد الناسك القديم ، فتذكر الآخرة ،
وذلك حين صنع له أحد زعماء العراق مائدة في قصر
الخورتق — مقر ملوك الحيرة — وأمر عبد الملك أن تكون
عامية ، فأذن للناس فدخلوا ، فبعد أن فرغوا من طعامهم ،
وأقبل عبد الملك يطوف في القصر ، وهو يسأل مضيفه : لمن
هذا البيت ، ومن بنى هذا ؟ فيخبره — جعل عبد الملك
ينشد :

وكل جديد يا أميم الى البلى

وكل امرئ يؤما يصير الى كان

ثم أتى مجلسه فاستلقى ، وأنشد :

اعمل على مهل ، فانك ميت

واكدح لنفسك أيها الانسان

فكأن ما قد كان لم يك ، اذ مضى

وكأن ما هو كائن قد كان

وأقام عبد الملك بالعراق مدة ، فولى الولاية على

المصريين : الكوفة ، والبصرة ، وسائر أعمال العراق . وبعث

وهو بالكوفة جيشا عدده ثلاثة آلاف أو أكثر ، جعل قيادته
للحجاج بن يوسف الثقفي ، وذلك لمحاربة عبد الله بن الزبير
بمكة . وكان ممن ولاهم عبد الملك : أخوه بشر بن مروان
على الكوفة ، وخالد بن عبد الله (وهو أموي) على البصرة ،
ليتولى حرب الخوارج . ثم رجع الى الشام . وذلك
سنة ٧٢ هـ .

٢ - الموقعة الثانية :

الاستيلاء على الحجاز

لما بلغ عبد الله بن الزبير خبر قتل أخيه مصعب ، قام في
الناس فخطب خطبة تعد من أبلغ وأروع ما يقال في مثل هذه
الموقف : عبر فيها عن جلده وصبره عند الشدائد ، وتسليمه
لقضاء الله ، واستنهايته بأمر الدنيا . وقال في آخرها : « ألا انما
الدنيا عارية من الملك الأعلى الذي لا يزول سلطانه ولا يبدل
ملكه ، فان تقبل لا آخذها أخذ الأشر البطر ، وان تدبر
لا أبك عليها بكاء الضرع المهين » . وأعلن عزمه على مواصلة
القتال .

كان هذا هو شعور عبد الله بن الزبير ، وهو الشعور
الجدير بمثله . لكن في الحقيقة كان الموقف قد أصبح في غاية

الخروجة بل الخطورة ، بالنسبة له . فان استيلاء منافسه :
عبد الملك على العراق كان معناه أن دولته بالحجاز قد صارت
أيامها معدودة . فان العراق اذا انضم الى الشام ومصر ، فقد
أصبح في يد عبد الملك معظم الدولة الأصلية الكبرى ومعظم
القوة ، ولن يستطيع الحجاز أن يقف أمامها طويلا . على أن
العراق كان هو الجناح الأيمن الذي يحمى الحجاز ، وكان
ابن الزبير يستمد منه المدد لصد غارات الشام ، فالآن قد
انكسر الجناح وضاع ، وذهبت الحماية . ولذا فان عبد الملك
كان مصيبا حين اختار أن يوجه ضربته الأولى القاضية الى
العراق ، لا الى الحجاز . وكانت هذه هي « الاستراتيجية »
أو الخطة الحربية السليمة . فأصبح الحجاز بعدئذ محصورا ،
وغدا ابن الزبير محصورا في مدينته « مكة » . وهذا القطر
قليل الموارد ، فيمكن أن يسلم حتى بالحصار ، من غير حرب .
وجاء الحجاج — أحد جبابرة العرب — بجيشه الذي
ذكرناه ، فوصل الى الحجاز ونزل بالطائف . وهي بلدته
الأولى لأنه من ثقيف — ثم بدأ حصاره لعبد الله بن الزبير
في مكة في أول ذي القعدة من عام ٧٢ هـ . وبعد المناوشات
التمهيدية أرسل الى عبد الملك يستمده ، فأمدّه بجيش آخر
على رأسه طارق بن عمرو . فاحتل هذا الجيش المدينة في

طريقه ثم وصل الى مكة ، وانضم الى الحجاج . والواقع الذى يسجله التاريخ أن عبد الله بن الزبير ، ومن ثبت معه ، قد ضربوا مثلاً رائعاً فى الشجاعة والصبر ، اذ استطاعوا أن يصدوا أمام هذا الجيش المحاصر لهم — مع تفوقه عليهم فى العدد والعدة والمثونة — وحالوا بينه وبين أن يستولى على مكة والحرم ، مدة طالت نحو سبعة أشهر — على حين أنه كان يكفى مثل هذا الجيش نحو شهر — أو أقل — لتمام المهمة . وقد لجأ الحجاج الى استخدام المنجنيق ، فنصبه على جبل مشرف على مكة ورمى به خصومه . ويروى أن الحجارة كانت تقع بين يدي ابن الزبير وهو يصلى ، فلا ينصرف . لكن الحصار كان لا بد أن يحدث أثره ، بمرور الوقت . فنضبت المؤن وأصاب أهل مكة مجاعة شديدة ، أجهدتهم مع القتال . وكان الحجاج — وفقاً لما أمره به عبد الملك — قد عرض الأمان على عبد الله بن الزبير وأصحابه ، وأهل مكة . فلما طال الحصار وبلغ الجهد بالناس غايته ، رأى أكثرهم أن يخرجوا الى الحجاج ويقبلوا الأمان . فأخذوا يتخلون عن عبد الله بن الزبير ، حتى بلغ من خرجوا من عنده عشرة آلاف ، ومن ييشهم ابنه : حمزة وخبيب ..

حديث بين أم عريية وابنها

فلما رأى عبد الله قلة من معه ، وأن المعركة قاربت نهايتها — دخل على أمه ، وهي السيدة أسماء بنت أبي بكر ، ليودعها . فجرى بينه وبينها حديث ، يعد من أعظم ما سجل من أحاديث في أوقات الخطر ، ويشهد بقوة النفس والبطولة : لكل من الأم العريية وابنها البطل .

قال عبد الله : « يا أماه ، قد خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ، ولم يبق معي الا اليسير ، ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة . والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا . فما رأيك ؟ » فقالت : أنت أعلم بنفسك . ان كنت تعلم أنك على حق واليه تدعو ، فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك . ولا تمكن من رقبته ، يتلعب بها غلمان بني أمية . وان كنت انما أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ومن قتل معك . وان قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ، ولا أهل الدين . كم خلودك في الدنيا ؟ القتل أحسن ! .

فقال : يا أماه ، أخاف ان قتلني أهل الشام أن يمشلوا بي ويصلبوني . .

قالت : يا بني ، ان الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها .
فامض على بصيرتك ، واستعن بالله .
فقال : هذا والله رأيي ، والذي قمت به داعيا الى يومى
هذا . ما ركنت الى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها .
فقالت أمه : انى لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك
حسنا . ان تقدمتنى احتسبتك ، وان ظفرت سررت بظفرك .
اخرج حتى أنظر الى ما يصير اليه أمرك .
فقال : جزاك الله خيرا ، فلا تدعى الدعاء لى .
قالت : لا أدعه لك أبدا . فمن قتل على باطل ، فقد قتلت
على حق .

ثم قالت : اللهم ارحم طول ذاك القيام فى الليل الطويل ،
وذلك النحيب والظما فى هواجر مكة والمدينة ، وبره بأبيه
وبى . اللهم قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت .
فأثبنى فيه ثواب الصابرين الشاكرين .

فقبل يدي أمه ، ثم خرج ، فعبا أصحابه ، وحرصهم وقال .
لهم احملوا على بركة الله . ولا يلهينكم السؤال عنى ، فمن
كان سائلا عنى فانى فى الرعيل الأول . وحمل على مهاجميه
حملة منكرة ، فقتل منهم ، ثم تكاثروا عليه فانكشف هو
وأصحابه . فقال له بعضهم : لو لحقت بموضع كذا . قال :

« بئس الشيخ أنا إذا في الاسلام ، لئن أوقعت قوما فقتلوا ،
ثم فررت عن مثل مصارعهم » . وظل يقاتل قتال الأبطال ،
وهو « مثل الأسد في أجمة » ! حتى أثخنه الجراحات ،
وقتل . وكان قتله يوم الثلاثاء لسبع عشرة مضت من
جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ . وهكذا انتهت فترة من التاريخ
استمرت تسع سنوات متتالية ، منذ قام عبد الله بن الزبير
يدعو الى نفسه بالخلافة — عقب موت يزيد في عام ٦٤ هـ —
وكم حدث في هذه الفترة من وقائع وخطوب . وعلى الأثر ،
دخل الحجاج مكة واستولى عليها ، فبايع أهلها لعبد الملك
ابن مروان . وبدأ منذ ذلك الوقت عهد جديد .

* * *

فالآن قد استولى عبد الملك على الحجاز ، كما استولى
في العام السابق على العراق . وكان تحت يده الشام ومصر .
فاجتمعت اذن هذه الأقطار — وهى الأركان الأربعة للوطن
العربى ، والعمد الرئيسية لدولة الاسلام — اجتمعت مرة
أخرى لتكون دولة واحدة ، تحت لواء خليفة واحد . فالنقطة
المهمة في الموضوع أن المنافس في الخلافة ، وهو ابن الزبير ،
قد انتهى ، وانتهت دولته التى بها كانت تنشطر الدولة
الأصلية الموحدة الى قسمين ، فلم يعد هناك مدع للخلافة

أو أعلن حقه فيها ، ولم يعد الولاء موزعا ، وإنما قد أصبح في الدولة العربية الإسلامية خليفة واحد ، وهو عبد الملك ابن مروان ، وهو وحده الذي يدعى « أمير المؤمنين » . وأصبح لهذه الدولة كلها عاصمة واحدة الآن ، وهي « دمشق » .

والكلمة الأخيرة التي تقال عن عبد الله بن الزبير أنه كان رجلا مسلما تقيا عابدا الى درجة مثالية ، كما كان شجاعا أيا الى درجة البطولة — كما رأينا — وكان يعتقد أنه على الحق وأنه يدعو للحق ، ومن أجل هذا جاهد وقاتل . لكن هذا كله لا يعنى أنه كان كفؤا — أيضا — بدرجة متساوية — في ناحية السياسة والادارة ، وتصريف الأمور وقيادة الجماهير . بل الواقع — الذي رأيناه — أنه كان ينقصه كثير من الصفات اللازمة لتوفر هذا الشرط : كان أقل من عبد الملك كثيرا ، في ذلك . وقد بينا في الماضي أهم صفاته وعيوبه ، وحللنا العوامل التي أدت الى عدم نجاحه . فلا نحتاج لاعادتها هنا . لكننا نذكر بعامل هام ، وهو ملازمة ابن الزبير لمكة لا يبرحها أبدا . فهل مما يشهد على الكفاءة في القيادة والادارة ، والنجاح في الزعامة السياسية ، أن تحكم الدولة وتدار وتوجه والقائد أو الزعيم غائب عنها ، معتكف

في مكان بعيد لا يريد أن يفارقه ؟ ! . وعلى الأقل — كان عبد الملك شابا بالنسبة الى ابن الزبير ، الذي كان شيخا كبيرا . فهذه الصفة تساعد الأول على النشاط ، وتمكنه من مباشرة الأمور . كما أن عبد الملك كان — قطعاً ، كما عرفنا من سيرته السابقة ، في حياته الطويلة بالمدينة — كان أرقى ثقافة دينية وعربية من ابن الزبير ، وأكثر ذكاء وخبرة عملية . ان بنى أمية — على العموم — كانوا ممتازين في السياسة والادارة . وعبد الملك كان من أكفئهم في ذلك .

أمثلة البطولة العربية

وقبل أن نجتاز هذه الفترة من حياة الأمة — فترة الخلاف والانقسام والحروب — أو فترة الفتنة كما كانت تسمى — ويمكن أن يقال انها بدأت منذ عام ٦١ هـ — منذ خروج الحسين الى الكوفة ، واستمرت الى هذا العام ٧٣ هـ ، فانتهدت بمقتل عبد الله بن الزبير في مكة — أي أنها استمرت ثلاثة عشر عاماً — نقول : اننا نريد أن نلاحظ ، قبل أن نعبرها ، أننا شاهدنا — في نفس الوقت — مظاهر مثيرة من حيوية أمة العرب والاسلام ، وأن كل فريق قام ليدافع عما يعتقد أنه الحق . وشاهدنا أمثلة رائعة من البطولة وقوة

الشخصية العربية الأصيلة التي لا تقبل الذل ، وتفضل الموت في كرامة على الحياة الذليلة . وعرفنا كيف أنها تقدر الشرف فوق الحياة ، وكل عروض الدنيا . فكانت قوة مستمدة من روح العروبة الحققة ، ومن قوة عقيدة المسلم وعزة نفسه . رأينا كيف قابل الأبطال الموت في كبرياء وتحدي ، فعاشوا أمجادا وماتوا كراما . وهكذا رأينا مصارع عبد الله بن الزبير ، ومن قبله أخوه مصعب بن الزبير ، وإبراهيم بن الأشتر ، ومن قبلهم المختار بن أبي عبيد ، وسليمان بن صرد ، والمسيب بن نجبة . وقبل الجميع البطل الأكبر ، الذي تحدى جيشا بمفرده ، وانتصر عليهم بقوة ارادته وروحه ، وهو الحسين عليه السلام . ولو اضطرت الظروف عبد الملك أن يقف في مثل هذه المواقف الحرجة ، لكان مثل هؤلاء الأبطال ، ولقابل الموت في شجاعة بدلا من التسليم بالذل ، لأنه عربي مثلهم مؤمن مثلهم ، بل من أصفى معادن العروبة ، وعلى درجة عالية من قوة الايمان . لكنه لم يضطر الى ذلك ، لأنه وفق في حياته وانتصر في النهاية في حروبه ، واستعمل السياسة الموضلة الى الغايات قبل السيف ، وكتب الله له أن يكون القائد الذي يوحد صفوف الأمة ، والزعيم الذي يجمع شملها ويعيد وحدتها وقوتها .

الفصل الثامن

عام الجماعة وإتمام الوحدة

لما كان عام ٧٤ هـ هو أول عام يحل وكلمة الأمة مجتمعة بعد خلاف طويل ، وقد انتهى النزاع حول الخلافة ، فقد سمى الناس هذا العام بعام الجماعة . والمقصود بالجماعة : الوحدة . وهو عام الجماعة الثاني ، لأنه سبق عام جماعة أول — وكان ذلك عام ٤١ هـ حين اجتمعت كلمة الأمة على معاوية ، بعد تنازل الحسن بن علي .

وقد تمت البيعة لعبد الملك بن مروان في الحجاز والعراق ، كما تمت البيعة له من قبل في الشام ومصر . وكانت البيعة جاءت أيضا من خراسان في عام ٧٢ هـ — أرسلها إليه بكير بن وشاح السعدي الذي كان نائبا على « مرو » ، وذلك بعد مقتل عبد الله بن خازم ، الذي تغلب على خراسان ثمانى سنوات ، وكان مواليا لابن الزبير . ثم تأكدت بيعة خراسان في هذا العام ٧٤ هـ . وأرسلوا يطلبون من عبد الملك أن يولي عليهم أميرا قرشيا ، حتى

لا تختلف عليه القبائل . فولى عليهم « أمية بن عبد الله »
— وهو أموى قرشى أخو « خالد بن عبد الله » ، الذى
ولاه على البصرة .

وبايع من الزعماء الذين يعتد برأيهم المهلب بن أبى صفرة
— وكان القائد على حرب الخوارج — فأرسل يبيعه الى
عبد الملك بن مروان ، عندما علم بمقتل مصعب فى عام ٧٢ هـ ،
وأخذ البيعة لعبد الملك على الجند . فأقره عبد الملك على
عمله ، وسر بطاعته . وتوجه عروة بن الزبير على اثر مقتل
أخيه عبد الله الى عبد الملك ، فوفد عليه فى دمشق وبايعه
— وكان صديقا له من قبل فى المدينة — وأخذ الأمان لنفسه
وأهله . وبايع عبد الله بن عمر عقب مقتل عبد الله بن الزبير ،
فكتب الى عبد الملك يقول : « لعبد الملك بن مروان من
عبد الله بن عمر . سلام عليك . فأنى أقررت لك بالسمع
والطاعة على سنة الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .
وبيعة نافع مولاي على مثل ما بايعتك عليه » . كذلك بايع
محمد بن الحنفية (أخو الحسين . وهو ابن على بن أبى طالب).
ولييعته أهمية كبيرة ، لأنه عميد بنى هاشم فى ذلك الوقت ،
وزعيم الشيعة . فهو يمثل إحدى طوائف الأمة . فبعد مقتل
عبد الله بن الزبير ومبايعة عبد الله بن عمر لعبد الملك ، قال
عبد الله بن عمر لمحمد بن الحنفية : « ما بقى شيء ، فبايع » .

فكتب ابن الحنفية الى عبد الملك : « بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين من محمد بن علي . أما بعد ، فاني لما رأيت الأمة قد اختلفت اعتزلتهم . فلما أفضى هذا الأمر اليك وبايعك الناس ، ورأيت الناس قد اجتمعوا عليك ، كنت كرجل منهم أدخل في صالح ما دخلوا فيه . فقد بايعتك ، وبايعت الحجاج لك ، وبعثت اليك ببيعتي . ونحن نحب أن تؤمننا وتعطينا ميثاقا على الوفاء » . فكتب اليه عبد الملك : « انك عندنا محمود . أنت أحب وأقرب إلينا رحما من ابن الزبير . فلك العهد والميثاق وذمة الله وذمة رسوله أن لا تهاج ولا أحد من أصحابك بشيء تكرهه . ارجع الى بلدك واذهب حيث شئت . ولست أدع صلتك وعونك ، ما حييت » . وكتب الى الحجاج يأمره بحسن جواره وإكرامه . فرجع ابن الحنفية الى المدينة وبنى بها داره وأقام بها .

وكان مما كتب عبد الملك الى الحجاج في هذا الشأن : « لا تعرض لمحمد ولا لأحد من أصحابه » . وكان في كتابه « جنبني دماء آل أبي طالب . فليس فيها شفاء من الحرب . واني رأيت بني حرب سلبوا ملكهم ، لما قتلوا الحسين بن علي » . وبناء عليه ، لم يتعرض الحجاج لأحد من الظالمين في أيامه . وهذا الأمر من عبد الملك يدل على حكمته السياسية وسعة صدره وأفقّه ، وأنه استخلص العبرة من

الأخطاء التي ارتكبها يزيد ، فلا يريد أن يقع فيها . وظلت علاقة « محمد بن علي » به طيبة . فكتب اليه محمد يستأذنه في القدوم عليه فأذن له ، فلما جاءه في عام ٧٨ أكرمه ووصله ، وقضى ديونه وحوائجه . وهكذا حتى مات محمد في عهد عبد الملك في عام ٨١ هـ آمنا سعيدا . أما آل العباس فكانوا انضموا أيضا الى عبد الملك من قبل ، وكان عبد الله بن العباس لما امتنع عن البيعة لابن الزبير — كما ذكرنا من قبل — أرسل ابنه « عليا » الى عبد الملك وباعه . فظل « علي » — وهو جد الخلفاء العباسيين — مع عبد الملك حتى خرج معه لقتال مصعب . وبقي موضع العطف والرعاية . وهكذا كانت العلاقات حسنة بين عبد الملك ، أو بنى أمية على العموم ، وبنى عمهم من بنى هاشم — علويين وعباسيين — وذلك في عهد عبد الملك . وظلت العلاقات حسنة بين الأسرتين مدة غير قصيرة بعد ذلك . وهذا مما يشهد بحسن السياسة .

ولا شك أن من أهم العوامل التي ساعدت عبد الملك على النجاح ، ودعت الناس — ولا سيما هؤلاء الزعماء — الى الالتفاف حوله والرضا به ، والاقبال على مبايعته — على خلاف ما كان الحال مع غيره — هو شخصيته ومعرفة الناس أنه يتمتع بالصفات المتميزة التي تؤهله للزعامة

أو تتوافر فيه الشروط اللازمة للخلافة . وفي مقدمة ذلك ما عرف عنه من طيب النشأة وحسن السيرة والخلق — على النحو الذى وصفنا فى أثناء حياته الطويلة بالمدينة — واجتهاده فى العبادة والعلم . ولا نعرف ما يدل على أن هذه السيرة قد تغيرت بعد توليه الخلافة ، وأن كان وقته قد أصبح مشغولا بشئون السياسة والحرب والادارة أكثر من غيرها . ولكن هذه أيضا خدمة للمسلمين ، وعبادة جليلة بل من أجل ضرور العبادة .

فالآن قد أعان الله عبد الملك على تحقيق هدفه الأكبر والأمنية الغالية لجميع المسلمين وهى جمع شمل الأمة وتوحيدهم فى دولة واحدة . وهذا هو الضمان لبقاء الأمة وازدياد قوتها . وقد كلل عبد الملك هذه المرحلة من النجاح بأن توجه الى الحج ، فذهب الى الحجاز وحج بالناس فى موسم عام ٧٥ هـ . وأقام مدة بمكة ثم المدينة ، وتحدث الى الناس وخطبهم ورسم لهم سياسته . والواقع أن تحركه من دمشق الى مكة والمدينة فى تلك السنة إنما كان موكب الظفر ، لدخوله المدن التى كان فيها خصومه والتى طالما شنت الحرب . فها هى ذى تعود لتبايعه وترضى به — وما كان عبد الملك غريبا عن المدينة — ومنذئذ يندمج الحجاز مع الأقطار الأخرى فى الدولة الواحدة : دولة العرب والإسلام الموحدة ، التى ستستأنف سيرها نحو النصر .

معارك تصفية

لا تمام الوحدة

تحققت وحدة الدولة ، وبائع العواصم والأقطار لعبد الملك . لكن فئة شاذة ، قليلة بالنسبة الى كثرة الأمة ، بقيت خارجة — كالأبها — على ارادة الجماعة . وهم المتطرفون ، الذين أداهم تعصبهم الى المروق من الدين ، وشنوا الحرب على المسلمين ، وهم الخوارج . وكانوا طائفتين : طائفة ببلاد فارس وهم الأزارقة ، وكانوا أشدهم ، وطائفة باليمامة ، وهم أتباع نجدة وأبى فديك . كما كانت هناك جماعات أخرى صغيرة .

غير أن مسألة الخوارج — بعد توحد الدولة — قد أصبحت أشبه بحركة تمرد ، وصارت مشكلة محدودة ، وباتت نهايتها قريبة ومحتومة . وكل ما كان يتطلب هو أن تصدق الجهود وتعد القوة الكافية وتوضع الخطة السليمة ، لمقاومتها والقضاء عليها . على ان الخوارج — وقد عرفوا بالبطولة والحماسة وشدة البأس — كانوا لابد أن يكلفوا الدولة جهودا وأعباء غير قليلة ، ويخوضوا معارك عنيفة ، قبل أن يقضى عليهم نهائيا . ومهما يكن من أمر المعارك

الباقية ، فهي لا تصح أن تسمى الا أنها « معارك تصفية » .
ونكتفى بإيراد موجز تاريخي لها .. وستكون هذه المشكلة
هى المناسبة لظهور شخصية معروفة : هى شخصية
« الحجاج » .

اهتم عبد الملك بأمر الخوارج بمجرد أن استولى على
العراق ، عقب مقتل مصعب عام ٧٢ هـ . وأرسل اليه المهلب
حينئذ يبيعه ، وبيعة جنده . فعين عبد الملك على البصرة
أحد رجال بنى أمية ، وهو « خالد بن عبد الله » وأمره بقتال
الخوارج . وكان رئيس الخوارج حينئذ هو « قطرى بن
الفجاءة » . وكان المهلب يحاربه طوال مدة مصعب ولم يقدر
على انزال هزيمة كبيرة به ، لضعف دولة ابن الزبير واختلال
الأحوال . لكن المهلب كان أعرف الناس بالخوارج ، وأصلح
قائد لقيادة الحرب ضدهم . فارتكب « خالد » بعد أن ولى
البصرة خطأ كبيرا ، وهو أنه عزل المهلب عن ولاية الحرب ،
وعينه على ولاية الخراج بالأهواز . وبعث مكانه أخاه
« عبد العزيز بن عبد الله » ، على رأس جيش جديد . فهزم
عبد العزيز هزيمة منكرة ، على يد قطرى والخوارج ، وتفرق
جيشه . فلما بلغ عبد الملك الخبر ، أرسل يثوب « خالدا »
تأنيبا شديدا ، لبعثه أخاه « أعرايا من أهل مكة » على

القتال ، وتركه المهلب الى جانبه يجبى الخراج ، « وهو الميمون النقيبة ، الحسن السياسة ، البصير بالحرب ، المقاسى لها ابنها وابن أبنائها » — كما قال عبد الملك . وأمره أن يعيد المهلب الى الحرب ، ويستشير في كل الأمور .

وفي نفس الوقت ، كان خالد قد بعث بجيش آخر — على رأسه أخ ثان له ، هو « أمية بن عبد الله » — ليقا تل الخوارج الآخرين ، الذين هم باليمامة . وكان رئيسهم اذ ذاك هو « أبو فديك » ، الذى خرج منذ قليل على « نجدة بن عطية » الزعيم السابق ، وقتله . فسار أمية بجيشه ، فهزمه أبو فديك وتفرق عنه القوم ، فعاد وعادوا الى البصرة .

فبعد أن كتب عبد الملك الى خالد بما مر ، خرج خالد بنفسه ، وأحضر معه المهلب . وأمد به بشراب مروان — الذى كان والى الكوفة — بجيش آخر — كما أمره أخوه عبد الملك — فأحرز خالد نصرا على الخوارج ، واضطرهم الى التقهقر عن الأهواز . وأرسل وراءهم من يتبعهم ، ويقتل فيهم . وأمر عبد الملك بشرا أن يرسل أيضا مددا من الكوفة ، على رأسه « رجل شجاع بصير بالحرب » فأرسل مددا ، عليه عتاب بن ورقاء . فما زال الجندان يتبعان الخوارج ، حتى نفقت خيولهم وأصابهم الجهد . فرجعوا الى البصرة .

وفي العام التالي ٧٣ هـ ، وجه عبد الملك عمر بن عبيد الله بن معمر — وهو القائد المجرب ، نظير المهلب — على رأس جيش كبير ، لقتال خوارج أبي فديك . فلما انتهى عمر بجيشه الى البحرين ، حدثت موقعة عنيفة ، كاد أن يهزم فيها ، لولا ثبات أهل الكوفة وأبطال البصرة . ثم دارت الدائرة على أبي فديك ، فقتل ، وهزم جيشه وحصر . ثم نزلوا على حكم عمر بن عبيد الله ، فقتل أكثرهم ، وأسر أعداداً كبيرة . وانتهى أمر هؤلاء الخوارج .

بشر بن مروان

عزل عبد الملك خالدا عن البصرة في ذاك العام ٧٣ هـ ، وولى عليها أخاه بشرا مع الكوفة . فأصبح بشر بن مروان والى العراق كله . وبعث اليه عبد الملك حينئذ ، بهذا الكتاب : —

« أما بعد ، فابعث المهلب في أهل مصره الى الأزارقة . ولينتخب من أهل مصره وجوهم وفرسانهم وأولى الفضل والتجربة منهم ، فانه أعرف بهم . وخكّه ورأيه في الحرب ، فاني أوثق شيء بتجربته ونصيحته للمسلمين . وابعث من أهل الكوفة بعضا كثيفا ، وابعث عليهم رجلا معروفا شريفا

حسبنا صليبا ، يعرف بالبأس والنجدة والتجربة للحرب .
ثم أنهض اليهم أهل المصريين ، فليتبعوهم أى وجه ما توجهوا
حتى يبيدهم الله ويستأصلهم . والسلام عليك » .

وهذه الرسالة والأحداث السابقة تدل على شدة اهتمام
عبد الملك بمسألة الخوارج ، وتشهد بإشرافه على الأمور
ومباشرة لأعمال الدولة . فهو الذى يصدر التوجيهات
ويضع الخطط ويرسم الحلول . وهذا دليل على كفاءته
وسهره على مصلحة الأمة .

نقد بشر أوامر أخيه — على مضض — اذ كان ينفس
على المهلب ما بلغه من مكانة . وأرسل معه قائدا آخر
ليعارضه . وخرج الجيشان ، ولكن بعد وصولهم الى
الميدان بقليل ، جاء الخبر بنعى بشر . كانت وفاته فى
عام ٧٤ هـ . فسرى التخاذل فى الجيش ، ورفض ناس كثير
من أهل البصرة وأهل الكوفة . وأخذوا ينصرفون الى
العراق . وعبثا حاول « خالد بن عبد الله » — الذى كان
نائب بشر على البصرة ، وكان واليها من قبل — عبثا حاول
أن يرد الناس الى الميدان ، ليؤدوا واجبهم . وكتب اليهم
هذا الخطاب :

« أما بعد ، فان الله كتب على عباده الجهاد ، وفرض

طاعة ولاة الأمر ، فمن جاهد فانما يجاهد لنفسه ، ومن ترك
الجهاد في الله كان الله عنه أغنى . ومن عصى ولاة الأمر
والقثوأم بالحق أسخط الله عليه .. أيها المسلمون ، اعلموا
على من اجتراءتم ومن عصيتم . انه عبد الملك بن مروان
أمير المؤمنين ، الذي ليست فيه غمزة ، ولا لأهل المعصية
عنده رخصة . سوطه على من عصى ، وعلى من خالف سيفه .
فلا تجعلوا على أنفسكم سيلا .. » . فما أجدى كل ذلك ،
واستهتر الناس بالأوامر ، وتفرق الجند . وعادوا الى
بلادهم ، وصار الموقف خطيرا .

الحجاج في العراق

فلما بلغ ذلك عبد الملك ، قرر اتباع سياسة الشدة
والحزم ، والغلظة على أهل المعصية . ورأى أن أهل العراق
الذين مروا على العصيان ، وطالما أوضاعوا في الفتن وسلخوا
سبل الغي ، وآثروا الخلاف والشقاق — رأى أنه لا يصلحهم
إلا الشدة والقوة . « فنشر كنانته ، ثم عجم عيدانها » ، فالتقى
« أمرها عودا وأصلبها مكسرا » ، فرمى به أهل العراق .
وكان هذا العود المرير الصلب هو : « الحجاج بن يوسف
الثقفى » — الذي كان القائد في حرب عبد الله بن الزبير ،

والذى ولاه عبد الملك بعد ذلك ولاية الحجاز ٧٣ — ٧٥ ،
ثم فى هذا العام ٧٥ هـ — بعد أن فرغ عبد الملك من مشاكلة ،
وحقق وحدة الدولة — نقله من الحجاز ، وعينه واليا على
العراق كله وعلى المشرق — ماعدا خراسان وسجستان .

فجاء الحجاج الى الكوفة . وصعد منبرها ، وخطب
خطبته المشهورة التى كانت كلها تهديدا لأهل العراق ، والتى
قال فيها : « وانى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها » .
وقال : « والله لأضربنكم ضرب غرائب الابل ، حتى تذروا
العصيان وتنقادوا » . ثم قال فى آخرها : « وقد بلغنى
رفضكم المهلب ، واقبالكم على مصركم — عصاة مخالفين .
وانى أقسم لكم بالله ، لا أجد واحدا بعد ثلاثة أيام —
الا ضربت عنقه » . كانت هذه هى السياسة ، التى أعلن
الحجاج أنه سيتبعها مع أهل العراق . وهى سياسة الحكم
العرفى أو الحكم العسكرى — كما تقول اليوم — وجرى
عليها الحجاج طوال حكمه .

المهلب والخوارج

وقد أجدت هذه السياسة ، فيما يتعلق بتنفيذ الناس
الى حرب الخوارج ، ولحقوقهم بالمهلب . فاجتمع اليه جند

كثير ، وأصبح جيشه قويا مستعدا لمجابهة الخوارج ، في المعركة الأخيرة . ونشط المهلب الى حرب الخوارج ، فقاتلهم قتالا شديدا . لكن التغلب على الخوارج — مع ذلك — لم يكن بالأمر السهل ، فهم كانوا « سباع العرب » — كما وصفهم المهلب . وفي بعض المواقع ، قتل أحد كبار قواد المهلب . ثم اضطر الخوارج — كدأبهم — الى التقهقر ، واتباع الحركة السريعة . فما زال المهلب يقاتلهم ويناهضهم ، ولا يتمكن منهم من موقعة فاصلة . وذلك طوال عام ٧٦ هـ . وكان هو يفضل الصبر والمكث ، حتى تضعف قوتهم ، ويصيب منهم المقتل . فلما أجلوا عن فارس كلها ، وبعدت ديارهم ، ضاق عليهم العيش وقلت مواردهم ، وانحصروا في كزيمان . فتبعهم المهلب ، وواصل قتالهم . وكانت أشد موقعة له معهم هي موقعة « يوم البستان » ، في عام ٧٧ هـ . وكان أبناء المهلب أبطالا ، يقاتلون معه في كل هذه الحروب . وقد وفد عليهم رسول من قبل الحجاج لينظر أمرهم ، فقال للمهلب : « ما رأيت كبنيك فرسانا قط ، ولا كفرسانك من العرب فرسانا قط ، ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك قط أبأس ولا أصبر . أنت والله المعذور » . وأخيرا — وقع الخلاف بين الخوارج أنفسهم . فخلع

أكثرهم « قطرى بن الفجاءة » ، وولوا بدلا منه « عبد ربه الكبير » . وبقي مع قطرى نحو ربعهم أو خمسهم . فتحاربوا وظلوا يقتتلون شهرا . ورأى المهلب أن لا يقاتلهم ، حتى يضعف بعضهم بعضا — على خلاف رأى الحجاج ، الذى كان يريد أن يقاتلهم حينذاك — وكان رأى المهلب أصوب . فانكشف قتالهم عن خروج قطرى بمن معه ، الى طبرستان . وبقي عبد ربه ومن تبعه ، وقد ضعفت قوتهم . فحمل عليهم المهلب حينئذ ، حملة أخيرة صادقة . فهزمهم هزيمة تامة ، ولم ينج منهم الا القليل . واستولى على معسكرهم وما فيه . وهكذا انتهى أمر هؤلاء الخوارج . وذلك فى عام ٧٧ هـ . أما قطرى — ومن سار معه — فقد توجهوا الى طبرستان . فأرسل الحجاج اليهم جيشا — بقيادة سفيان بن الأبرد من أهل الشام — فلحقوا بقطرى ، فى شعب من جبال طبرستان . فقاتلوه ففترق عنه أصحابه ، ووقع عن دابته فى أسفل الشعب وأصيب . فأسرع اليه نفر من أهل الكوفة فقتلوه ، وأخذوا رأسه الى الحجاج فأرسلها الى عبد الملك . وتتبع سفيان من بقى من جيش قطرى ، حتى حصرهم فى مكان بعيد اسمه « قومس » . فظلوا حتى جهدهم الحصار ولم يجدوا طعاما ، فخرجوا فقاتلوا فقتلوا عليهم . وكانت هذه هى نهاية الخوارج الأزارقة فى عام ٧٧ هـ

— بعد أن لبثوا يشنون الحرب على جماعة المسلمين منذ عام ٦٤ هـ ، حين خرجوا مع ابن الأزرق — بلا انقطاع .

صالح وشيب

وفي نفس الوقت ، كان خرج خارجيان على الحجاج ، شديدا البأس : أولهما « صالح بن مسرح التميمي » — الذي خرج بالجزيرة شمال العراق في عام ٧٦ هـ . فأرسل اليه محمد بن مروان جيشا ، فهزمه . فأرسل اليه الحجاج جيشا آخر ، فقاتل صالح أشد قتال حتى قتل في ذلك العام .

وأما الثاني فهو « شبيب بن يزيد الشيباني » — وكان أقوى شكيمة وأشد بأسا ، وأكثر براعة في فنون القتال . خرج هذا الرجل مع صالح — وكان على مذهبه — ثم حل محله بعد أن قتل ، وانضم جند صالح اليه . وكان أمر شبيب عجيبا . وقصته ما هي الا ملحمة ، تشبه إحدى أساطير الأبطال القدماء . لقد ظل شبيب يقاتل في جماعة قليلة لا تزيد على ألف ، فلم يستطع أحد أن يتغلب عليه . كانت حربه أشبه بحرب العصابات : لا يثبت في مكان ، يتقن الكر والفر والحركة السريعة ، ويوجه الضربة المباشرة . ولبث الحجاج يرسل اليه الجيش وراء الجيش ، فيبدد الجيوش ويقتل

القواد . وهزم وقتل عددا من كبار قواد الكوفة . ودخل الكوفة مرتين ، ووضع الحجاج في مأزق . وكاد أن يستولى على المدينة . ولولا ثبات الحجاج — وكان يثبت في موقف الخطر — وقيادته المعركة بنفسه ، لثم لشبيب ما أراد . وكان من أسباب نجاح شبيب أن أكثر جند العراق كان متغيبا ، مشغولا بحرب الخوارج الأزارقة ، في نفس الوقت — على ما وصفنا من قبل — كما أن العلاقات كانت سيئة بين أهل العراق والحجاج ، لسياسته الشديدة وجبريته ، فلم ينقذ الحجاج إلا أهل الشام ، حيث أرسل الحجاج يستنجد بعبد الملك ، فأنجده بجيش من الشام . وعلى يد هذا الجيش ، تمت هزيمة شبيب . لكنه لم يقتل في معركة ، وإنما مات غرقا في نهر ، وهو يعبر بحصانه على قنطرة عليه ، فزلت قدم فرسه ، فوقع بصاحبه في الماء . وكان ذلك في سنة ٧٧ أيضا . فياله من فارس هزم الفرسان ، وبطل أعين الأبطال .

سياسة الحجاج

لكن هذا كله لا يبرر عدم نجاح الحجاج في القضاء عليه بسرعة ، وهزيمته أو قتل هذا العدد من القواد ، الذين أرسلهم إليه . فهذا يبين — أولا — نقصا في كفاءة الحجاج .

ويشير — ثانية — الى ناحية خطيرة ، وهى أن سياسة الشدة والغشم ، التى اتبعها الحجاج ، اذا كانت أجدت فى اخراج الناس لحرب الخوارج — فانها فى ذات الوقت قد أفسدت قلوبهم ونياتهم ، وأصبحت الجفوة بعيدة بين أهل العراق وبينه . ولقد صار أهل العراق يكرهونه ، الا من كانت مصالحهم تتفق مع البقاء معه . وهذه السياسة أدت الى قيام ثورة فى البصرة عليه فى خلال عام ٧٦ هـ — قادها عبد الله بن الجاورد ، وأيده عدد من القواد . وكأذ الحجاج يهلك فيها أيضا ، لولا ثباته وحسن حظه ، وانضمام بعض القواد اليه . ولم يكن هناك من سبب قوى لكى يعرض نفسه لهذه الثورة ، وهذا الخطر . فقد كان سببها أنه رفض أن يجيز زيادة فى أعطيات الجند ، كان قررها مصعب فى أواخر أيامه . فكان رفض الحجاج لهذه الزيادة — فى الواقع — تعنتا وبخلا — ولا سيما أن بشر بن مروان كان أقر هذه الزيادة . فكان أحسن فى السياسة لو أجاز الحجاج هذه الزيادة ، وبذلك يرضى الناس والقواد ، ويضمن تأييدهم بدل اغضابهم واثارتهم . ان التضحية بالأموال خير من التضحية بالرجال . ولئن كان الحجاج نجح فى أخماد الثورة والقضاء على من خرجوا عليه ، فما كسب بذلك بل خسر كثيرا .

وقد أدت هذه السياسة أيضا الى ثورة رجل من أهل بيت ، عرف بإخلاصه للدولة — وهو « مطرّف بن المغيرة بن شعبة » — وكان اذ ذاك واليا على « المدائن » . فلم يرض عما وصفه بأنه : « سياسة جور وتسلط بالجبرية » ، وقام بثورة في عام ٧٧ هـ ، تبعه فيها ناس كثير . فأرسل اليه الحجاج جيشا ، فلحق بالجبال . وما زال يقاتل ، حتى قتل في ذاك العام . وسيكون لشدة الحجاج وجبريته أيضا آثار خطيرة ، ستظهر في ثورة قادمة ، وتعرض الحجاج والدولة كلها — وقتا ما — للخطر . وسنتكلم عنها في الفصل التالي .

* * *

فالحقيقة التي نريد أن نقررها أن سياسة الشدة والعسف ، اذا كانت تنجح في ظروف حرية خاصة ولمدة مؤقتة ، فانها لا تنفع أن تكون سياسة دائمة تساس بها الشعوب . وانها تؤدي الى عواقب خطيرة . فملخص الحكم على الحجاج أنه كان حاكما عسكريا ، ولم يكن سياسيا ، ولا قائدا حريا . وكان يجب على عبد الملك — بعد أن انتهى أمر الخوارج — أن يعزله . ويبدله بحاكم أكثر سياسة ، وأوسع أفقا ، ليجتذب قلوب الناس بدله أن يزيدهم نفورا . لكن يظهر أن عبد الملك كان سييء الاعتقاد في أهل العراق ، وكان

يرى أنه لا يصلح لهم إلا الشدة والقوة ، والا أحدثوا
الفتن ولم يطيعوا الأوامر ، وأنه لا يخضعهم الا مثل
الحجاج . وكانت في هذا الرجل مزايا لها قيمتها
— ولا شك — هي التي جعلت الخليفة يتشبث به . ففي
مقدمتها ، شدة اخلاصه لرئيسه عبد الملك ، وتقانيه في خدمة
الدولة وأداء واجبه . ومنها قوة شخصيته وارادته ، ورغبته
في الإصلاح والتعمير ، وكفاءته الادارية ، واهتمامه بشأن
الفتوح التي سيكون له فيها أثر كبير ؛ لكن هذا كله
لا يوازي حب الناس ، وطاعة الرعية عن رغبة . والوثوق
باخلاصهم للوقوف مع الدولة في أوقات الشدة . فالقاعدة
المتينة الراسخة التي يؤسس عليها الحكم ، وتقام عليها
الدول ، انما هي حب الشعب لمن يحكمونه واخلاصه لهم .

دولة كبرى واحدة

على كل ، فانه — فيما يتعلق بالخوارج — قد نجح
الحجاج في القضاء عليهم ، ولو بعد جهود كثيرة . وكان
للمهلب الفضل الأكبر في هزيمة الأزارقة . وانتهت حينئذ
فتنتهم ، وأخمدت الثورات الأخرى ، وذلك في سنة ٧٧ هـ .
فعند ذلك تمت وحدة الدولة ، نهائيا . ولم يعد هناك استثناء
ولا شذوذ .

صاربت الدولة — من حدود نهر بلخ ، وجبال سجستان

ومشارف الهند شرقا ، الى أواسط بلاد المغرب غربا ، ومن
بحر قزوين والبحر الأسود شمالا ، الى حدود النوبة
والسودان جنوبا — صارت دولة واحدة وكتلة واحدة ،
ليس عليها الا خليفة واحد : هو عبد الملك بن مروان ، من
بنى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وليس لها الا عاصمة
واحدة هي « دمشق » ، في أرض الشام . فياله من نجاح
كبير ، ونصر باهر قد تحقق — اذا قارنا حالة هذه الدولة
حينئذ بحالتها حينما تولى عبد الملك الخلافة ، أو قبل ذلك
بقليل ، وقد كانت متفرقة ، متمزقة الى أقسام وطوائف ،
والحروب دائرة بين بعضها والبعض الآخر . لقد حدث ما يشبه
المعجزة . وتحقق الأمل الكبير . ونجح عبد الملك حقا في أن
يصل الى غايته ، وهي توحيد الدولة كلها تحت لوائه ورعايته .
ان الفقيه ، العابد ، الذي قضى أربعين سنة من حياته
بالمدينة ، وما كان يفكر أن يخرج منها ، والذي أخرج منها
— كرها — وهو في سن الأربعين ، ليبدأ حياة في المنفى —
قد كتب له أن ينال الملك ويتولى الخلافة ، ويرعى شئون
أمة الاسلام ودولة العرب ، ويوجه الجيوش أو يقودها ،
ويضع السياسات ويحكم الادارة ، حتى يحقق أغلى أمنية
للأمة : ألا وهي جمع كلمتها وتوحيد صفوفها ، في دولة
كبرى واحدة .

الفصل التاسع

فتوحات وإصلاحات

لو لم يكن لعبد الملك بن مروان من فضل الا أنه حقق وحدة دولة العرب والاسلام ، وأتقذ الأمة من شرور الانقسام ، وأخطار الحرب الأهلية — لكفاه ذلك من عمل مجيد ، يؤهله لأن يدرجه التاريخ بين العظماء ، الذين أسدوا أجل الخدمات لأمتهم . كانت هذه هي المهمة الكبرى التي قام بها في خلافته . وقد وصفنا في الفصول الماضية كيف اضطلع بها ، وما هي الخطط التي اتبعها لكي يؤديها ، وكيف تكللت بجهوده فيها بالنجاح . وسنبين في هذا الفصل — فيما بعد — أهم النتائج الجليلة ، التي ترتبت على الوحدة .

لكن عبد الملك كانت له أعمال أخرى مجيدة — أيضا — وهي تؤكد أهليته لأن يضعه التاريخ في تلك المرتبة الرفيعة . فمن ناحية ، نهض عبد الملك بهمة وحزم — حتى من قبل أن تتم الوحدة — ليستأنف الفتوحات التي توقفت طويلا ، منذ

بدء الفتنة والنزاع الداخلى ، فأثمرت جهوده — ولكن بعد أن تمت الوحدة — أن ضمت الى الدولة أقطار هامة ، كم صار لها فيما بعد شأن فى تاريخ العروبة والاسلام — ونعنى بها بلاد المغرب — بعد أن كاد الروم يحولون بين الدولة وبينها ، ويسلمونها الى التأخر وحياة الاستعباد والفوضى . فعبد الملك بن مروان هو صاحب الفضل فى اتمام تحرير هذه البلاد وطرد الروم منها نهائيا ، وفتح الطريق لنشر الاسلام واللغة العربية فيها ، واستقرارهما — كما أثمرت جهوده أيضا أن أعادت للدولة — بصفة عامة — كامل قوتها أمام الأعداء ، فاستردت هيبتها ومركزها . وبذلك أوجد العوامل وهيا الوسائل للتمهيد لفتح أقطار أخرى كبيرة سيتم ضمها فى عهد خلافة ابنه الوليد ثم العهد التالى ، سنشير اليها فيما بعد..

ومن ناحية أخرى ، أمر عبد الملك بتنفيذ اصلاحات داخلية ، كان من شأنها دعم المقومات التى تقوم عليها الدولة ، ورفع الروح القومية وحفظها . وأهم هذه الاصلاحات أمران : الأول : — تحقيق الاستقلال المالى للدولة وسيادتها الاقتصادية ، وذلك بإصدار عملة عربية قومية لها ، بدل اعتمادها على النقود الأجنبية . والثانى : جعل اللغة العربية

هى اللغة الرسمية القومية للدولة ، وإبطال استخدام اللغات الأجنبية فى الدواوين :

فالآن نتكلم عن هاتين الناحيتين من جهود عبد الملك :
والأولى هى الفتوحات . والثانية هى الإصلاحات . ثم نختم الكلام بوصف شخصية عبد الملك وبيان صفاته ، ومبادئ سياسته العامة ، ثم نتحدث عن بيته وخلفائه ، وآثاره . وبذلك كله تتحدد مكاتته فى التاريخ .

(١) الفتوحات

أولاً - فى بلاد المغرب

كانت أهم الفتوحات التى تحققت فى عهد عبد الملك - كما ذكرنا - هى فتوحاته فى بلاد المغرب .

وببلاد المغرب تسمى الآن : ليبيا ، تونس ، الجزائر ، فمراكش . لكن كانت أسماؤها عند العرب ، فى تلك العصور ، هى - على الترتيب المذكور - :

برقة وطرابلس ، ثم إفريقية أو المغرب الأدنى ، فالمغرب الأوسط ، فالمغرب الأقصى .

بدأ الجهد الإسلامى لفتح هذه البلاد وتحريرها من احتلال الروم واستعبادهم ، فى عهد دولة الخلفاء الراشدين :

في عهدي — عمر وعثمان — رضى الله عنهما . وقد أمكن
لجيش الاسلام التحررى — في عهد عثمان — أن يصل الى
قلب تونس (افريقية) ، ويواقع الروم في موقعة «سيبلة» ،
فيهزم ملكهم المسمى « جرجير » — وهو جريجورى —
ويقتله ، ويبيد جيشهم . وذلك على يد عبد الله بن سعد بن
أبى السرح ، الذى كان والى مصر . فمصر ، منذ ذلك الوقت
وظلت دائما ، القاعدة لفتح أو تحرير بلاد المغرب . لكن
المسلمين لم ينووا الاقامة في ذلك الوقت ، فاكثفوا بدفع
الفدية لهم ثم عادوا الى برقة . وفي أثناء الفتنة الأهلية التى
تلت ، توقفت الفتوحات . ثم بعد أن توحدت الدولة ،
استأنف معاوية الفتوحات بعزيمة جديدة ، وبقصد الحصول
على نتائج دائمة . فكان البطل الذى حمل لواء الفتح في
عهده هو « عقبة بن نافع الفهري » ، الذى ظفر بالنصر حتى
اتتهى الى قلب تونس ، وأسس هناك مدينة « القيروان »
— سنة ٥٥ هـ — ، لتكون مركزا للاسلام ونشر العربية ،
وقاعدة حربية . ثم عاد الى الشام ، وحمل عبء الجهاد بعده
قائد آخر من مصر ، هو « أبو المهاجر » .

ثم عاد عقبة ، ثانية ، في عهد يزيد بن معاوية عام ٦٢ هـ .
فاستأنف جهاده ، وواصل الفتوحات ، فهزم الروم ومن معهم

هزائم كبيرة متوالية ، حتى وصل الى المغرب الأقصى . ولما بلغ شاطئ المحيط ، وقف وهو على ظهر جواده ، وقال قولته المشهورة : « يا رب ، لولا هذا البحر ، لمضيت مجاهدا في سبيلك » ! . ثم عاد . ولكنه في عودته حينما صار على مقربة من القيروان ، سرح معظم جيشه وبقي في فئة قليلة . فانتهر الروم هذه الفرصة ، وكانوا قد اتفقوا مع « كسيلة » — من البربر المسيحيين — على أن يغدر بعقبة ، فغدر كسيلة وارثد عن الاسلام ، وانضم الى البيزنطيين . واجتمعوا على عقبة ، فحاربهم محاربة الأبطال ، هو والمسلمون الذين معه على قلة عددهم ، الى أن استشهد — رحمه الله ومن معه . وأراد « زهير بن قيس البلوى » — وكان نائبة في القيروان — أن يهب لمحاربة الروم . ولكن خالفه قوم ممن معه وعادوا الى مصر . فاضطر « زهير » أن يعود بجيشه الى برقة ، وبقي مرابطا بها ست سنوات ، من سنة ٦٣ حتى سنة ٦٩ هـ . وذلك لحدوث الحرب الأهلية ، والفتن التي وصفتها في الماضي . فكانت الدولة في شغل بالنزاع الداخلي ، عن أن تعنى بجهاد الأعداء في الخارج .

زهير بن قيس في إفريقية

كانت هذه هي حال المسلمين والفتح في تلك الجبهة .
وكان « زهير بن قيس » لا يزال مقيما في « برقة » ، وكانت
جالية من المسلمين قد تركت في خطوط العدو ،
ب « القيروان » ، وإن نالت الأمان — لكنها كانت تعيش
معرضة للغدر تحت حكم العدو — كانت هذه هي
الأحوال ، حينما ذكر حال هؤلاء المسلمين وزهير وجنده
عند عبد الملك بن مروان . وكان هو في أشد مشغلة بالحرب
مع ابن الزبير ، وغيره . فعلى الرغم من انشغال عبد الملك
بذلك ، وعلى الرغم من حاجته لتوفير كل جهد وكل جندي ،
لينتهي من المعركة الداخلية التي أمامه — على الرغم من
ذلك ، قرر أن لا يدخر وسعا لا تقاذ هؤلاء المسلمين ، وإظهار
قوة الدولة أمام العدو في ذلك الميدان . ففي عام ٦٩ هـ — في
ذروة الأزمة ، وهو يستعد للخروج الى العراق لمواجهة ابن
الزبير — أعد جيشا قويا وأرسله الى « زهير » ببرقه ،
وكتب الى زهير بولاية إفريقية . وبذلك أخذ عبد الملك
يحارب الروم وحلفاءهم المعتدين ، في نفس الوقت الذي كان
فيه مشغولا بالفتنة الداخلية . وهذا يشهد لعبد الملك بقوة

العزيمة ، وقوة ايمانه بالله وثقته بنصره ، ورغبته في الجهاد في سبيل الله ، وحرصه على الدولة وصالح المسلمين .

تقدم زهير بهذا الجيش ، وتوجه لفتح افريقية — وكان زهير من خيرة المسلمين : عابدا زاهدا ، نذر نفسه للجهاد من أجل مرضاة ربه ، كما كان من كبار القواد مع عقبة ابن نافع ، واشترك معه في أكثر غزواته . فلما وصل قرب القيروان ، وجد أن كسيلة — الزعيم البربري الغادر ، الذي كان في خدمة البيزنطيين — ويجب أن نذكر هنا أن كثيرا من البربر ، ولا سيما في الجنوب ، قد اعتنقوا الاسلام ، فلم يبق الا بربر الشمال الذين كانوا متأثرين بالروم وموالين لهم — وجد أن كسيلة هذا قد ترك القيروان ، خوفا أن يحاصر فيها ويثور عليه المسلمون الذين كانوا بها ، وسار الى الجبال فاتخذ عندها معسكره ، ليحمي ظهره بها وليلوذ بها اذا هزم .

وفي موقعه هذا حشد جموعا كثيرة من البربر التابعين له والروم ، وتأهب للقتال . ويجدر أن ننقل هنا ما قاله مؤرخ كبير من القدماء عن هذه الموقعة ، بأسلوبه الموجز — قال : « .. وبلغ ذلك زهيرا فلم يدخل القيروان . بل أقام ظاهرها ثلاثة أيام حتى أراح واسترح ، ثم رحل في طلب كسيلة ،

فلما قاربه ، نزل وعبى أصحابه ، وركب اليه . فالتقى
العسكران . واشتد القتال . وكثر القتل في الفريقين ، حتى
أيس الناس من الحياة . فلم يزالوا كذلك أكثر النهار . ثم
نصر الله المسلمين . وانهزم كسيلة وأصحابه . وقتل هو ،
وجماعة من أعيان أصحابه بممس (هذا اسم الموقعة) .
وتبع المسلمون البربر والروم فقتلوا من أدركوا منهم ،
فأكثروا . وفي هذه الموقعة ذهب رجال البربر والروم ،
وملوكلهم وأشرفهم . وعاد زهير الى القيروان .

هكذا أحرز الجيش الاسلامى — بقيادة زهير — هذا
النصر الكبير على قوات البربر والروم ، التى قادها « كسيلة » .
وقتلت « كسيلة » نفسه فى هذه الموقعة — وكان هو الذى
ارتد عن الاسلام ، وغدر بعقبة وتسبب فى قتله — فأخذ
المسلمون اذن بالتأثر منه ومن تابعوه . وانهى أمر هذا
الخائن المرتد ، بعد أن ظل يعيش فى البلاد فسادا ، منذ سنة
٦٣ هـ . ولا شك أن الدافع الأول لهذا النصر وراعيه انما
هو : « عبد الملك بن مروان » ، الخليفة فى دمشق — وذلك
بفضل عزمه وإيمانه .

على أن فتح افريقية ما كان ليتم بسهولة . وكم لاقى
المسلمون فى فتوحهم من عقبات ، وكم منوا بنكسات . لكن

هذا ما كان الا ليشحذ همتهم ويقوى ايمانهم . فبعد هذا النصر المبين جاءت نكسة . وذلك أن افريقية ، أو بلاد المغرب ، لها ساحل طويل ممتد على البحر المتوسط ، فما لم تكن هناك قوة بحرية تحميه ، فإن الأعداء يستطيعون أن يهاجموه في أى وقت ، من أى نقطة . فلما بلغ الروم بالقسطنطينية أن زهيرا سار من برقة الى القيروان ، انتهزوا الفرصة وأرسلوا أسطولهم بقوة كثيفة ، فاحتلوا برقة . وبذلك قطعوا خط المواصلات ، أو الرجعة ، على زهير وجيشه . وكان زهير قد قرر العودة من القيروان الى مصر ، فترك جزءا من جيشه وعاد بجزء . ولم يعلم بما حدث في برقة ، الا وهو في الطريق . فلم ينتظر حتى تصله امدادات أو يرتب أمره ، بل بادر الى انجاد المسلمين الذين استنجدوا به ، وهاجم الروم وهو قوة قليلة ، وكان الروم على استعداد وقد دسوا له كميناً . فعلى الرغم من قتاله بشجاعة وفدائية ، تكاثر عليه الروم وأحاطوا به ، فقتل رحمه الله ومن معه .

فلما بلغ خبز مقتله عبد الملك بن مروان ، حزن حزنا شديداً — كما أثبتت أخبار التاريخ — وأهمه ذلك كثيراً . لكن ماذا كان يستطيع أن يصنع ، وهو في غمرة النضال مع الخارجين عليه ، وقواه مشغولة بالمعارك الفاصلة معهم ؟

الفتن أو المنازعات الداخلية تنقص فاعلية الدول ، وتكاد تشل حركتها . فكان عبد الملك مضطرا اذن أن ينتظر حتى ينتهى من الفتنة التى أمامه ، ثم بعد ذلك يستطيع أن يستأنف جهاده ، ضد الأعداء المعتدين .

حسان بن النعمان يفتح قرطاجنه

وما ان فرغ من المعركة مع ابن الزبير ، حتى أعد جيشا كبيرا — اختار له قائدا قديرا هو « حسان بن النعمان الغساني » — فسيره الى افريقية ، وقد جعل له الولاية عليها . فسار حسان بجيشه ، وكان ذلك فى عام ٧٤ هـ ، فلم يجد مقاومة فى طريقه : فى برقة أو طرابلس ، حتى دخل افريقية بجيشه « ولم يدخل افريقية قط جيش مثله » . وكان الهدف منازلة الروم أولا ، لأنهم هم العدو الحقيقى . وهم الذين يقفون فى طريق الفتح ، وهم الذين هاجموا « زهيرا » . فبعد أن وصل حسان الى القيروان ، وأراح جنده وتجهز منها بما أراد ، زحف بجيشه على « قرطاجنه » — وكانت أكبر معقل للروم فى افريقية ، وقاعدتهم البحرية الكبرى — ولم يكن المسلمون هاجموها من قبل . فجمع الروم كل قواتهم للدفاع عنها ، ولكن حسانا حاصرها ، وظل يقاتل

الروم حتى هزمهم ، وتمكن من دخول المدينة عنوة . فأسرع
الروم الى الهرب في البحر ، وساروا بمراكبهم الى صقلية
أو الأندلس . فاستولى حسان على المدينة . ثم أمر بهدم
أسوارها ، حتى لا تتخذ حصنا بعد ذلك . ثم اتجه أيضا الى
معقلين آخرين للروم على الساحل ، وهما مدينتا : بنزرت
وسطفورة ، فاستولى عليهما أيضا ، بعد قتال عنيف . وهكذا
نجح حسان في تحطيم معاقل الروم ، على ساحل افريقية .
وكان لانتصاراته على الروم دوى شديد ، ورفع من هيبة
قوة الدولة الاسلامية ، حتى أصبح الروم منها في خوف .
وشعروا بقرب نهايتهم .

الكاهنة

لكن ثورة كانت ناشبة بين البربر منذ مقتل « كسيلة » ،
حيث ظهرت امرأة تسمى « الكاهنة » من بيت ملكهم ،
قالتفوا حولها واعتصموا بجبال أوراس ، وهى منطقة منيعة ،
فأراد حسان أن ينازل هذه القوة ويقضى عليها أيضا . لكن
جيشه كان أصيب بخسائر ، من جراء المواقع العديدة التى
خاضها مع الروم ، ومع ذلك اتجه لمقاتلة الكاهنة وأتباعها ،
فلقى مقاومة عنيفة وأسر بعض رجاله . فرأى أن الأولى أن

يعود حتى تصله امدادات . فرجع وأقام بطرابلس ، التي اتخذها قاعدة له لقربها من البر والبحر . وظلت القيروان كما هي ، قاعدة حربية اسلامية في قلب افريقية ، ولم تجرؤ الكاهنة أن تتقدم اليها . وأرسل حسان الى عبد الملك يطلب امدادات . لكن عبد الملك كان لا يزال مشغولا بحروب الخوارج ، فأمر حسانا بالمقام وأذ يكتفى بما فتح حتى يصله أمره .

وبعد أن فرغ عبد الملك من حروب الخوارج ، وأتم الوحدة ، وجه عنايته ثانية الى افريقية . فبعث بالجنود والأموال الى حسان ، وأمره باستئناف الزحف ، حتى يقضى على الكاهنة . وكانت الكاهنة — في أثناء ذلك — قد أساءت السيرة ، وعسفت بأهل البلاد وظلمتهم : من بربر وروم وغيرهم . فكرهوها ، وتمنوا الخلاص منها ، وقدروا مزايا حكم الاسلام الذي كان يتميز بالعدل والتسامح وسيادة القانون والنظام . فأرسلوا الى المسلمين يستجدون بهم . فلما سار حسان اليها ، عمدت الى خطة التخريب . فأخذت تخرب المدن وتنقل الأموال ، وتحرق المزارع أمامه ، لتوقف زحفه . ولكن كل ذلك لم يجدها نفعا ، بل زاد من كره الناس لها ، وسخطهم عليها . وواصل حسان سيره ،

فقابله كثير من أهل المدن حتى الروم بالترحيب ، وقدموا
الطاعة . وأخيرا التقى بجموع الكاهنة . فبعد قتال عنيف
هزمهم شر هزيمة ، وقتل فيهم قتلا ذريعا . وفرت الكاهنة الى
الجبال ، فأتبعها من أدركها وقتلت . وبذلك انتهى أمر
الكاهنة . وكانت هذه آخر ثورة للبربر . فبعد ذلك خضع
أهالى البلاد لحكم الاسلام ، وأخذوا يدخلون فى الاسلام
أفواجا . وكان مقتل الكاهنة فى سنة ٨١ هـ .

لكن الروم كانوا قد انتهزوا فرصة خروج الكاهنة
والأحداث التى تلت ، فعادوا بقوة جديدة واحتلوا قرطاجنه .
فتركهم حسان ، حتى انتهى من أمر الكاهنة . ثم اتجه اليهم
فقاتلهم ، وطردهم مرة أخرى من قرطاجنه . وأعانه فى هذه
المرّة أسطول اسلامى ، قدم من الشام ومصر . فقتل من
الروم من قتل ، وهرب من هرب . وكانت هذه آخر مرة
يرون فيها قرطاجنه . فقد كان هذا هو القضاء النهائى عليهم ،
وتمام تحرير افريقية والمغرب ، من حكمهم واحتلالهم
وجورهم .

المغرب العربى الاسلامى

وهكذا أتم حسان تحرير بلاد المغرب ، وخلصها
— نهائيا — من حكم الروم ، الذى كان قائما على أساس

استغلال السكان ، واستعبادهم ، وتقسيم الناس الى طبقات،
والاضطهاد الدينى والعنصرى ، وغير ذلك من مساوىء
حكم الظلم — كما قضى أيضا على عناصر الشغب والفوضى
بين البربر ، وطهر البلاد من القوات المعادية . فأتى الفتح ،
حتى وصل الى طنجة والمغرب الأقصى ، وشاطئ المحيط .
وأخذ يوجه جهوده كلها الى نشر الاسلام ، والتأليف بين
السكان ، وطبق حكم المساواة ومبادئ العدل ، وأحسن
معاملة الناس . فرغب الناس فى الاسلام ، وأخذوا يدخلون
فى دين الله أفواجا . وأخذت اللغة والثقافة العربية تنتشر .
وكان عدد كبير من البربر قد دخل فى الاسلام — فعلا —
منذ وقت طويل ، فى مدى نصف قرن أو أكثر مضى ، منذ
دخول العرب البلاد . وسارت عملية المزج بين الأجناس
— جنبا الى جنب — مع انتشار الدين والثقافة فوضعت
اذن أسس شخصية المغرب العربى الجديد ، الذى سيكون
من أهم أقطار الدولة الاسلامية .

بدأت هذه التطورات فى عهد حسان — الذى بقى فى
ولايته حتى سنة ٨٩ هـ . ثم خلفه موسى بن نصير . فبصار على
نفس السياسة وأكملها ، وحقق بها نتائج عظيمة . وموسى
ابن نصير هو القائد ، الذى سيجعل المغرب قاعدة لفتح

الأندلس . ويكون الى جانبه قائد آخر : هو طارق بن زياد ،
الذى يمثل شخصية المغرب الجديد ، فى ظل الاسلام . فأصله
من البربر سكان البلاد ، لكنه صار خلقا آخر ، فأصبح قائدا
عربيا اسلاميا . وهكذا استمر المغرب فى هذا الطريق ، حتى
أصبح من أهم أقطار العروبة والاسلام — شأنه شأن مصر
أو الشام أو العراق . وهو اليوم بمثابة الجناح الغربى للأمة
العربية والاسلامية ، تتحقق معه قلوب جميع العرب
والمسلمين . فاذا كان لأحد فضل فى بدء هذه التطورات ،
وهذا التاريخ للمغرب ، فاسم عبد الملك بن مروان يجب أن
يكون فى مقدمة من يقر لهم بهذا الفضل . فهو الذى وجه
اليه بالغ عنايته ، على الرغم من انشغاله ، وأهمه أمره ،
وواصل الجهود لا نفاذه ، حتى أتم تحريرهم من الروم الأجانب
المعتدين ، وأوجد له الظروف ليصبح جزءا لا يتجزأ من عالم
العروبة والاسلام . فهذا هو فضل عبد الملك بن مروان فى بلاد
المغرب .

ثانياً — الفتوح فى بلاد الروم

كانت قوة الدولة العربية الاسلامية ظاهرة على الروم
— أو الامبراطورية الرومية البيزنطية — طوال عهد معاوية .

حتى انه ضرب الحصار سبع سنوات على « القسطنطينية » :
عاصمة تلك الامبراطورية الرومية ، وهاجم الروم عند
أسوارها ، وكاد أن يستولى عليها ، لولا مناعة موقعها .
فكان للدولة الاسلامية اذن هبة كبيرة في قلوب الروم
وأباطرتهم ، تجعلهم يعترفون بتفوقها عليهم ويترددون في
مهاجمتها .

عبد الملك — وجستنيان

ظلت الحال كذلك ، حتى نشبت الفتنة الداخلية بين
المسلمين بسبب ظهور ابن الزير . فلما تولى الخلافة عبد الملك
بالشام رأى من الحكمة السياسية أن يعقد هدنة مع الروم ،
فعقد اتفاقا في أول عهده مع الامبراطور جستنيان الثاني
الذى كان معاصرا له . وكان هذا الامبراطور على النقيض
من عبد الملك ، اذ كان طائش التصرفات ، ولذا لقب
بـ « الأحمق » . وانصرف عبد الملك الى معالجة الأزمة
الداخلية دون أن يحدث شئ . لكن الروم — وهم العدو
القومى للمسلمين — وقد رأوا عبد الملك فى أزمة قد طالت —
بدا لهم أن لا يضيعوا الفرصة . فبدأوا بتحريك العناصر
الأجنبية الموالية لهم ، التى كانت تقيم فى جبال اللكام ولبنان

ومنهم الذين كانوا يسمون « الجراجمة » . فقاموا في عام ٦٩ هـ بثورة وشغب ضد دولة دمشق ، انضم اليهم فيها الرعاع والعييد . وفي نفس الوقت أخذ الروم يهددون الحدود . ولما علموا في نفس العام بمسير زهير من برقة لغزو افريقية ، أرسلوا قوة وأسطولا فاحتلوا برقة ، وجرت موقعة قتل فيها زهير عند عودته — كما قدمنا . ثم في العام التالي ٧٠ هـ بدأ الروم حربا جديدة ، فأخذوا يعبرون حدود الشام من الشمال ، ويغيرون على المسلمين داخل أراضيهم .

* * *

فلما رأى عبد الملك ذلك — وكان في ذروة الأزمة وأمامه خصومه في الداخل لم يتغلب عليهم بعد ، وتبين له حرج الموقف — رأى أن يلجأ الى السياسة . فأرسل أولا الى الجراجمة قائدا استطاع بحيلته ودهائه أن يتمكن منهم ، ثم فاجأهم بقوة كان أكرمها لهم فهزمهم وشردهم . وفي نفس الوقت دخل عبد الملك في مفاوضات مع ملك الروم ، وتوصل الى عقد معاهدة معه ، رضى فيها عبد الملك أن يدفع الى الروم مبلغا قدره ألف دينار كل جمعة — وكان هذا ضد شعور عبد الملك — لكنه كان مضطرا أن يدفع الأذى عن المسلمين ، نظير دفع هذا المبلغ من المال ، ريثما تنجلي الأزمة الداخلية .

وهكذا يصل التفرق والنزاع الداخلى بالأمم والدول الى أن تضعف — رغم قوتها الأصلية — أمام أعدائها . لكن عبد الملك حصل فى هذا الاتفاق على شرط دل على بعد نظره اذ كانت له نتائج حسنة ، وذلك أنه اشترط أن تقوم دولة الروم بنقل « الجراجمة » الى جهات داخل أراضيها . فنفذ « جستنيان » — فعلا — هذا الشرط ، ونقل الجراجمة الى البلقان . فاستراح المسلمون من شرهم وأمنوا خيانتهم ، اذ طالما كانوا ينضمون الى أعدائهم ، على حين خسر البيزنطيون ما أسموه مؤرخوهم : بالستار الحديدى ، حيث كان هؤلاء يدافعون عنهم ضد دولة المسلمين . وآتت هذه المعاهدة ثمرتها ، حيث أعطت عبد الملك فرصة ثلاث سنوات استطاع فيها أن ينهض ، فيلاقى خصومه فى المواقع الفاصلة ويتغلب عليهم ، وينهى الفتنة الداخلية الأساسية ، ويحقق الوحدة — على ما وصفنا فى الفصول السابقة — وفى أواخر عام ٧٣ هـ شعر عبد الملك أن الدولة استعادت قوتها ، وأنها تستطيع أن تستأنف جهادها وتعلى ارادتها ، كما كان دأبها دائما .

هزيمة الروم

وكانت العلاقات قد ساءت بين دولة الروم والدولة الإسلامية في هذه الفترة ، وأخذ الروم يتأهبون للالتقاء . فكان عبد الملك لهم بالمرصاد ، وقد أحكم اعداده ، فعين أخاه محمد بن مروان واليا على الجزيرة وأرمينية ، ليكون القائد في هذه الجبهة . ومنع عبد الملك ارسال النقود التي كان يدفعها وقت الضرورة ، فأثار هذا حنق جستنيان الأحمق فأعلن الحرب . وقدم بجيش كبير ليغزو المسلمين من ناحية أرمينية ، فلاقاه محمد بن مروان بجيشه ودارت معركة عنيفة ، هزم فيها الروم على كثرة عددهم هزيمة شنيعة ، وفر الامبراطور بنفسه واتفق عنه أكثر جنوده . وكان ذلك في عام ٧٤ هـ . فزعزت هذه الواقعة الدولة البيزنطية ، وردت امبراطورها الى صوابه . وفي نفس العام ، قام الخليفة عبد الملك بالهجوم على الروم في جبهة أخرى — هي جبهة افريقية — فأرسل حسان بن النعمان بجيش كبير — على ما ذكرنا آنفا — فاتجه حسان الى مهاجمة الروم في أكبر معقل لهم ، وهو مدينة « قرطاجنة » . وقد أنزل بالروم هزيمة ساحقة ، في عام ٧٥ هـ — كما بينا — وطردهم من المدينة ، واستولى عليها .

الاستيلاء على معاقل الروم

وهكذا أثبتت الدولة الإسلامية ، بعد الوحدة ، أنها ما زالت محتفظة بقدرتها على التفوق واحراز السيادة . وعادت قوة رهيبية ، يخشى بأسها الأعداء ويعملون حسابها — كما كان شأنهم من قبل . وبعد أن فرغت الدولة من كل مشاكلها الداخلية بإنهاء مسألة الخوارج ، ازدادت قوتها ، وغدت قوة مندفعة لا ترد . فحررت جيوش المسلمين افريقية وبلاد المغرب — نهائيا — من نير البيزنطيين ، وثبتوا قبضتهم على قرطاجنة وجميع المدن الساحلية . وتحولت افريقية الى قطر اسلامي عربي — على ما ذكرناه من قبل . وكانت الموقعة الأخيرة في عام ٨١ هـ في عهد عبد الملك .

وفي نفس الوقت ، بدأ التقدم والتوغل داخل الأراضي البيزنطية القريبة . فكانت الصوائف تخرج بانتظام للاغارة على هذه الأراضي ، يقودها محمد بن مروان أو غيره من أمراء بني أمية . وفي عام ٨١ هـ بعث عبد الملك ابنه عبد الله ابن عبد الملك ، ففتح « قاليقالا » — وهي إحدى مدن الروم الكبيرة . وفي عام ٨٤ هـ ، تمكن عبد الله بن عبد الملك من فتح مدينة أخرى رئيسية ، داخل دولة الروم في

آسيا الصغرى ، وهى مدينة « المصيصة » . فبنى حصنها ، ووضع بها حامية من ثلاثمائة مقاتل من ذوى البأس ، ولم يكن المسلمون سكنوها من قبل ، وبنى مسجدتها .

وهكذا اندفعت قوة دولة العرب والاسلام الى الأمام : تفتح المعازل وتستولى على الحصون داخل أرض العدو فى دولة الروم ، منذ تحققت الوحدة فى عهد عبد الملك . واستمرت فى اندفاعها طول مدة الوليد ثم سليمان ، حتى بلغت الغاية فى محاولة قوية لفتح القسطنطينية نفسها — عاصمة الدولة — فى عهد سليمان بن عبد الملك ، عام ٩٩ هـ . وكان ذلك كله بفضل همة عبد الملك وعزيمته ، ونذره نفسه للجهاد فى سبيل الله لأعلاء كلمته ونشر دينه الحق ، ورفع شأن دولة الاسلام والعروبة ، التى لم تكن تضاهيها أية دولة فى حيويتها وقواها الكامنة التى كانت كفيلة بأن تجعلها — وقد جعلتها فعلا — أقوى دولة على وجه الأرض :

ثالثاً — الفتوح فى المشرق

والكلام هنا يتناول جبهتين : خراسان ، ثم سجستان . فأما عن خراسان : فانها كانت قد أصبحت فى عهد معاوية قاعدة هامة للدفاع عن حدود الدولة فى الشرق ، ولغزو

الترك فيما وراء النهر (نهر بلخ ، أو جيحون) ، وبدأت منها بعض الفتوحات . ولكن الأمور اضطربت فيها حينما حدثت الفتنة واستعرت روح العصية القبلية . فأدى ذلك كله الى توقف الفتوحات . وبعد حروب قبلية ، تغلب على خراسان رجل من مضر اسمه « عبد الله بن خازم » ، وأخيرا قتل في بعض هذه المواقع عام ٧٢ هـ .

فبعد سنتين ، أرسل أهل خراسان الى عبد الملك يطلبون أن يولى عليهم واليا قرشيا ، حتى لا يقع التنافس بين القبائل . فأرسل اليهم « أمية بن عبد الله » — وهو أخو « خالد بن عبد الله » — وهما من بنى أمية . فانتظمت الأحوال أحسن من ذي قبل ، لكن لم يقض على المنازعات ولم تبدأ فتوح جديدة . ولم يثبت أمية كفاءته . فعزله عبد الملك في عام ٧٨ ، وعين الحجاج الثقفي واليا على المشرق كله — بما فيه خراسان وسجستان — فاختار الحجاج المهلب بن أبي صفرة بعد أن انتصر على الخوارج ، وعينه واليا على خراسان . فقدم اليها في عام ٧٩ هـ . فأخذت الأمور في الاستقرار منذئذ ، وبدأ عهد من النشاط والتقدم ، واستؤثقت الفتوحات .

عبر « المهلب » النهر (نهر جيحون) : الفاصل بين اقليم

خراسان وبلاد ما وراء النهر — كما كانت تسميها العرب —
وهي الآن بلاد « تركستان » . وكان عبوره ذلك في
عام ٨٠ هـ . ثم بعث المهلب أولاده لغزو الجهات ، حتى
قاربوا مدينة « بخارى » . ومكث المهلب سنتين وراء النهر ،
وأعاد للدولة هيبتها ، ومات في عام ٨٢ هـ . ومما يذكر أنه
أحضر أولاده وأوصاهم وصية غالية ، بالاتحاد وعدم التفرق .
ومثل لهم ذلك بأن دعا بمجموعة من السهام ، فحزمت ،
فقال : أترونكم كاسريها مجتمعة ؟ قالوا : لا . قال : أفترؤنكم
كاسريها متفرقة ؟ قالوا : نعم . قال : فهكذا الجماعة .

فولى الحجاج يزيد بن المهلب في عام ٨٣ هـ مكان أبيه .
فتمكن يزيد من الاستيلاء على قلعة « بادغيس » الحصينة في
عام ٨٤ هـ : ثم في العام التالي عزله الحجاج وولى مكانه أخاه
« المفضل بن المهلب » . فلبث في الولاية تسعة أشهر فتح في
أثنائها منطقة « بادغيس » كلها ، واستولى على حصونها .
وكان ذلك العمل وجميع جهود آل المهلب ممهدة للقيام
بفتوح كبيرة في بلاد الترك ، وراء النهر . ثم عزله الحجاج
عام ٨٥ هـ ، وعين في مكانه « قتيبة بن مسلم الباهلي » — وهو
القائد الكبير الذي سيتم على يديه فتح بلاد ما وراء النهر
حتى حدود الصين ، في عهد الوليد بن عبد الملك .

سجستان

أو (أرض كابل)

وأما عن سجستان : فإن الحجاج كان — حين
ولى على المشرق كله فى عام ٧٨ هـ — ولى عليها
« عيد الله بن أبى بكرة » . وفى العام التالى ٧٩ هـ ، وجه
عيد الله هذا بجيش لغزو « رتييل » — وفى رواية « زنبيل »
— ملك سجستان . لأنه تقضى عهد الصلح الذى كان بينه
وبين المسلمين . فتوجه القائد وغلب على البلاد ، وأوغل فيها
حتى صار غير بعيد من العاصمة . لكن العدو أخذ على
المسلمين العقاب والشعاب ، وحاصره . فرأى ابن أبى بكرة
أن يصلح رتييل على مبلغ من المال ، ويخلى بينه وبين
الخروج . ولكن جنده عارضوا الصلح ، وأبوا إلا أن يقاتلوا
حتى الشهادة . فقاتلوا ، حتى استشهد أكثرهم ونجا أقلهم .

فلما بلغ ذلك الحجاج ، صمم على أن يجهز جيشا كثيفا
ويعثه ليؤدب رتييل ، ويأخذ بثأر المسلمين . وأرسل الى
الخليفة : عبد الملك بن مروان يستأذنه فى ذلك ، فأذن له .
فجهز جيشا من أربعين ألفا : عشرين ألفا من الكوفة ،
وعشرين ألفا من البصرة . وأعدهم بكل ما يحتاجون اليه ،
وأعطى الناس أعطياتهم كاملة ، وأمدهم بالخيول الروائع ،

والسلاح الكامل ، فكان هذا الجيش يدعى : « جيش الطواويس » ، لكامل روثقه وحسن عدته . وولى الحجاج قائدا على هذا الجيش : « عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي » . فخرج هذا الجيش الى مقصده في عام ٨٠ هـ . وصل الجيش الى بلاد « رتييل » ، فأرسل هذا يعتذر ويسأل الصلح ، فلم يقبل منه . وسار عبد الرحمن في غزوه لتلك البلاد وفق خطة منظمة ، ومتخذاً اجراءات الاحتياط : فكلما حوى بلداً بعث اليه عاملاً ، وبعث معه أعواناً ، ووضع البرد فيما بين كل بلد وبلد ، وجعل الأرصاد على العقاب والشعاب ، ووضع المسالحي بكل مكان مخوف . حتى اذا حاز من بلاد رتييل أرضاً عظيمة ، وملاً يديه من المغانم ، حبس الناس عن الوجود في أرض رتييل ، وقال نكتفى بما أصبناه العام من بلادهم حتى نجيبها ونعرفها ، ثم نتعاطى في العام المقبل ما وراءها . وهكذا حتى يتم فتح البلاد . وكتب الى الحجاج يعلمه بما فتح الله عليه من بلاد العدو ، وبما صنع الله للمسلمين ، ويخبره برأيه هذا .

فكتب اليه الحجاج : « أما بعد ، فان كتابك أتاني ، وفهمت ما ذكرت فيه . وكتابك كتاب امرئ يحب الهدنة ويستريح الى المواجهة . قد صانع عدواً قليلاً ذليلاً ، قد

أصابوا من المسلمين جندا كان بلاؤهم حسنا وغناؤهم في
الاسلام عظيما .. واني لم أعدد رأيك رأى مكيدة ، ولكنى
رأيت أنه لم يحملك عليه الا ضعفك والتيث رأيك . فامض
لما أمرتك به من الونغول في أرضهم » . وفي كتاب تال أمره
بالونغول ، والا فان أمير الناس أخوه اسحاق بن محمد ،
بدلا عنه .

فتنة أو محنة أخيرة

تمرد جيش العراق

حينئذ جمع عبد الرحمن الناس ، وعرض عليهم رأيه ورأى
الحجاج — مدافعا عن رأيه هو . فانضم الناس الى رأى
عبد الرحمن ، وثاروا اليه . وتكلموا ضد الحجاج متهمين
له بأنه انما يريد هلاكهم أو نفيهم . وأظهر كلامهم ما في
قلوبهم من كراهية عميقة له . وأجمع رأيهم على مبايعة الأمير
عبد الرحمن وعلى خلع الحجاج . وعلى العودة الى العراق
لنفيه . وكروا راجعين الى العراق . وذلك في عام ٨١ هـ .

هكذا انقلب الأمر الى حركة تمرد أو عصيان ، في جيش
العراق . وكانت حركة خطيرة هزت الدولة هزا عنيفا ، وكادت
تعرضها للأسوأ النتائج . وقبل أن نبين رأينا — أو حكم
التاريخ عليها — تتم القصة بذكر ما تلا من أحداث ،
باجمال :

سار هذا الجيش عائدا الى العراق . ولما وصلوا فارس ، قالوا : اذا خلعنا الحجاج فقد خلعنا عبد الملك . فخلعوه ، وبايعوا عبد الرحمن . ولما بلغ الحجاج خبرهم ، بعث الى عبد الملك يستجده ، ويسأله أن يوجه الجنود اليه . فحال الخليفة الأمر ، وبادر بارسال الجنود من الشام اليه والحجاج مقيم بالبصرة . فلما اجتمعت الجنود اليه ، سار بها حتى نزل « تستر » أول الأهواز . وأقبلت جنود ابن الأشعث ، فهزمت مقدمة الحجاج يوم الأضحى سنة ٨١ هـ . فانصرف الحجاج راجعا ، حتى نزل الزاوية قرب البصرة ، وجاءت جنود ابن الأشعث حتى دخلت البصرة ، وذلك في آخر ذي الحجة سنة ٨١ هـ . ثم تقابل الجندان بالزاوية ، في أوائل عام ٨٢ . فهزمت جنود الحجاج أولا ، ولكنه ثبت وتمثل بموقف مصعب ، وقال : « لله در مصعب ما كان أكرمه حين نزل به ما نزل ! » . فقوى ذلك قلوب جنوده حتى هزموا ميمنة أهل العراق ، وقتل منهم عدد وافر . فمضى ابن الأشعث الى الكوفة . واستولى على قصرها . فسار في اثره الحجاج ، وخرج ابن الأشعث حتى عسكر بدير الجماجم .

وقبل أن تقع بينهما الموقعة الفاصلة ، أرسل عبد الملك أخاه محمد بن مروان وابنه عبد الله ، ليعرضا على أهل

العراق عزل الحجاج عنهم . فان قبلوا وثابوا الى الطاعة
عزله عنهم ، وولى بدلا منه أخاه محمد بن مروان أميرا على
العراق ، وأجرى عليهم أعطياتهم مثل أهل الشام . فمال
عبد الرحمن الى قبول العرض ، ولكن أهل العراق رفضوا ،
وأصروا على موقفهم وعلى خلع عبد الملك . فلم يكن بد
من القتال .

وكانت بين الفريقين مواقع هائلة بدير الجماجم ،
استمرت مائة يوم . وكانت نهايتها في ١٤ من جمادى
الآخرة سنة ٨٢ ، حيث تمت الهزيمة على ابن الأشعث
وجنوده .

وكان الحجاج قد أمر بعد الهزيمة بعدم اتباع
الناس ، ونادى مناديه : من رجع فهو آمن ، ومن لحق
بقتيبة بن مسلم بالرى فهو آمن . فلهق به كثيرون . ودخل
الحجاج الكوفة منتصرا ، وجاء الناس يبايعونه ، فكان
لا يرضى مبايعتهم الا اذا شهدوا على أنفسهم بالكفر
بخروجهم هذا . واستعمل الشدة ، فقتل من الخارجين عددا
غير قليل . أما ابن الأشعث فهرب الى البصرة ، وأراد أن يقاتل
فهزم مرة أخرى ، ففر الى سجستان . واتتهى أمره ، بأن
أرسل الحجاج الى رتبيل يطلب منه أن يرسل اليه ابن

الأشعث ، فأراد رتبيل أن يرسله . فلما أحيط به ألقى نفسه من فوق قصر فمات : أى انتحر . وهكذا أحبطت هذه الفتنة ، بعد أن سفكت الدماء وذهب فيها عدد كبير من أهل العراق وجنود المسلمين .

التمرد وسياسة الحجاج

وخلاصة الحكم على هذه الفتنة أنها لا يمكن أن توصف الا بأنها « حركة تمرد وعصيان » ، من جيش العراق على رئيسه الأعلى وعلى الدولة . وأنه لا يمكن أن يسمح لجيش خرج لقتال العدو أن يعود فيقاتل مواطنيه ودولته . ولو كانت الفتنة نجحت ، لأدت الى انشقاق الدولة واندلاع الحرب الأهلية مرة أخرى ، ولعرضت الدولة كلها لأخطر النتائج . وقد أدت — بالفعل — الى ضياع أرواح كثيرة ، فكانت هذه خسارة عامة .

لكن — من ناحية أخرى — تدل هذه الثورة على خطأ سياسة الحجاج . وقد ذمنا من قبل هذه السياسة ، وبيننا أنها كانت سياسة قهر وعنف . فنفرت الناس وحضرت في قلوبهم الكراهية له ، بل ولدولته . وكانت هذه الحركة — التى هددت بأفدح الأخطار — ثمرة مرة لسياسته تلك :

سياسة الشدة والتسلط ، دون محاولة اجتذاب قلوب الناس بالعدل والرحمة . وقد رأينا — في مناسبة سابقة — أنه كان ينبغي للخليفة عبد الملك — بعد أن فرغ من أمر الخوارج — أن يستبدل بالحجاج واليا آخر ، يتبع سياسة جديدة تهدف الى ربط قلوب الناس بالدولة ، بشعور الولاء والمحبة . ولكنه لم يفعل ، فكانت هذه هي النتيجة . ويبدو أن عذر عبد الملك في ذلك أنه — أولا — فوض أمر العراق الى الحجاج ، وكان أوثق ما يكون من اخلاصه له وللدولة . وثانيا — لأنه — كما أشرنا اليه من قبل — كان سييء الرأي في أهل العراق ، اذ كان يرى أنهم ميالون الى الغدر وعصيان الأوامر ، فهم محتاجون الى الشدة ، ولا يسيرهم الا رجل قوى مثل الحجاج .

ولكن سياسة الشدة — ان كان لا بد منها — فيجب أن تكون موقوتة ، ولا تتخذ مبدأ دائما ، ويجب أيضا أن تقترن بالعدل . وقد كان لأهل العراق شكاوى يجب الاعتراف لبعضها بأنها كانت عادلة . فمن ذلك أن الدولة كانت تسير على قاعدة تفضيل أهل الشام ، ومنحهم إعطيات أكبر . وكان جند الشام يقيمون بالعراق فيتأذى بهم الناس ، فكانت هذه محاباة أو تحيزا . وسياسة المحاباة تضر الدولة

لأنها تفسد القلوب . كما أن الحجاج كان صارما في عقوبته ،
شديدا على أهل الخراج ، مسرفا في الدماء . والواقع أنه
كان يعامل العراق كأنه اقليم محتل ، ويعامل أهله كأنهم
شعب مغلوب . وكان موقفه منهم موقف الحاكم العسكرى ،
الذى يسيرهم ويجبرهم بما يشبه الأحكام العرفية . وكان
ينعتهم في خطبه بأنهم « أهل الشقاق ، والنفاق » ،
و « الفجرات » و « الغدرات » و « النزوات » ، ويقول انه
ما شغب شاغب ، أو نعب ناعب ، الا كانوا أتباعه وأنصاره!
فكانت الثقة منعدمة اذن بين الجانبين ، واتسعت الهوة بينه
وبينهم . فكان لا يستطيع أن يعيش بينهم الا اذا ظل هكذا
حاكما عسكريا ، أو جبارا ، أو « ديكتاتورا » . وقد ظل
يعتمد في حكمه لهم على جند الشام . ولذا بنى لهؤلاء
الجند مدينة « واسط » ، لتكون قاعدة لهم .

فهذه سياسة خاطئة ، كان من نتائجها تلك الثورة التى
كادت أن تهدم كل شىء ، وتطيح به . وعرضت الدولة لخطر
جسيم . وقد جعلت اسمه — على رغم الأعمال العظيمة التى
قام بها — مكروها فى الأجيال . بل أساءت أيضا الى سمعة
عبد الملك . ولئن نجحت هذه السياسة فى المدى القريب ،
فانه كان لا بد أن تحدث عنها نتائج ضارة أو خطيرة ، فى

المذى البعيدا . وفى رأينا أن الحجاج وسياسته كانا من
العوامل التى أدت الى انهيار دولة بنى أمية ، فيما بعد .
على أننا — مع هذا كله — لا نبرر أن يقوم أهل
العراق بثورة ، كتلك التى قاموا بها . وليس الطريق للوصول
الى الانصاف ورفع الشكاوى هو طريق السيف ، ومقاتلة
المواطنين ، ومحاولة هدم الدولة التى تكفل الأمن والسلام
والعزة للجميع . ان الحركة التى قام بها جيشهم فى
سجستان — وما بعد ذلك — بقيادة ابن الأشعث ، لا يمكن
أن تترى الا على أنها حركة تمرد وعصيان ، من جيش على
رئيسه الأعلى وعلى الدولة . ومثل هذه الحركة تدمغ اليوم
بأنها خيانة وطنية . ولا يمكن أن تبرر على أى وجه . وانما
نحن نبين أن الحجاج بسياسته هذه مسئول عن قيام هذه
الحركة ، والنتائج السيئة التى أدت اليها . انه يحمل — الى
حد كبير — وزر الحركة . لأنه دفع الناس اليها ، وهياً الجو
لها باعدامه الثقة بينه وبين الرعية ، واتباعه سياسة العنف
التي تبث الكراهية ، بدل سياسة التعاون والانصاف
والعطف . ولا نبرىء ابن الأشعث أيضا من المسئولية ، لأنه
عصى أميره ، واستغل الموقف ليرضى طموحه ، وظن أنه
سينجح بفتنته فيحقق مجدا شخصيا . ولكنه لاقى جزاءه .

ففر وشرد ، ثم لم يجد أمامه إلا أن يقتل نفسه . ولقد أضع
أهل العراق فرصة طيبة ، حينما عرض عليهم الملك عزل
الحجاج ، فرفضوا . كان هذا العرض عدلا وانصافا من
عبد الملك ، وحسن سياسة . وبه أقام الحجة عليهم . وهم
أخطأوا خطأ بالغاً برفضهم ، وكانوا في ذلك مأفونى الراى .
على كل حال ، أراد الله للدولة الخير . ففشلت هذه
الحركة . ونال مشيروها جزاءهم . ووقى الله الأمة والمسلمين .
ونجت الدولة . واستمرت في طريقها لتحقيق أعمالها الكبيرة .

(ب) الاصلاحات

أولا : — إصدار العملة العربية

ظلت الدولة الاسلامية العربية ، منذ نشأتها حتى عهد
عبد الملك بن مروان ، تتعامل بالنقود الأجنبية . ذلك أن
العرب منذ الجاهلية كانوا يذهبون في التجارة الى بلاد
الروم ، فيحصلون على عملة الدولة الرومية . ويذهبون
كذلك الى بلاد الفرس أو اليمن ، فيحصلون على العملات
الفارسية واليمنية . وكانت هذه هى النقود الموجودة في
الأسواق . ولما ظهر الاسلام وفتح العرب تلك البلاد ،

وجدوا فيها العملات الرومية والفارسية . كانت الدنانير الذهبية ترد اذن من بلاد الروم ، والدراهم الفضية تأتي من بلاد الفرس ، وهناك دراهم قليلة ترد من بلاد اليمن . ولم تهتم الدولة الاسلامية — في بادىء الأمر — بأن تصدر نقودا خاصة بها . فهذه العملات في بادىء الأمر كانت موفورة . وكل ما فعله الاسلام أن أقر وزنا شرعيا خاصا ، وهو الوزن الذى كانت تتعامل به قريش في مكة . وذلك لأن العرب والتجار كانوا يتعاملون بهذه النقود بالوزن — لا بالعدد — كأنها تبر ، وليست نقودا ، لاختلاف أحجام وأوزان الوحدات النقدية ، فلا يضمن العدل الا بالوزن .

ثم اتسعت الدولة الاسلامية ، وتطورت الى امبراطورية ممتدة الأطراف ، وكثر فيها التعامل وازداد نشاطها التجارى . وكانت دولة الفرس قد انتهت . وانقطعت العلاقات التجارية بين الدولة الاسلامية والروم — أو قلت . فأدى ذلك الى أنه — فى الوقت الذى كثر فيه التعامل ، وازداد النشاط الاقتصادى فى الدولة الاسلامية — أخذت تقل كمية النقود السائلة فى الأسواق ، لانقطاع مصادرها ، أو صارت — باطراد — لا تتناسب ولا تتكافأ مع نشاط الدولة المالى ، وحاجاتها الاقتصادية . وظلت الحالة تزداد سوءا ، حتى وصلت الى درجة خطيرة .

وكان أهم عامل أدى الى سوء الوضع المالى — ولا سيما بالنسبة للنقود الفارسية — أن هذه النقود دخل عليها الغش والتزييف ، منذ أواخر عهد الدولة الفارسية . واستمر الغش فيها بعد ذلك ، وكذلك كثر تزييف أو انقاص العملة الذهبية . قال « قدامة » بالنسبة للدولة الفارسية : « ولما أخذ أمر الفرس يضحل ، ودولتهم تضعف ، وسياستهم تضطرب — فسدت نقودهم . فقام الاسلام ونقودهم من العين (الذهب) والورق (الفضة) غير خالصة . الى أن اتخذ الحجاج دار الضرب وجنع فيها الطباعين الخ » . وقرر ابن خلدون أنه « تفاحش الغش فى الدنانير والدراهم » ، « الى أن جاء عبد الملك وأمر بطبع العملة » . وهكذا كانت العملة الموجودة بالأسواق — كما تقول بالتعبير الاقتصادى — قد أصبحت « عملة رديئة » . والعملة الرديئة — كما ينص على ذلك قانون اقتصادى مشهور — تطرد دائما العملة الجيدة من السوق . وأدى ذلك الى نتائج اقتصادية ضارة كثيرة : فمنها هبوط قيمة العملة ، وارتفاع أسعار الحاجيات ، وزوال الثقة المالية ، ومن أهمها الغبن الذى يقع على الدولة فى استيفاء حقوقها من الضرائب ، فيؤدى ذلك الى نقص كمية الخراج .

لكل هذه الأسباب ، ولأنه ما كان يمكن أو يصح أن
تظل دولة — بل امبراطورية كبيرة كالدولة العربية
الاسلامية — معتمدة في تعاملها التجارى أو الاقتصادى
العام على تقود أجنبية — كان لابد من اتخاذ اجراءات
لاصلاح هذا الوضع المالى الجامد ، الذى صار غير طبيعى ،
وأيضاً لكى تستكمل الدولة شخصيتها أو مقوماتها
الاقتصادية ، وتحقق سيادتها أو استقلالها المالى ، وتتم
كرامتها القومية .

وجاء حادث يؤثر فى الكرامة القومية. فكان هو السبب
الأخير أو المباشر ، الذى جعل المسئولين يرون ضرورة البدء
فى الاصلاح . هذا الحادث كان من أسباب سوء العلاقات
بين الدولة الاسلامية ودولة الروم البيزنطية ، الذى سبق
اعلان الحرب بينهما . وهى الحرب التى نشبت بين الخليفة
عبد الملك وجستنيان — التى أشرنا اليها قبلاً . وذلك فى
سنة ٧٣ هـ (٦٩٢ م) وما بعدها . وموجز الحادث أن مصر
— وكانت مشهورة بصنع الورق — كانت تصدر ورق
الكتابة (القراطيس) الى دولة الروم ، وكانت الدولة
الاسلامية — فى مقابل ذلك — تحصل على الدنانير
الرومية . فحدث أن عبد الملك بن مروان أمر أن تكتب آية :

« قل هو الله أحد » في صدر هذه الصحف ، وبديل عبارات التثليث ، والصليب الذي كان يرسم عليها . فغضب ملك الروم ، وكتب الى الخليفة : « انكم أحدثتم في قراطيسكم كتابا نكرهه . فان تركتموه ، والا أتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه » . فسأ ذلك عبد الملك وكبر عليه ، وشعر أن ملك الروم يهدده . وحينئذ أدرك أن الدولة الاسلامية الكبيرة لا يصح أن تظل معتمدة على النقد الذي يرد من بلاد العدو ، وتبقى عرضة لتهديده أو اذلاله . وهو العدو الذليل الذي يجب أن يبقى خاضعا .

قرر عبد الملك اذن أن يحقق للدولة استقلالها المالى ، ويجرى الاصلاح الذى يزيل المفاصد الاقتصادية التى تحدثنا عنها ، ويضمن سلامة العملة ، ويوفر الشروط اللازمة للنمو الاقتصادى وانتشار الرخاء . وبذلك قرر اصدار العملة العربية القومية . وفى عام ٧٤ هـ أنشأ دارا للضرب فى دمشق ، وبدأ باصدار الدينار العربى الذهبى ، فى ذلك العام — وهو عام الجماعة . وكذلك أصدر أمره الى الحجاج بانشاء دار للضرب فى الكوفة ، وبدأ الحجاج باصدار الدرهم العربى الاسلامى . وعمم ضرب العملة فى جميع الأنحاء منذ سنة ٧٦ هـ . وقد أصدر عبد الملك الدينار

والدرهم على الوزن الشرعى ، والنسبة المعينة التى حددها الاسلام ، وذلك منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام والخليفة عمر بن الخطاب . فجاءت عملة نقية خالصة . وحرصت الدولة على سلامة النقد . ومنعت ضرب النقود الا فى الدور الحكومية المعتمدة . وشددت فى عقوبة من يمس العملة بغش أو تزيف . فكان هذا اصلاحا شرعيا أو عملا دينيا أيضا ، يضاف الى حسنات عبد الملك ، الى جانب انه اصلاح اقتصادى .

ولما صدرت العملة الاسلامية وكثرت ، أمر عبد الملك بمنع التعامل بالنقود الأجنبية الرومية والفارسية وغيرها ، التى كان أكثرها عملة مغشوشة — كما بينا — وجمعت من الأسواق ، وأعيد سبكها وطبعها على النسبة الجديدة . وهكذا بطل التعامل — نهائيا — بالنقود الأجنبية . وصارت العملة الرسمية المعترف بها ، منذ ذلك الحين ، هى العملة العززية الاسلامية الصحيحة : الدينار العربى الذهبى الخالص ، والدرهم الاسلامى الفضى الخالص ، والوحدات اللائى ينقسمان اليها . وأصبحت سمعة هذه العملة أشرف سمعة ، لأنها كانت تمثل أعلى درجة فى الجودة والنقاء .

هذا الاصلاح الكبير — الذى كانت له أنفع النتائج

الاقتصادية ، ووفر للدولة أيضا ، من ناحية أخرى ، أحد عناصرها المعنوية ، ومقوماتها القومية — كان الفضل فيه للخليفة عبد الملك بن مروان .

ثانياً — اللغة العربية هي اللغة الرسمية

نفذ عبد الملك أيضا اصلاحا آخر ، كان له أجل النتائج من حيث صيانة أحد المقومات الكبرى للأمة ، وحفظ كيائها القومية ، وهو خاص باللغة . واللغة — بلا جدال — من أكبر مقومات وأهم أركان القومية .

فقد بقيت أهم دواوين في الدولة — وهي دواوين الخراج — وهي التي كانت تشرف على الشؤون المالية للدولة ، وكانت موجودة في عواصم الدولة العربية الإسلامية ولها فروعها في مدن كثيرة — بقيت هذه الدواوين تستعمل اللغات الأجنبية — كما كانت حالها في عهود الدول السابقة قبل ظهور الإسلام . فكانت لغة الدواوين في العراق هي اللغة الفارسية ، ولغتها في الشام الرومية أي اليونانية ، وفي مصر اليونانية والقبطية . استمر الحال على ذلك ، منذ بدء الإسلام حتى عهد عبد الملك . فكانت نتيجة ذلك احتفاظ الدولة بطوائف من الموظفين ، الذين يعتبرون

أجانب ، أى من غير العرب والمسلمين . ومن نتائج بقاء تلك اللغات الأجنبية حية ، وكأنها معترف بها لغات رسمية ، ويقبل الناس على تعلمها واثقانها لحاجة الدولة إليها ، وكونها طريقا لتولى الوظائف العالية . ولو استمر الحال كذلك لبقيت هذه اللغات منافسة للغة العربية ، ولما أمكن للغة العربية أن تتغلب عليها ، بل لأدى ذلك الى انتشار هذه اللغات الأجنبية ، وكان هذا يضعف من شأن اللغة العربية وخطرا يهددها . وبالتالي كان يضعف من تكوين الدولة القومية .

وشعر عبد الملك بتعارض هذا الوضع مع شخصية الدولة العربية الاسلامية ، التى كان يرأسها ويرعاها . وكان هو مهتما بالاشراف على جميع شئون الدولة ، وحريصا على أن تبلغ الادارة درجة عالية من الكفاءة والدقة والانتظام ، ووجد — من الناحية العملية — أن هذا لا يمكن أن يتم ما دام هؤلاء الموظفون غريبين عن الدولة ، وما دامت اللغات التى يستعملونها فى الأعمال والمكاتبات الرسمية هى لغات أجنبية . فقرر عبد الملك ازالة هذا الوضع الشاذ ، وأصدر أوامره بتحويل الدواوين الى اللغة العربية ، فتكون اللغة العربية هى اللغة الرسمية الوحيدة فى جميع الدواوين ،

وفي الدولة . وهذه هي الحركة التي تسمى في كتب التاريخ بحركة : « تعريب الدواوين » . وكانت لها نتائج عظيمة بعيدة المدى .

كان رئيس ديوان الخراج بدمشق هو « سرجون ابن منصور الرومي » ، وكان محتكرا لهذا العمل منذ عهد معاوية . فأمر عبد الملك شخصا عربيا هو « سليمان بن سعد الخشني » ، الملقب أبا ثابت ، أن يقوم بتحويل الديوان من الرومية الى العربية . فقام سليمان بذلك منذ سنة ٨١ هـ . وأتم النقل بعد سنة . وكان عبد الملك قد جعل له خراج الأردن في مقابل هذا العمل . ولما أتم النقل ، عزل سرجون وتولى سليمان رئاسة الديوان . وحينئذ قال سرجون لكتاب الروم : « اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة » . وأمر عبد الملك بتحويل جميع دواوين الشام ، على هذا النحو . وكان رئيس ديوان العراق يسمى « زاذان فروخ » — وهو فارسي — وكان محتكرا لهذا العمل كذلك من أيام يزيد — وقتل في أثناء فتنة ابن الأشعث في عام ٨٢ هـ . وجاء قتله مناسبا للوقت الذي اتجهت فيه الدولة الى تعريب الدواوين ، وصدر الأمر بذلك من الخليفة عبد الملك . فعين الحجاج بدلا منه صالح بن عبد الرحمن ، وأمره بتحويل ديوان العراق من الفارسية الى العربية . وكان صالح

يصدق اللغتين معا . وحدد الحجاج له أجلا لينهى عمله .
فأتم مهمته بنجاح . وحكى أن « مردانشاه » بن زاذان
فروخ بذل له مائة ألف درهم ، على أن يظهر عجزه عن هذا
العمل ويمتنع عنه ، فأبى . وحينئذ دعا عليه لأنه — كما
قال — قطع أصل الفارسية . وأمر الحجاج بتحويل جميع
دواوين العراق من الفارسية الى العربية . وتخرج على يد
صالح هذا أكثر كتاب العراق . ولذا كان عبد الحميد
الكاتب يقول : « الله در صالح . ما أعظم منته على الكتاب » .
وكذلك تم نقل ديوان الخراج أيضا في مصر ، من
اليونانية والقبطية الى اللغة العربية ، ولكن في وقت بعد
هذا . أمر بنقله عبد الله بن عبد الملك في آخر عهد أبيه .

ثم تم تحويل جميع الدواوين في سائر أنحاء الدولة الى
العربية ، في أوقات بعد ذلك .

بذلك أصبحت اللغة العربية هي لغة جميع الدواوين ،
ولغة الدولة . وكانت كبرى نتائج ذلك ابطال تلك اللغات
الأجنبية ، فتحقق نصر اللغة العربية عليها . وكان تعريب
الدواوين سبيلا الى تعريب الجاليات والأقاليم ، فكان هذا
من أكبر العوامل في انتشار العربية . ولما كانت هي اللغة
التي تؤدي الى الوظائف والمناصب العالية ، فقد أصبحت لها

المكانة الممتازة . وأقبل الموالي وغيرهم على تعلمها وأتقانها ، فتكونت في الدواوين طبقات من الموظفين المثقفين الذين حصلوا على قدر من الثقافة العربية ، ونبغوا في الكتابة والآداب العربية . ومن أظهر الأمثلة في ذلك : عبد الحميد الكاتب ، ثم كبار الكتاب في عهد بني العباس .

حفظ للأمة العربية اذن أكبر مقوم لثقافتها القومية ، وأعلى عنصر تعتز به — بعد دينها — في تكون شخصيتها — ألا ، وهو اللغة العربية . وكان لعبد الملك فضل لا يقدر في ذلك .

مكاته في التاريخ

فالآن بعد أن وصلنا الى هذه الغاية ، وفي ضوء ما قدمنا من حقائق عن سيرة عبد الملك وأعماله وفتوحاته واصلاحاته ، نستطيع القول بأن مكاته في التاريخ قد أصبحت واضحة . فهذه المكانة تحددها الجوانب الرئيسية التالية :

أولا : أنه حفظ الدولة وثبت دعائمها ، ومكنها من البقاء والاستمرار .

ثانيا : أنه حقق وحدة الدولة . وهذا مطلب غال . وهو أكبر ضمان لبقائها ونموها وازدياد قوتها .

ثالثا : أنه عمل على تقوية الدولة ، وجعلها تسترد
مكائنها وهيبتها وسيادتها على الأعداء — كما
كانت ، أو أكثر .

رابعا : أنه وسع حدود الدولة ، فأضاف اليها أقاليم
جديدة . وأهم ما تحقق في هذا الشأن فتوحه في
بلاد المغرب . فأصبحت منذ ذلك الحين جزءا
لا يتجزأ من الدولة العربية .

خامسا : وضع أساس السيادة الاقتصادية للدولة
بإصداره العملة العربية .

سادسا : حفظ أحد المقومات الكبرى للدولة وللقوموية
بتحويله جميع الدواوين الى اللغة العربية .

وقد استمرت الدولة بعد ذلك محتفظة بهذه المميزات
والمقومات والأسس ، حتى بعد أن انتهى عهد الدولة الأموية ،
وذلك بعد نحو نصف قرن . فان الدولة العباسية انما قامت
— أيضا — على هذه الأسس ، واحتفظت بهذه المقومات .
وكانت — على رغم تغيير الأسرة — استمرارا للدولة
الأموية ، من حيث القواعد الجوهرية . ولولا اقامة عبد الملك
للدولة على أسس ثابتة ، وتحقيق وحدتها ، وإعادة قوتها
وزوحها وتدعيم نظمها — لما أمكن لبنى العباس أن يقيموا

دولتهم ويحفظوها ، ويسيروا بها الى أن أوصلوها الذروة
التي بلغتها . فاللاحق بنى على جهود السابق ، والدولة
الاسلامية العربية استمرت في حياتها .

بقيت بعد ذلك جوانب ، تعرف من دراسة شخصية
عبد الملك وصفاته وسياسته ، وتتصل أيضا بأثره في التاريخ
ببقاء الخلافة والملك في بيته . اذ تولى أمانة الحكم بعده
أولاده ، ثم استمر الملك في أحفاده وذريته حين أقاموا الدولة
الأموية الأخرى في المغرب : أي الأندلس . فهذه هي النقط
الباقية ، وتحدث عنها الآن ، ليتم بها الحديث عن هذه
الشخصية الكبيرة الأثر في التاريخ .

الفصل العاشر

شخصية عبد الملك . سياسته . خلفاؤه

لا بد أن شخصية عبد الملك قد أصبحت الآن متميزة من خلال دراسة سيرته وأعماله وجهوده وسياسته . لكن هذه الصورة تزداد وضوحا وجلاء ، وتتحدد ملامحها ، اذا عينا الصفات الخاصة التي تميز شخصيته ، وجمعناها في نسق واحد . وعرفنا نماذج من صلاته الانسانية ، وأسلوب اشرافه على الدولة ومبادئ سياسته ، ومن حياته في الأسرة وأثره فيها . وهذا ما نحاول أن نضيفه — فيما يلي — الى هذه الصورة . وهو ختام البحث .

فاذا أردنا — أولا — أن نعرف شيئا عن صورته الجثمانية ، فلم يرد الا القليل . فهذا ما ورد . قال « المدائني » : « كان عبد الملك آدم (أى أسمر) جميلا أقنى ، كأنه من رجال ثمود في تمامه » . واستشهد بعد ذلك بما قال عبد الله أثنائها منطقة « بادغيس » كلها ، واستولى على حصونها . ابن قيس الرقيات ، وهو يمدح عبد الملك :
يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب !

فحكى المدائنى أن رجلا سمع هذا الشعر ، فقال :
نعلم — والله — أنه (أى الشاعر) قد رآه : أى أن
هذا الوصف صادق ينطبق على عبد الملك .
فبعد أن تتخيل عبد الملك فى هذه الصورة — تتقدم
لمعرفة صفاته النفسية ، ويهتأ أن نعرف الصفات البارزة
قبل كل شىء .

فها قد تبين لنا من دراسة تاريخ عبد الملك أنه كان قوى
الارادة ، وأنه كان ثابت العزم ، يصر على الوصول الى
غايته ، مهما كان فى طريقه من عقبات ، ومهما حاول المترددون
أن يشبطوا من همته . وكانت الشجاعة لديه موفورة ، فيقدم
على ارسال الجيوش ومنازلة الخصوم وخوض معارك
القتال ، دون أن يتهيب الصعاب أو يخشى المخاطر . وهاتان
الصفتان : قوة الارادة ، والشجاعة — فى مقدمة الصفات
التي تشترط للقيادة والزعامة ، فلا يصلح لقيادة الأمم ورياسة
الدول الا من كانت متوفرة فيه هاتان الصفتان . وبفضل
هاتين الصفتين ، استطاع عبد الملك فعلا أن يصل الى غايته :
من الانتصار على خصومه ، ونجاحه فى تحقيق الوحدة .

وكانت تصاحب هاتين الصفتين — أو هى فرع عنهما —
صفة عبر عنها القدماء ، فى تحدثهم عن عبد الملك ، بأنها :

« الحزم » . ويقصد به الثبات في مواجهة المواقف ، واتخاذ القرارات ، والبت في الأمور دون تردد . ولذا قالوا : « كان معاوية أحلم . وعبد الملك أحزم » . وبذلك شهد له أبو جعفر المنصور — وقد ذكر ملوك بني أمية — فقال : « كان عبد الملك أشدهم شكية ، وأمضاهم عزيمة » . فاذا أردنا أن نجمع هذه الصفات كلها في صفة واحدة ، ونجعلها صفة تعبر عن شخصية عبد الملك — قلنا ان الصفة التي نستخلصها من تصرفات عبد الملك وأعماله وسياسته هي : القوة . فالقوة هي الطابع العام لشخصيته : القوة في الإرادة والعزم والسلوك والتنفيذ . وقد كان الموقف الذي وصلت اليه الأمة والدولة في ذلك الوقت — كما شرحنا في الفصول السابقة — يتطلب رجلا له هذه القوة النفسية ، ليحل الأزمات والمشاكل بقرارات نهائية يتخذها وينفذها ، بقوة الإرادة والاصرار والحزم . وهكذا تمكن عبد الملك من حل جميع المشاكل التي كانت أمامه — وقد سبق أن فصلنا القول فيها — فحين ترك الدولة لابنه الوليد تركها هادئة ، خالية من المشاكل والتعقيدات . فكانت سفينة الحكم في عهد الوليد تسير في بحر مستقر ، وجو هادئ ، ولذا أمكن أن تتم في مدته أعمال عظيمة .

ومن الأمثلة الظاهرة على حزم عبد الملك : تصرفه في مسألة عمرو بن سعيد الذي قام بمؤامرة لقلب الدولة ، فقد تحرك عبد الملك بسرعة ، وبت في الأمر ، وقضى على الفتنة في مهدها ، دون أن يدفعه الى التردد عامل القرابة والصلة ، أو مكانة عمرو أو اعتبارات أخرى . وقد ذكر عبد الملك هذه المسألة — في أواخر عهده — في أثناء حديث جرى بينه وبين أحد مستشاريه حول التأني والعجلة ، فقال عبد الملك : « .. ربما كان في العجلة خير كثير . أرأيت عمرو بن سعيد ، ألم تكن العجلة في أمره خيرا من التأني فيه » ! . وقد كانت هذه المسألة مثلا أو درسا ، ردع من كانت نفسه تحاول أن تحدثه أن يفعل مثلما فعل عمرو بن سعيد .

وقد كان من نتائج صفة القوة أن عبد الملك كان شديدا في سياسته . وهذه الشدة كانت موجهة — بصفة خاصة — ضد المخالفين أو العصاة ، أو من يحتمل أن يكونوا كذلك . وقد ظهرت هذه الشدة في معاملته لأهل العراق . فلا شك أن عبد الملك أوصى عامله الحجاج حين أرسله الى العراق أن ينهج منهج الشدة ، وتدل على ذلك خطبة الحجاج . وكان الأمر يقتضى ذلك ، لتخاذل أهل العراق عن الدفاع عن وطنهم والدولة ضد الخوارج ، ودأبهم على العصيان . لكن

الحجاج استمر في هذه السياسة ، وجعلها قاعدة بعد انتهاء مقتضيتها . فأدت الى عكس ما يراد منها . فكان هذا خطأ في السياسة . وقد أوضحنا ذلك فيما مضى حين تحدثنا عن سياسة الحجاج ، وحملنا عبد الملك أيضا جانبا من المسؤولية . وقد بينا أيضا في فصل سابق « الرابع » السبب أو العلة في انتحاء عبد الملك منحى الشدة واتباع سياسة الصرامة والحزم ، فقلنا ان أكبر درس تلقاه في مطلع عمره ورسبت عبرته في أعماق نفسه كان هو الدرس الذي أخذه من مقتل الخليفة عثمان ، الذي كان عيد أسرته وقمة مجدها . فقد فجع بمصرع هذا الخليفة . ولم يجد سببا لحدوث القاجعة أو الكارثة الا ضعف أو تهاون عثمان ، اذ أن الخليفة لو كان اتبع سياسة الشدة ضد الذين شغبوا عليه ، لقضى عليهم من بادىء الأمر ، ولم يعرض نفسه والدولة للكارثة التى وقعت . فمن ذلك الحين وعى عبد الملك هذا الدرس ، ثم رأى الفتن التى حدثت بعد ذلك وعواقبها . فحين شاءت الأقدار أن تضعه فى موضع عمه الخليفة عثمان ، عزم على أن يطبق الدرس ويتمسك به ، ~~بمسلكه~~ ^{بمسلكه} الفتن ويعتقد أن خير سياسة هى الشدة أو القوة وفيها النجاة للنفس والدولة ، وأن فى الضعف والتردد الخطر والهلكة . وقد أوردنا فى

ذلك الفصل المذكور نص حديث عبد الملك عن هذا الموضوع، وكان مما قال فيه : « وما خالف عثمان عمر في شيء إلا باللين . فان عثمان لان لهم حتى ركب . ولو كان غلظ عليهم جانبه كما غلظ عليهم ابن الخطاب ، ما نالوا منه ما نالوا » .

وتظهر هذه السياسة في خطب ولاته كخطبة الحجاج ، وفي خطبه هو أيضا . ونذكر هنا نص خطبتين له — وهما يبينان أيضا أسلوبه في الخطابة : —

فالخطبة الأولى خطبها في دمشق ، بعد حادث عمرو ابن سعيد ، وفيها قال — بعد المقدمة — : « أرموا بأبصاركم نحو أهل المعصية ، واجعلوا سلفكم لمن غير منكم عظة .. ولا تكونوا أغفالا من حسن الاعتبار ، فتزل بكم جائحة السطوات ، وتجوس خلالكم بواد النقمات . وتطأ رقابكم بثقلها العقوبة ، وتترككم همدا رفاقا ، وتشتعل عليكم بطون الأرض أمواتا . فايأى من قول قائل ، ورشقة جاهل . فأنما بينى وبينكم أن أسمع النغوة ، فأصمم تصميم الحسام المطرور ، وأصول صيال الحنق الموتور . وأنما هي المصافحة والمكافحة بظبات السيوف وأسنة الرماح .

فانظروا لأنفسكم وأقبلوا على حظوظكم . وليكن أهل
الطاعة يدا على أهل الجهل من سفهائكم . واستديموا النعمة
التي ابتدأتكم برغيد عيشها ونفيس زيتها ، فانكم من ذلك
بين فضيلتين : عاجل الخفض والدعة ، وآجل الجزاء والمثوبة .
عصمكم الله من الشيطان وفتنته ونزغه ، وأمدكم بحسن
معونته وحفظه . انهضوا — رحمكم الله — الى أعطياتكم
غير مقطوعة عنكم ولا مكدره عليكم » .

أما الخطبة الثانية فقد خطبها بالمدينة — وذلك بعد عودته
من مكة عام حج سنة خمس وسبعين . وكان ذلك بعد احرازه
النصر وانهاء أمر عبد الله بن الزبير ، فقد صعد المنبر وألقى
الخطبة التالية :

« أما بعد — أيها الناس — فلست بال خليفة المستضعف
ولا الخليفة المداهن ، ولا الخليفة المأفون (يعنى بذلك
الخلفاء : عثمان ومعاوية ويزيد — على الترتيب) .

ألا واني لا أداوى أدواء هذه الأمة الا بالسيف ، حتى
تستقيم لى قناتكم . فمن أحب أن يبدى صفحته فليفعل .

تكلفونا أعمال المهاجرين ، ولا تعملون مثل أعمالهم ؟
ان الله عز وجل فرض فرائض وحدد حدودا . فما زلت

تزدادون في الذنوب ونزداد في العقوبة ، حتى اجتمعنا وأنتم
عند السيف .

هذا عمرو بن سعيد — قرابته قرابته ، وموضعه
موضعه — قال برأسه كذا ، فقلنا بأسيا فنا كذا .

ألا وأنا نحمل لكم كل شيء ، إلا وثوبا على أمير ، أو
نصب راية .

ألا وإن الجامعة التي جعلتها في عنق عمرو بن سعيد
عندي ، فوالله لا يفعل أحد فعله إلا جعلتها في عنقه .

أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم . « ثم نزل .
فهاتان الخطبتان تدلان على السياسة التي اختارها
عبد الملك ، وهي سياسة الحزم والقوة . ولا غرو ، فهذه
السياسة كانت رد الفعل للفتن التي اجتاحت الأمة وفرقت
أمرها ، وآذتها طوال سنين عديدة . وقد لخص الجاحظ حياة
عبد الملك — في دورها — في قوله الذي سبق أن اقتبسناه
إذ قال : « كان عبد الملك بن مروان سنان قريش وسيفها ،
رأيا وحزما . وعابدها قبل أن يستخلف ورعا وزهدا » .

لستخلص من كل ذلك أن الفترة التي كانت تجتازها
الأمة في ذلك الوقت كانت تتطلب القوة والحزم ، وأن

عبد الملك كان الشخصية المناسبة للموقف ولقيادة الأمة في ذلك الدور ، وأن القوة كانت الطابع العام لسياسته . وكان هو يشعر بذلك وبنقته في نفسه ، اذ كان يقول : « والله ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر منى » .

على أننا يجب أن نفرق بين الشدة والقسوة ، وبينها وبين الرغبة في التسلط أو النزوع الى الاستبداد . فقد كانت شدة عبد الملك بعيدة عن هذا . وانما كانت نوعا من الحزم لمنع الفتن أو قمعها ، وكان رائدها المحافظة على سلامة الدولة وطاعة القانون ، لا الرغبة الشخصية حبا في التحكم أو الانتقام — حتى الشدة — التي تجاوزت حدها — من الحجاج كان رائده العام فيها حرصه على سلامة الدولة وسيادة القانون والنظام ، لكنه أخطأ في التنفيذ وغلا ، فلم يراع الشعور العام ولا الخاص ، حتى انقلب حكمه الى نوع من التجبر والعسف . ولا نخليه أيضا من النزعات الشخصية . وقد لاحظ عبد الملك اسرافه هذا ، فكتب اليه يلومه على ذلك ، وكثيرا ما كان يؤنبه ويرشده . ولما تبين لعبد الملك خطأ سياسة الحجاج في أثناء فتنة ابن الأشعث ، عرض على أهل العراق عزل الحجاج ، وتولية أخيه محمد بن مروان عليهم — كما قدمنا — وكان هذا انصافا وحكمة من

عبد الملك — لكنهم رفضوا ، وأصروا على أن يداوموا
الحرب ضد عبد الملك والدولة ، فاستحقوا بذلك سوء رأى
عبد الملك فيهم ، وصار من الضروري ابقاء الحجاج عليهم ،
عقابا لهم وتأديبا ، وحتى يعودهم الخضوع ويشفيهم من
داء الفتنة والعصيان . فهذه كانت حالة خاصة أو استثنائية .
لكننا نرى أن شدة عبد الملك كان يقرن بها — بصفة
عامة — الحكمة . كما يتجلى ذلك فى توصيته للحجاج أن
يكف عن العلويين ، وأن يجنبه دماء آل أبى طالب . وقد سبق
أن رويناه نص وصاته فى ذلك . ولذا لم يحدث فى عهد
عبد الملك شىء يثير الرأى العام . بل انه أحسن معاملة آل
على وآل العباس . وقد كان هذا من بواعث الاستقرار فى
عهده وعهد ابنه الوليد . ولم نسمع عن قتل أحد من الناس
أو اضطهاده لغرض شخصى ، وحتى الخصوم السياسيين ،
الا من اشتركوا فى فتنة أو ثورة ضد الدولة . بل انما اذا
تعمقنا فى فهم شخصية عبد الملك تبين أن شدته كانت
ظاهرية ، وأنها كانت مجرد اتخاذ موقف حازم من المخالفين
والعصاة لأن الضرورة العملية كانت تقتضى ذلك ، أى أنها
كانت سياسة فرضتها أو تفرضها الظروف والأحوال القائمة .
أما حقيقة شعور عبد الملك فانه كان يميل الى العفو والمسامحة

والود . فنرى ذلك من أنه كان يعرض الأمان على أعدائه قبل بدء القتال وفي أثنائه ، ويكره قتلهم . ثم يعز عليه مصيرهم : كما حدث مع مصعب ، وعبد الله بن الزبير وزفر بن الحارث ، ومن كان معهم ، وغيرهم . فهذا يدل على سمو نفسية عبد الملك وسماحته ، وتشبعه بالروح والعاطفة الإنسانية . ومن قبل من هؤلاء الأمان وفي له وعفا عنه ، بل أكرمه ، كما حدث له مع زفر وابنه الهذيل — بعد أن ظلا يقاتلانه سبع سنوات . وقد صاروا بعد من خواص جلسائه . ولو كان مصعب وعبد الله بن الزبير قبل الأمان ، لاستبقيا حياتيهما .

وكما حدث أيضا من عفوه عن اخوة وأبناء عمرو بن سعيد وأسرته ، ثم وصله لهم وبره بهم . وأمثلة عفوه عن خصومه كثيرة . فقد عفا عن القواد الذين كانوا مع مصعب وحاربوه من قبل . فقد روت الأخبار أنه « لما قتل مصعب واستقام الأمر لعبد الملك ، دخل عليه عمر ابن عبيد الله بن معمر ، وسويد بن منجوف ، ونعيم ابن مسعود التميمي ، وقيس بن الهيثم السلمي — بعد أن حبسهم على بابه حيناً — فقال عبد الملك : انكم سمعتم مع

الشیطان فكنتهم حزبه ، فلما نکص نکصتم . ثم بعد أن
تکلموا بكلام فيه اعتذار واستعطاف — عفا عنهم ، وأسنى
جوائزهم » . ووردت أنباء أخرى عن عفوه عن كثير من
الناس .

فهذه الشواهد وغيرها تدل على حقيقة نفسية عبد الملك،
وأنه يميل الى الرحمة والعفو والمساملة . وأما الشدة فانها
كانت سياسة وضرورة . أو بعبارة أخرى : ان هذه الشدة
كانت نابعة من عقل عبد الملك لا وجدانه . فهي أشبه بالشدة
التي يلجأ اليها الوالد لضرورة اصلاح ابنه وتقويم مسلكه ،
على حين أن قلبه يفيض بالرحمة والعطف والأسى لما يحدث .
وهو ما يعبر عنه الشاعر بقوله : « فقسا ليزدجروا ، ومن يك
حازما . فليقس أحيانا على من يرحم » . وهذا هو الذي
يتفق حقيقة مع طبيعة نفسية عبد الملك وخلقته ، وهي
نفسية التقى الفقيه الذي يخاف ربه ويعرف أحكامه . واذن
فلا تناقض بين دورى حياة الرجل . ففي الدور الأول كان
عابدا محافظا يشتد على نفسه فى أداء واجبه ، وفى الثانى كان
سياسيا وراعيا ووالدا ، ينهج منهج الشدة للمحافظة على الأمة
والدولة ، وصونهما من شرور الفتن والخلاف والتفرق .
وكلاهما واجب دينى : الأول خاص ، والثانى عام .

فبالخلاصة أن عبد الملك كان رجل الواجب ، صارما في أدائه
والاضطلاع بمسئوليته ، دون أن تختلط بذلك نزعة الحق
أو الانتقام أو التسلط ، بل في استعداد للرحمة والعفو
والمصالحة . وهذه هي السياسة الجديرة بالمسلم الذي يعرف
ربه ، والعربي النبيل .

وحيث قد عرفنا أن قوة عبد الملك وصرامته تنبعان من
عقله ، فقد وصلنا الى صفة جوهرية تميز شخصيته — وتتفرع
عنها صفات أخرى — وهي قوة العقل أو رجاحته . فكل
تصرفات عبد الملك وأعماله وسياسته توحى بأن صاحبها
رجل موفور العقل ، أو « محشو عقلا » ، وأنه شديد الرأي ،
تملى عليه تصرفاته الحكيمة ، ومترن الشخصية . وآية ذلك
ضبطه لعواطفه ، وقدرته على العفو — كما شاهدنا —
ونسيان الماضي ، بما كان فيه من أذى وأضرار . وآيته
انصافه ، حتى لأعدائه . فلم تحمله خصومته لمصعب أو
عبد الله بن الزبير — أو غيرهما — أن ينال منهم ، بل كان
يعطيهم حقهم ويثنى عليهم . فقد تحدث لجلسائه عن مصعب
ووصفه بأنه أشد الناس ، وذلك لأنه — كما قال — : « كان
أكثر الناس مالا ، وقد جعلت له الأمان وولاية العراق ، وعلم
أنى سأفى له للمودة التى كانت بيننا ، فحمى أنفنا ، وأبى

وقاتل حتى قتل ! » . فذكر رجل أن مصعبا كان يشرب النبيذ ، فقال عبد الملك : « كان ذلك قبل أن يطلب المروءة ، فأما مذ طلبها فلو علم أن الماء ينقص مروءته ، ما شربه » . ومدح طارق بن عمرو — وهو القائد الذي كان مع الحجاج في محاصرة ابن الزبير — مدح عبد الله بن الزبير . فاعترض عليه الحجاج ، وقال له : تمدح من يخالف طاعة أمير المؤمنين . فبلغ كلامهما عبد الملك فحكم بأن طارقا هو المصيب .

ومما يشهد بقوة عقل عبد الملك ما حدثت به الأنبياء أن عبد الملك كان اذا دخل عليه رجل من أفق من الآفاق ، قال له : « أعفنى من أربع . وقل بعدها ما شئت : لا تكذبنى ، فان الكذب لا رأى له . ولا تجبنى فيما لا أسألك ، فان فيما أسألت عنه شغلا . ولا تطرنى فانى أعلم بنفسى منك . ولا تحملنى على الرعية فانى الى الرفق بهم أحوج » .

وليس هناك ما هو أكثر حكمة من هذه التعليمات الى من يجالس الحاكم . فهو ينهاه عن الكذب ، لأن الكذب ضلال . وعن أن يخوض فيما لم يسأل عنه . وعن النفاق ومداهنة الحاكم . فليس عبد الملك ممن يقبل أو يغره النفاق ، ويحذره أن يشيره ضد الرعية ، لأنه يرى أن الرفق بهم واجب . ومما يؤيد أيضا ما قررنا ما روى أن عبد الملك سئل : من

أفضل الناس ؟ . فقال : « من تواضع عن رفعة . وزهد عن قدرة . وأنصف عن قوة » . وبالجمله فان أعمال عبد الملك وأقواله تشهد برجاحة عقله وقوة رأيه . وسنقرأ أمثلة أخرى أيضا في وصاياه ، ورسائله ، التي سنورد بعضها بعد قليل .
ومن أهم الصفات التي عرفت عن عبد الملك ثباته عند الخطوب وجلده في الشدائد ، فيحملها بقوة عزمته ولا يرتاع لها .

ومن ذلك ما رواه التاريخ عن أحد أصحاب عبد الملك أنه قال : « رأيت عبد الملك وقد أتمته أمور أربعة في ليلة ، فما تنكر ولا تغير وجهه : قتل عبيد الله بن زياد ، وقتل حبيش ابن دلجة بالحجاز ، وانتفاض ما كان بينه وبين ملك الروم ، وخروج عمرو بن سعيد الى دمشق » . وهذا الخبر يبدو صحيحا في جوهره ، ولكن عند التأمل يعترض عليه بأن هذه الأمور لم تحدث في ليلة واحدة ، ولا في سنة واحدة : فالأول حدث في سنة ٦٧ ، والثاني حدث في سنة ٦٥ ، والأمران الأخيران حقيقة حدثا في عام واحد ، لكن هذا هو عام ٦٩ هـ . كذلك أورد المسعودي رواية فيها أكثر من هذا الخلط ، وذكر أمورا عديدة ثابت أنها حدثت في سنوات متفرقة على أنها وقعت في عام واحد ، أو نفس الليلة .

وكما قلنا ان جوهر الخبر صحيح . وهو أن عبد الملك وردت عليه أخبار مفزعة في ليلة واحدة أو وقت متقارب ، فلم يظهر أثر الانزعاج عليه ولم يتغير وجهه . لكن الرواة خلطوا بين الوقائع ، ونسوا أموراً فذكروا غيرها . وإذا أردنا أن نصحح الخبر ، فإنا نقول ان هذه الأمور الأربعة — التي يمكن أنها وردت أخبارها على عبد الملك — هي : قتل زهير بن قيس بافريقية ، وانتقاض ما بينه وبين ملك الروم وخروج عمرو بن سعيد ، وحدث اختلال للأمن في دمشق . فهذه الأمور الأربعة قد حدثت كلها فعلاً في عام ٦٩ هـ . وقد وردت بعض هذه الأمور في الروايتين ، ولكن مخلوطة بغيرها . وقد ذكر المسعودي في ختام روايته — بعد أن عدد ما نسي الى عبد الملك من المفطعات في تلك الليلة — قال : « فلم ير عبد الملك في ليلة قبلها أشد ضحكا ، ولا أحسن وجهاً ، ولا أبسط لساناً ولا أثبت جناحاً ، منه تلك الليلة — تجلداً وسياسة للملوك » .

إدارته للدولة

أما من حيث أسلوبه في إدارة الدولة ، فإنه كان يشرف على الأمور بنفسه . كان مثال الرئيس العارف بواجبه لا يلهمه

عنه شاغل ، والذي ينظر الى عمله في الدولة أو خدمته لها على أنه الغاية من حياته . كان البريد منتظما في أيامه . فتصل إليه الأخبار والرسائل من جميع الأنحاء ، ويبعث برسائله وتعليماته الى ولايته وعماله . وكان يرجع إليه دائما في الأمور الهامة . وحتى الحجاج — على علو قدره ومقامه — كانت ترد إليه الرسائل والأوامر بانتظام ، ويبعث هو يطلب الاذن بالشروع فيما يهم به من أعمال ذات بال . ومن خلال هذه المكاتبات لا يبدو الحجاج الا مجرد عامل أو تابع ، أو خادم للخلافة والدولة ، فيخاطبه عبد الملك بأشد لهجة اذا اقتضى الأمر . ونورد أمثلة من هذه الرسائل :

كتب إليه عبد الملك بعد موقعة دير الجماجم يقرعه ، ويقول له : « أما بعد ، فقد بلغنى سرفك في الدماء ، وتبذيرك الأموال . وهذا ما لا أحتمله لأحد من الناس . وقد حكمت عليك في القتل بالقود ، وفي الخطأ بالدية . وأن ترد الأموال الى أصحابها ، فانما المال مال الله ونحن خزانه . وقد متعنا بحق فأعطينا باطلا » .

وفي هذه المناسبة كتب إليه الخليفة أيضا ، يأمره أن يعطى الناس عطاءهم . فكتب الحجاج يرر منع العطاء عنهم بأنهم نكثوا العهد ، ونقضوا البيعة وفارقوا الجماعة الخ ،

فرد عايه عبد الملك برسالة شديدة ، قال له فيها : « انما تجب طاعتنا عليهم بأن نعطيهم حقوقهم » .

وكان الحجاج قد كتب اليه أيضا يستأذنه في أخذ زيادة من أموال أهل العراق ، فكتب اليه عبد الملك : « لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك . وأبق لهم لحوما يعقدون بها شحوما » .

أما إحدى الرسائل الشديدة اللهجة فتلك التي كتبها عبد الملك الى الحجاج ، حين أساء هذا الى أنس بن مالك خادم رسول الله وأضرّ به ، إذ أن عبد الله بن أنس كان من الخارجين على الحجاج في بعض الثورات .

غضب عبد الملك لما لحق أحد أصحاب رسول الله ص ، وأقرب الناس اليه ، من الإهانة . فكتب الى الحجاج رسالة قال فيها : —

« من عبد الله عبد الملك بن مروان الى الحجاج بن يوسف . أما بعد ، فانك عبد طمت بك الأمور فطغيت . وعلوت فيها حتى جزت قدرك ، وعدوت طورك . وأيم الله ... لأغمرنك كبعض غمزات الليوث الثعالب ، ولأركضنك ركضة تدخل منها في وجارك ... وقد بلغ أمير المؤمنين استطالة منك على أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ، جرأة منك على

أمير المؤمنين ، وغرة بمعرفة غيره وتقماته وسطواته على من خالف سبيله . وأيم الله لو أن أمير المؤمنين علم أنك اجترمت منه جرماً ، وانتهكت له عرضاً فيما كتب به إلى أمير المؤمنين ، لبعث إليك من يسحبك ظهراً لبطن ، حتى ينتهي بك إلى أنس بن مالك ، فيحكم فيك بما أحب . ولن يخفى على أمير المؤمنين نبؤك . » ولكل نبأ مستقر ، وسوف تعلمون .

وجاءت الأخبار بما يذل على أن عبد الملك بن مروان كان حريصاً على أن تكون النزاهة من أولى صفات عماله وولاته . فقد روى المدائني وغيره أنه بلغ عبد الملك أن بعض عماله قبل هدية . فأمر باشخاصه إليه . فلما حضر قال له : أقبلت هدية مذ وليتك ؟ قال : يا أمير المؤمنين بلادك عامرة ، وخراجك موفور ، ورعيتك على أفضل حال . قال : أجب عما سألتك ! . قال نعم ، قد قبلت ! .

فقال : لئن كنت قبلت هدية لا تنوى أن تعوض المهدى لها ، أنك للثيم . وإن كنت قبلتها لتكافئ المهدى من مال المسلمين ، أو لتقلد رجلاً من عمالك ما لم تكن لتقلده إياه قبل الهدية — أنك لخائن . وإن كنت نويت تعويض المهدى عن هديته من مالك ، فقد فعلت ما جلب لك التهمة ، وبسط فيك لسان معامليك ، وأطمع فيك سائر مجاوريك — فإنك

لأحمق . وان من أتى أمرا لم يخل فيه من لؤم ، أو خيانة ،
أو حمق — لتحقيق ألا يصطنع : (أى يستخدم) . ثم عزله .
أما عن بيت مال عبد الملك ، فقد حدثت الأخبار بأنه « كان
لعبد الملك بيت مال لا يدخله الا مال طيب . لم يظلم فيه مسلم
ولا معاهد . وقد عرف وجوهه . ويقول : لا أستحل الا
طيبا » .

وهذا هو الجدير بالرجل الفقيه العابد التقى ، الذى صار
فيما بعد ملكا . وهو — كما تقول اليوم — الملك العالم .
فعبد الملك كان من طراز الخلفاء السابقين ، وكان يتشبه
بعمر بن الخطاب فى شدته ونزاهته ورعايته لواجبه ، وحرصه
على صالح الدولة .

ويتبين جانب آخر من سياسته العامة فى مثل هذه الوصية
التي أوصى بها ابنه ، حين عهد اليه بامارة مصر — قال له :
« أنظر — أى بنى — الى أهل عملك ، فان كان لهم عندك
حق غدوة فلا تؤخره الى عشية ، وان كان لك عشية فلا
تؤخره الى غدوة . وأعطهم حقوقهم عند محلها ، تستوجب
بذلك الطاعة منهم . وإياك أن يظهر لرعيك منك كذب ،
فانهم ان ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك فى الحق . واستشر
جلساءك وأهل العلم . فان لم يستبن لك فاكتب الى يأتلك

رأى فيه ان شاء الله . وان كان بك غضب على أحد من رعيته ، فلا تؤاخذ به عند سورة الغضب ، واحبس عقوبتك حتى يسكن غضبك . ثم انظر الى أهل الحسب والدين والمروءة ، فليكونوا أصحابك وجلساءك . ثم ارفع منازلهم منك على غيرهم . أقول هذا ، وأستخلف الله عليك» .

وكان كبار معاونى عبد الملك فى ديوان الخلافة بدمشق — أى المتولين رئاسات دواوينه — هم : — قبيصة بن ذؤيب الخزاعى ، وهو من أجلاء فقهاء المدينة ، وقرين عبد الملك فى العلم والعبادة . وكان هو أقرب الناس اليه بمثابة الوزير ، يكتب له ويتلقى الرسائل الخاصة ، وكان صاحب « ديوان الخاتم » . ثم يليه « روح بن زنباع الجذامى » ، وهو من عرب الشام ، وكان معروفا أيضا بالفضل والورع وكمال السيرة ، فتولى رئاسة « ديوان الرسائل » حينما . وكان عبد الملك يقول عنه : « ان روح بن زنباع شامى الطاعة ، عراقى الخط ، حجازى الفقه ، فارسى الكتابة » . كما أنه كتب لعبد الملك أيضا رسائله « أبو الزعيزعه » مولاه ، وهو من بلاد المغرب من البربر المتعربين ، وعرف بسداد الرأى ، والاخلاص فى الطنائة . أما ديوان الخراج — الخاص

بالأموال — فكان الذي يتولاه هو « سرجون بن منصور الرومى » ، كما كان فى هذه الوظيفة منذ عهد معاوية . ولكن حين أمر عبد الملك بتعريب الدواوين ، عين على رئاسة الديوان أحد مثقفى العرب : وهو « سليمان بن سعد الخشنى » .

ولم يكن عبد الملك يقيم بدمشق طوال العام ، بل كان ينتقل بين أماكن مختلفة حسب فصول السنة . وقد عرفت هذه الأماكن . فكان يشتو : أى يقضى وقت الشتاء القارس فى موضع ، اسمه « الصنبرة » بالأردن ، ثم ينتقل فى أواخره الى « الجابية » . ثم يقضى فصل الربيع فى دمشق ، وكذلك فصل الخريف . أما فى الصيف فى شهور الحر الشديد ، فكان يقيم بعلبك فى لبنان . ذلك لأن الأردن ولبنان وسورية كانت كلها اقليما واحدا ، وهو الشام .

وكان كبار ولاة عبد الملك هم : الحجاج بن يوسف الثقفى — واليا على العراق والمشرق ، والمهلب بن أبى صفرة الأزدي على خراسان ، ثم ابنه يزيد والمفضل . ومحمد ابن مروان على الجزيرة والموصل ، وعبد العزيز بن مروان فى مصر ، وحسان بن النعمان الغسانى على بلاد المغرب . وتعاقب على الحجاز يحيى بن الحكم ، فأبان بن عثمان ،

فهمشام بن اسماعيل المخزومي . وكل هؤلاء عرب . فالدولة في ذلك العهد كانت عربية خالصة : خليفتها وولاتها وحكامها وقوادها عرب . وهم الذين يتولون المناصب الرئيسية . وقد برهنوا على كفاءة ومقدرة عالية ، ووصلت الدولة في عهدهم الى أوج القوة والسيادة .

مجالسه الأدبية

كان عبد الملك أديبا عالما ، أو كما عبر « ابن طباطبا » : « كان أديبا ذكيا فاضلا » ، وحصل — كما ذكرنا من قبل عند الكلام على سيرته — على أكبر قدر ممكن من الثقافة العربية . فكان يحب الأدب والشعر ، وفي أوقات فراغه يعقد المجالس الأدبية في حضرته ، التي تتبادل فيها الأحاديث اللغوية والأدبية وغيرها ، وينشد الشعراء شعرهم مدحا فيه وفي يته أو في أغراض أخرى .

وقد سجلت كتب الأدب أو التاريخ بعض هذه المجالس ، وبينت كيف أن عبد الملك كان هو الذي يشرف على المجلس وينتقد ما يلقي عليه من الشعر انتقادا دل على ذوق أدبي رفيع وذكاء لماح وبراعة في النقد .

ولنورد هنا طرفا من أخباره الأدبية .

عقد عبد الملك أحد هذه المجالس ، وقال للحاضرين :
ليقل كل منكم أحسن شعر سَمِعَ به . فرووا لأمريء القيس
وطرفة والأعشى ، فأكثروا حتى أتوا على محاسن ما قالوا .
فقال عبد الملك : أشعرهم والله الذي يقول :

وذى رحم قلمت أظفار ضغنه

بحلمى عنه ، وهو ليس له حلم

يحاول رغمى لا يحاول غيره

وكالموت عندى أن يحل به الرغمة

وظاهر أن الذى أعجب عبد الملك المعنى الخلقى الذى
ينطوى عليه هذا الشعر ، وهو الاحسان الى ذوى الأرحام
والعفو عن سيئاتهم ، وما يتضمن ذلك أيضا من حكمة
سياسية .

وفى مجلس آخر قال للشعراء : « يا معشر الشعراء ،
تشبهونا مرة بالأسد الأبحر ، ومرة بالجبل الأوعر ، ومرة
بالبحر الأجاج . ألا قلمتم فينا كما قال الشاعر : —

نهاركمو مكابدة وصوم

وليلكمو صلاة واقتراء

أى أنه أراد أن يمدحه الشعراء بأنه يقضى ليله ونهاره فى
العبادة وطاعة الله .

ودخل عليه « عبد الله بن قيس الرقيات » فأنشده
مادحا له :

ان الأغر الذي أبوه أبو العا
ص عليه الوقار والحجب
يعتدل التاج فوق مفرقه
على جبين كأنه الذهب
فلم يرض عبد الملك عن ذلك ، وقال : يا بن قيس ،
تمدحني بالتاج كأنى من العجم ! وتقول فى مصعب :
انما مصعب شهاب من الاله تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء
ورده دون أن يعطيه عطاء .

ووفد عليه جرير ليمدحه . وكان خبر ذلك أن جريرا مدح
الحجاج فأعجبه شعره ، بيد أنه قال له : ان الطاقة تعجز عن
المكافأة ، ولكنى موفدك على أمير المؤمنين عبد الملك
ابن مروان ، فسر اليه بكتابتى هذا . فسار اليه ، ثم استأذنه فى
الانشاد فأذن له ، فأنشد جرير قصيدته التى مطلعها :

أتصحو أم فؤادك غير صاح ؟!

فيادره عبد الملك عندئذ قائلا : بل فؤادك ، لا أم لك !

ثم استمر جرير :

عشية هم صحبك بالرواح !

واستمر حتى قال :

تعزت أم حزرّة ثم قالت رأيت الواردين ذوى امتناح
تعلل وهى ساغبة بنيتها بأنفاس من الشبم القراح
ثقى بالله ليس له شريك ومن عند الخليفة بالنجاح
ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح !

فلما بلغ هذا البيت ظهر الارتياح على عبد الملك . وكان
متكئا فاستوى جالسا ، ثم قال : من مدحنا منكم فليمدحنا
بمثل هذا ، أو ليسكت . وبعد أن فرغ جرير من انشاده قال
له : « أترى أم حزرّة ترويهامائة ناقة ؟ » . فقال جرير : اذا
لم تروها — يا أمير المؤمنين — فلا أرواها الله ! فأمر له بمائة
ناقة كلها سود الحدقة . وكان بين يديه صحاف من فضة ،
فقال له جرير : يا أمير المؤمنين ، تأذن لى بواحدة منهن .
فقال : « خذها ، لانفعتك ! » فقال جرير : « كل ما أخذته
منك ينفعنى ان شاء الله » .

وكان الأخطل يحضر كثيرا مجالس عبد الملك ، وكان أثيرا
عنده . وكان عبد الملك يقدر موهبته وقدرته فى البلاغة
العربية . فأدى هذا التشجيع الى أن الأخطل قضى سنة ينظم

قصيدة ليمدح بها عبد الملك ، ثم وفد على الخليفة فأخبره
بذلك ، وقال انه مع ذلك لم يبلغ ما أراد . فطلب اليه الخليفة
أن ينشدها ، فأنشدها وهي قصيدته الرائية التي مطلعها :
خف القطين فراحوا منك أو بكروا

وأزعجتهم نوى في صرفها غير
والتي يقول فيها :

الخائض الغمر والميمون طائره
خليفة الله يستسقى به المطر

وما الفرات اذا جاشت حوالبه
في حافتيه وفي أوساطه العشر
يوما بأجود منه حين تسأله

ولا بأجهر منه حين يجتهر
ثم يمدح بنى أمية ، فيقول :
في نبعة من قریش يعصبون بها

ما ان يوازي بأعلى نبتها الشجر
حشد على الحق عيافو الخنا أنف

اذا ألت بهم مكروهة صبروا
شمس العداوة حتى يستقاد لهم

وأعظم الناس أحلاما اذا قدروا

فجعل عبد الملك يتناول لها ويطرب لمعاني المدح فيها .
وأعلن عن شديد إعجابه بالمعنى في البيت الأخير — خاصة —
وأخذ يردده . فلما فرغ الأخطل من انشاده قال له عبد الملك :
« يا أخطل ، أتريد أن أكتب الى الآفاق أنك أشعر العرب ! »
قال : أكتفى بقول أمير المؤمنين . فأمر له الخليفة بجفنة
كانت بين يديه فملئت دراهم فمنحها له ، وأنعم عليه بخلع
ثمينة . وخرج به مولى على الناس يقول : هذا شاعر أمير
المؤمنين ، هذا أشعر العرب !

وهكذا كان عبد الملك مغرما بالأدب والشعر ، راعيا
للأدباء والشعراء ، وذلك لأنه هو نفسه كان أديبا وعالما
كبيرا . وقد حضر هذه المجالس « الشعبى » — عالم
العراق — فى أواخر عهد الخلافة ، وقال شهادته التى سبق
أن اقتبسناها ، وهى قوله : « ما ذاكرت أحدا الا وجدت
لى الفضل عليه ، الا عبد الملك : فانى ما ذاكرته حديثا
الا زادنى فيه ، ولا شعرا الا زادنى فيه » .

وكان يعجب عبد الملك من الشعر — بصفة خاصة —
ما يدعو الى مكارم الأخلاق ، ولذا كان يستحث الشعراء
على أن يضمنوا شعرهم المعانى الكريمة ، ويفضل أن يمدحه
الشعراء بالأوصاف الدينية ، من التقوى والعدل ، بدل

التشبيهات القديمة . وقد رأينا الأدلة على أنه كان يكرم الشعراء ويجيزهم ويحسن صلاتهم . لكنه كان يكافئ الممتازين ، وليس كل من يفد عليه للسؤال . ولم يسرف في ذلك لأنه — كما عبر في مناسبة — كان يرى أن الأموال العامة حق للدولة . ولذا نسب اليه بعضهم البخل ممن لم يظفروا بنواله . لكنه في الحقيقة لم يكن بخلا ولكن اقتصادا ، وموازنة بين الأمور ، لتصرف أموال الدولة في الوجوه التي تستحق .

ولا شك أن عبد الملك أوجد بعمله واتجاهه هذا نهضة أدبية عظيمة . وشجع الشعراء والرواة على القول والتنافس . ودل باهتمامه بالأدب على تقديره للثقافة العربية . فبذلك أدى خدمة كبيرة للغة العربية تضاف الى خدماته السابقة لها . وبذلك حافظ على أحد المقومات الكبرى للقومية العربية ، وهى اللغة وثقافتها . وكان هذا هو الذى يتوقع من خليفة عربى ، من صميم العرب ، قرشى من خيرة قريش ، وعالم مسلم يعلم أن الدين واللغة صنوان . وما دامت صبغة القومية تزداد فى الدولة ، فهذا يؤدى الى قوتها ونهوضها وتماسكها . أى أن رعاية عبد الملك للثقافة القومية كانت لها أيضا نتائج سياسية طيبة .

بیتہ وأولاده

وهذه آخر نقطة في الكتاب .

عنى عبد الملك أكبر عناية بأمر تربية أولاده . وثبت هنا احدى وصاياه لمربى أولاده ، فهى تبين المنهج الذى رسمه عبد الملك لتربيتهم .

قال عبد الملك لمعلم ولده : « انى قد اخترتك لتأديب ولدى ، وجعلتك عينى عليهم وأمينى . فاجتهد فى تأديبهم . ونصيحتى فيما استنصحتك فيه من أمرهم : علمهم كتاب الله — عز وجل — حتى يحفظوه . وقفهم على ما بين الله فيه من حلال وحرام حتى يعقلوه . وخذهم من الأخلاق بأحسنها ، ومن الآداب بأجمعها . وروّهم من الشعر أعفاه ، ومن الحديث أصدقاه . وجنبهم محادثة النساء ، ومجالسة الأظناء ، ومخالطة السفهاء . وخوفهم بى ، وأدبهم دونى . ولا تخرجهم من علم الى علم حتى يفهموه ، فان ازدحام الكلام فى السمع مضلة للفهم . وأنا أسأل الله تسديدك وتوفيقك . »

وفى وصية أخرى ، قال عبد الملك أيضا : —

« علم بنى القرآن . وخذهم بمكارم الأخلاق . وحشهم على صلة الأرحام . ووقرهم فى الملاء ، وأخفهم فى السر . فان

الأدب أملك بالعلم من الحسب . وتهتدهم بى . وأدبهم
دونى . ولا تخرجهم من علم الى علم حتى يفهموه ، فان
ازدحام الكلام فى السمع مضلة للفهم » .

وهذا يدل على عناية عبد الملك بتربيتهم تربية دينية
وأخلاقية كريمة . وأولاد عبد الملك الذين صار لهم تاريخ
هم : الوليد بن عبد الملك ، وأمه بنت العباس بن جزء من
عبس ، وأخوه — وهو شقيقه — سليمان بن عبد الملك .
ويزيد بن عبد الملك ، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية .
وهشام بن عبد الملك ، وأمه بنت هشام بن اسماعيل
المخزومى . وجميع هؤلاء صاروا خلفاء أو ملوكا ، بدورهم ،
بعد أبيهم . ولذا فان عبد الملك يقال له : « أبو الملوك » . ثم
مسلمة بن عبد الملك وعبد الله وسعيد ، وهم لأمهات أولاد .
ويجدر ذكر فاطمة بنت عبد الملك ، وهى التى صارت زوجة
لعمر بن عبد العزيز . وكانت له نعم القرين والمؤازر ، موافقة
له على مذهبه المثالى ، وأمه أم المغيرة بنت المغيرة
المخزومى .

ولاية العهد

كان العهد بعد عبد الملك لأخيه عبد العزيز بن مروان
والى مصر ، حسب ما قرره وعقده من قبل أبوهما مروان

ابن الحكم . وبقى الأمر كذلك حتى أواخر عهد عبد الملك ،
فبدأ يفكر في مسألة الخلافة بعده ، وهو يود تحويل العهد
من أخيه الى ابنه الوليد بن عبد الملك ، لكنه كان يخشى أن
هذا سيغضب أخاه . واستشار عبد الملك من حوله فبعضهم
أشار بالتنفيذ ، وبعضهم نصح بالتأجيل . ولكنه بعدئذ ،
اتخذ قراره وعزم على تحويل ولاية العهد . وبينما هم في
ذلك ، وإذا بالخبر يرد من مصر بوفاة عبد العزيز بن مروان ،
وذلك في جمادى الأولى سنة ٨٥ هـ . وهنا يذكر الرواة أن
الخطاب وصل أولا الى قبيصة بن ذؤيب صاحب الخاتم
والبريد ، فقرأه واطلع على ما فيه قبل عبد الملك — وكان
عبد الملك قد أذن له بذلك — فدخل قبيصة على عبد الملك
ليلا بعد وقت نومه ، وأبلغه الخبر . فاسترجع عبد الملك
ووجه ساعة ، حزنا لموت أخيه . لكنه شعر فيما يتعلق بولاية
العهد أن المسألة حلت من نفسها . وقال لمن كان يحدثهم في
الأمر : كفانا الله ما كنا نريد . وجمع مستشاريه بعدئذ ،
وقال لهم : ان عبد العزيز قد مضى لسبيله ، ولا بد للناس
من علم وقائم يقوم بالأمر من بعدى . فأجمعوا على العهد
للوليد بن عبد الملك ، ثم من بعده لأخيه سليمان
ابن عبد الملك .

فَعَقَدَ عَبْدُ الْمَلِكِ الْعَهْدَ لِهَما ، عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ . وَكُتِبَ
بِيعَتَهُ لِهَما إِلَى جَمِيعِ الْبِلَدَانِ . فَبَايَعَ النَّاسُ . وَبِذَلِكَ تَمَّتِ
الْبَيْعَةُ لِهَما فِي سَنَةِ ٨٥ هـ . وَيَذَكُرُ أَنَّ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيْبِ
— أَحَدَ فَقَهَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ — لَمَّا طُلِبَ إِلَيْهِ الْبَيْعَةُ أَبِي ، لِأَنَّ
مَذْهَبَهُ — فِيمَا يَبْدُو — أَنَّ الْبَيْعَةَ لَا تُصَحُّ إِلَّا بَعْدَ وَفَاةِ
الْخَلِيفَةِ ، حَيْثُ قَالَ : لَا أَبَايَعُ وَعَبْدَ الْمَلِكِ حَتَّى . فَضَرِبَهُ وَالْي
الْمَدِينَةِ — هِشَامُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْمَخْزُومِي — وَطَافَ بِهِ .
فَلَمَّا بَلَغَ الْخَبْرَ عَبْدَ الْمَلِكِ لَمْ يَرْضَ عَنْ ذَلِكَ . وَكُتِبَ إِلَى
هِشَامٍ يَلُومُهُ وَيَقُولُ : سَعِيدٌ وَاللَّهِ كَانَ أَحْوَجَ أَنْ تُصَلَّ
رَحِمَتُهُ — (لِأَنَّهُ مَخْزُومِي مِثْلَهُ مِنْ بَنِي قَوْمِهِ) — مِنْ أَنْ
تُضْرِبَهُ . وَأَنَا لَنَعْلَمُ مَا عِنْدَهُ مِنْ شِقَاقٍ وَلَا خِلَافٍ . وَبَايَعَ
أَهْلَ الْمَدِينَةِ وَجَمِيعَ النَّاسِ فِي الْآفَاقِ . وَأَصْبَحَ الْعَهْدُ مَقْرَرًا
لِلْوَلِيدِ ، وَانْتَهَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ .

وفاة الخليفة

وَوَصَلَ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى عَامِ ٨٦ هـ ، وَالْأُمُورُ مُسْتَبْتَةٌ
وَالدَّوْلَةُ مُسْتَقَرَّةٌ ، وَكُلُّهَا وَاحِدَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَلَمْ يَعْذِ هُنَاكَ
ثَوْرَاتٌ وَلَا خِلَافٌ . وَكُلُّ شَيْءٍ فِيهَا يَسِيرُ بِاتِّظَامٍ . وَفِي
رَمَضَانَ مِنْ ذَلِكَ الْعَامِ ، كَانَ قَدْ مَضَى عَلَيْهِ فِي الْحُكْمِ : أَيْ

على كرسى الخلافة ، واحد وعشرون عاما . فمرض مرضه الأخير . وكان قد بلغ من العمر اثنين وستين عاما — على ما حققناه .

ومما يروى أنه كان يقول : أخاف الموت في شهر رمضان : فيه ولدت ، وفيه فطمت ، وفيه جمعت القرآن ، وفيه بايع لى الناس . فكان يتوقع الموت في ذلك الشهر . لكن القدر الذى يهوى أحيانا اخلاف الظنون كان قدر أن يكون موعد وفاته بعد هذا الشهر . فاشتد عليه المرض . ثم كانت وفاة عبد الملك بن مروان — خليفة المسلمين — فى يوم الخميس للنصف من شوال ، عام ٨٦ هـ .

وكان قد أوصى بنيه ، فى مرض موته ، بهذه الوصية : « أوصيكم بتقوى الله . فانها أزين حلية ، وأحصن كهف . ليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير حق الكبير . وانظروا مسلمة فأصدروا عن رأيه ، فانه نابكم الذى عنه تفترون ، ومجنكم الذى عنه ترمون . وأكرموا الحجاج ، فانه الذى وطأ لكم المناير ودوخ لكم البلاد وأذل الأعداء . وكونوا بنى أم برة ، لا تدب بينكم العقارب . وكونوا فى الحرب أحرارا . وكونوا للمعروف منارا . فان المعروف يبقى أجره وذكره . وضعوا معروفكم عند ذوى

الأحساب ، فانهم أصون له وأشكر لما يؤتى اليهم منه .
وتعهدوا ذنوب أهل الذنوب ، فان استقالوا فأقبلوا ، وان
عادوا فانتقموا . »

وهكذا كان عبد الملك يبدأ وصاياه دائما لأولاده بأن
يوصيهم بتقوى الله . فقد كان عبد الملك رجل دين في الوقت
الذي يدبر فيه أمور الدنيا . وهذا يدل على مكان عبد الملك
وأكثر خلفاء بني أمية من الدين . وتنسب لعبد الملك أقوال
على أنه قالها في مرض موته تفيد الندم أو نحو ذلك ، وظاهر
أنها من وضع أعدائه ، فهي لا تتفق مع سيرته وتدينه وخلقه .
وقد أشرنا من قبل الى أن الشيعة وضعوا أحاديث وروايات
كثيرة مكذوبة عن بني أمية .

وكانت وفاة عبد الملك بدمشق . فدفن خارج باب
الجابية . وصلى عليه ابنه الوليد . وتمثل أحد أولاده بهذا
البيت :

وما كان قيس هلكه هلك واحد

ولكنه بنيان قوم تهدما

ورثاه كثير من الشعراء ، ومنهم كثير عزّة الذي قال :

سقاك ابن مروان من الغيث مسبل

أجش شمالي يجود ويهطل

فما في حياة بعد موتك رغبة

لحر ، وان كنا الوليد تؤمل
وانصرف الوليد على الفور الى المسجد — دون أن
يدخل منزله — فصعد المنبر ، واجتمع اليه الناس فخطبهم ،
فقال : انا لله وانا اليه راجعون ، والله المستعان على
مصيبتنا بموت أمير المؤمنين . والحمد لله على ما أنعم به
علينا من الخلافة . قوموا فبايعوا . فبايعه الناس . وكان
بذلك أول من عزى نفسه وهنأها . ثم ألقى هذه الخطبة ،
بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، قال : —

« أيها الناس : انه لا مقدم لما أخر الله ، ولا مؤخر لما
قدم الله . وقد كان من قضاء الله وسابق علمه ، وما كتب على
أنبيائه وحملة عرشه ، الموت . وقد صار الى منازل الأبرار
وليّ هذه الأمة بالذي يحق عليه الله : من الشدة على المريب ،
واللين لأهل الحق والفضل . واقامة ما أقام الله من منار
الاسلام وأعلامه : من حج هذا البيت ، وغزو هذه الثغور ،
وشن هذه الغارة على أعداء الله ، فلم يكن عاجزا ولا مفرطا .
أيها الناس : عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة . فان الشيطان مع
الفرد . أيها الناس : من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي
فيه عيناه ، ومن سكت مات بدائه » . ثم نزل .

وهكذا انتقلت الخلافة في هدوء ، وبدون خلاف ، الى الوليد بن عبد الملك . وكان هذا نتيجة جهود عبد الملك ، اذ ترك له أى لابنه دولة مستقرة موحدة ثابتة الأركان والدعائم ، قوية : حريا وسياسيا واقتصاديا وأديبا . وظهرت آثار الاستقرار والتوحد والقوة في عهد الوليد ، فكان عهده الذروة التى وصلت اليها الدولة العربية الاسلامية في مجدها . كان عهد الفتوحات العظيمة والرغد والرخاء . ولا يزال الجامع الأموى الذى بناه الخليفة الوليد بدمشق باقيا الى اليوم ، يرمز الى ذلك العهد : عهد المجد والقوة ، والوحدة الشاملة للدولة العربية الاسلامية .

أولاده الخلفاء بعده

لم يبق الا أن نذكر أن أثر عبد الملك ظل باقيا في أولاده الذين خلفوه ، فقد أحسن تربيتهم وتنشئتهم ، ورسم لهم النهج وكان لهم أسوة ، وقد سجل التاريخ أنهم كانوا أكفاء وخلفاء قادرين . وهم : الوليد ، وسليمان ، وهشام — اذا خلىنا جانبا يزيد ومدته القصيرة ، وهى أربع سنوات . فهؤلاء الخلفاء الذين ذكرناهم حملوا الأمانة بعد أبيهم ، وقادوا الأمة ورعوا الدولة خير قيادة ورعاية . فالوليد

ابن عبد الملك قال عنه الذهبي : انه أقام الجهاد في أيامه ،
وفيهما فتحت الفتوحات العظيمة ، كأيام عمر بن الخطاب .
وفضلا عن ذلك ، فإن الوليد — كما أثبت المؤرخون —
كان يتعهد الأيتام فيرتب لهم من يخدمهم ، ومن يؤدبهم
(يعلمهم) ، ويرتب للزمنى (المرضى وكبار السن والمقعدين)
من يخدمهم . وللمكفوفين من يقودهم . ورزق العلماء
والضعفاء والفقراء . وحرم عليهم سؤال الناس . وفرض لهم
ما يكفيهم . أى أنه جعل الدولة كافلة أن تؤدي هذه
الخدمات العامة للناس . وهذا هو التكافل الاجتماعى ،
أو الاشتراكى — كما نعبّر عنه اليوم — سبقت به الدولة
الاسلامية النظم الاشتراكية التقدمية ، التى لم تهتد اليها
أوروبا الا منذ عهد قريب ، ولكن الدولة الاسلامية استقتها
من روح الاسلام ومبادئه ، وطبقتها .

وأما سليمان : فكان من خيار الخلفاء ، مؤثرا للعدل ،
محبا للجهاد ، جوادا ، فصيحا . وفى عهده فتحت أقاليم
طبرستان وجرجان ، التى خرجت فيما بعد كبار العلماء .
واستمر جهاده لغزو الروم ، حتى انه جهز حملة قوية لفتح
القسطنطينية نفسها عاصمة الدولة الرومية البيزنطية ، وذلك
تحت قيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك . ولولا أن أدركه

الأجل لأتم فتحها . وقال عنه ابن سيرين من العلماء : « يرحم الله سليمان . افتتح خلافته بإحيائه للصلاة لأول مواقيتها ، واختتمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز . » وذكروا أن من محاسنه أن عمر بن عبد العزيز كان له كالوزير ، فكان يمثل أوامره في الخير .

وكان لسليمان فضل أنه عهد بالخلافة بعده لابن عمه : عمر بن عبد العزيز . فتولى عمر في نهاية القرن الأول الهجري . وهو ابن أخى عبد الملك بن مروان وختنه : أى زوج ابنته فاطمة ، على ما قدمنا ، وحفيد مروان . وقد أدرك عمر عهد عبد الملك والوليد وسليمان ، واشترك معهم في أعمال الدولة وعمل تحت قيادتهم ، فعمر ما هو إلا فرع من هذه الدوحة . والثمرة الكريمة لا تنبت إلا من شجرة كريمة . وإن كان هو سما بمثاليته وورعه و « اشتراكته الإسلامية » ، إلى الحد الأعلى .

وأما هشام ، فكان شبيه أبيه عبد الملك : في قوة العقل والحزم . وهو الذى اتخذ أبو جعفر المنصور فيما بعد مثله الكامل ، الذى يقتدى به في ادارته للدولة . فكان يتحدث عنه بكل إعجاب ، ويقول عنه « انه محشو عقلا » ، وأنه « رجل القوم » وكانت دواوينه أضبط دواوين . وقد

حكم البلاد عشرين عاما ، كانت الدولة في أثنائها لا تزال تمثل امبراطورية قوية واسعة الأطراف ، تمتد حدودها من جبال البرانس الى حدود الصين .

فهؤلاء هم الخلفاء : أولاد عبد الملك . وقد استمرت الدولة الأموية — بعد انتهاء عهدها في المشرق — في الدولة الأموية الجديدة ، التي أقامها بالأندلس أحد أحفاد هشام وعبد الملك — وهو عبد الرحمن الداخل الملقب بـ « صقر قرش » — وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك . فالدولة الإسلامية والحضارة الإسلامية التي ظهرت في الأندلس ، وبهرت أهل أوروبا ، وكانت كالشمس المشرقة وسط ظلام أوروبا الدامس : من الجهل والتأخر ، وهي التي هدت بنورها أوروبا منذ ذلك الوقت الى النهضة الحديثة — هذه الدولة كانت من أثر عبد الرحمن الداخل وبنى أمية . والخلفاء العظام الذين تبوأوا عرش الدولة بالأندلس : مثل عبد الرحمن الناصر — الذي كان أعظم عاهل في أوروبا في عصره — كانوا من أحفاد عبد الملك ومروان . وهكذا ظل الأثر باقيا ، وكانت الدولة الأموية — وهي الدولة التي استعرضنا تاريخها في هذا الكتاب — : الدولة التي أقامها مروان ، وثبت دعائمها وحفظها ، وأعاد إليها

قوتها وحقق وحدتها عبد الملك — لها هذا الأثر العظيم
الخالد في التاريخ ، اذ خدمت الدين والعلم والحضارة
والتقدم في المشرق والمغرب ، وهى الدولة العربية الاسلامية،
التي كانت تدفعها روح العروبة وتهتدى بنور الاسلام .

(وبعد) فهذه سيرة الخليفة العربى المسلم عبد الملك
ابن مروان ، أحد الأعلام في تاريخنا العربى الاسلامى : سيرة
حياته وأعماله وفتوحاته واصلاحاته وآثاره في التاريخ ،
وسيرة الأمة العربية الاسلامية في ذلك العهد — رسمنا عنها
صورة تاريخية صادقة ، لا هدف لنا منها الا اثبات وتجلية
الحقيقة ، لعل ما فيها من عظات وعبر ينفع الجيل الحاضر ،
المتطلع للنهضة والاصلاح : جيل العروبة والاسلام .
والله سبحانه الموفق . وله الحمد أولا وآخرا .

فهرس الكتاب

صفحة	
٨- ٣	مقدمة
٣٨- ٩	الفصل الأول : الخليفة والدولة
٦٧- ٣٩	الفصل الثاني : دولة آل مروان
٩٢- ٦٨	الفصل الثالث : عبد الملك وأسرته (١)
١٢٦- ٩٣	الفصل الرابع : عبد الملك وأسرته (٢)
١٦٣- ١٢٧	الفصل الخامس : ثورة الشيعة بالعراق
١٨٣- ١٦٤	الفصل السادس : صراع بين القوى
٢٢٤- ١٨٤	الفصل السابع : نحو توحيد الدولة
٢٤٤- ٢٢٥	الفصل الثامن : عام الجماعة واطمام الوحدة
٢٨٩- ٢٤٥	الفصل التاسع : فتوحات - واصلاحات
	الفصل العاشر : شخصية عبد الملك . سياسته .
٣٣٠- ٢٩٠	خلفاؤه



